د . أحمد عبد الحميد إسماعيل

عبد الله البردُّوني

حياته وشعره

تقديم

أ . د . الطاهر مكي



عبدالله البردُّونى

حياته وشعره

د. أحمد عبدالحميد إسماعيل

الطبعة العربية الأولى نوفمبر ١٩٩٨

رقم الإيداع ١٥٣٠٠/٩٨

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-291-119-1



السلسلة الأدبية

رئيس المركز
على عبد الحميد

مدير المركز
محمود عبد الحميد

المشرف العام
على السلسلة الأدبية
خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى
مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

عبد الله البردُّونى

حياته وشعره

د. أحمد عبد الحميد إسماعيل

مدرس الأدب العربى - كلية دار العلوم

جامعة القاهرة - فرع الفيوم

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م



حسن يوسف الموسوي

بسم الله الرحمن الرحيم

"ربِّ إنّي لِمَا أنزلْتَ إليّ من خيرٍ فقيرٌ"

صدق الله العظيم

(القصص . ٢٤)

الإهداء

إلى روحك الطاهرة يا أبى ،

أهدى هذا الكتاب ..

ابنك

أحمد عبد الحميد

هذا الكتاب

كان أطروحة الماجستير ، نوقشت في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ،

يوم الخميس ١٠/١٠/١٩٩٢م ، ونالت تقدير "ممتاز" .

أشرف عليها الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكى ،

وناقشها الأستاذ الدكتور / محمد عبد المطلب

والأستاذ الدكتور / عبد الواحد علام

تقديم

جاء لقائى مع الشاعر الكبير عبد الله البردُّونى متأخراً للغاية ، فلم أسمع به قبل رحيلى إلى أوروبا مبتعثًا عام ١٩٥٧ ، لم أسمع به إلاّ بعد عودتى إلى الوطن عام ١٩٧٣ ، فى هذا العام كنت أهيئ نفسى لإعداد مجموعة من القصائد لكبار شعراء العربية فى مختلف أقطارها ؛ لتنمية وجدان عربى مشترك بين الشباب وطلاب الجامعة الذين سوف أتولى تدريس هذه النصوص لهم ؛ انطلاقًا من الإيمان بوحدة عربية سوف تتحقق يومًا مهما طال الزمن ، وتكاثرت الصعاب . وأدركت مبكراً أن الصخب الإعلامى ، وهو زائف وكاذب فى مجمله ، لا يمكن أن يهدينى إلى هؤلاء الشعراء العظام الذين أبحث عنهم ، فهم بحكم طبيعتهم وتكوينهم ، وإيمانهم بفنهم وعبقريتهم ؛ أبعد الناس عن التدنِّى والنفاق ، وأقربهم إلى التمرد والثورة ، إن المثقف الحقيقى لا يكون إلاَّ متمرداً وثائراً على الدوام . وكان طريقى إلى هؤلاء هى دواوين الشعر المتواضعة طباعة وورقًا ، والمجلات غير الرسمية ، ألتقط كليهما من أسوار حديقة الأزبكية فى أيامها المجيدة تلك .

وذات يوم التقطت مجلة تصدر فى بيروت ، ووقفت العدد على مهرجان شعرى أقيم فى دمشق ، عام ١٩٧٠ ، إذا لم تخن الذاكرة ، وشريت العدد ، وجلست فى "الأمريكين" ألتهم ما فيه، وخاب ظنى فى أكثر قصائده ، كان جلّها نثراً كتب رأسيًا ، بلا موسيقى ولا صور ولا معنى ، وأحسست بالخيبة العميقة ، حتى إذا انتهيت إلى قريب من آخر المجلة ، وقعت على قصيدة بعنوان "أبو تمام وعروبة اليوم" ، للشاعر عبد الله البردُّونى ، ولم أكد أمضى فى قراءة الأبيات ؛ حتى أحسست بنشوة ، دونها نشوة المحب وقد وصله الحبيب بعد هجر ، أو مدمن الكأس وقد أصاب منها شيئًا بعد حرمان ، وأخذت أتعجل نفسى فى القراءة، بصوت مرتفع، رغم أننى فى مكان عام، فإذا انتهيت منها عاودتها، وعدت إلى منزلى أحتضن المجلة كأننى عثرت فيها على كنز ثمين .

بعد عام بدأت أجمع القصائد التى سوف يتضمنها كتابى : "الشعر العربى المعاصر : روائعه ومدخل لقراءته" ، ونفدت طبعته الخامسة منذ أعوام ، وحين التمست المجلة اللبنانية لم أجدها ، وعبثًا حاولت أن أتذكر اسم الشاعر ، ولكن أبياتًا من القصيدة استقرت فى ذاكرتى ، فأرسلت إلى الصديق العزيز الأستاذ الدكتور أحمد الهوارى وكان يعمل فى اليمن يومها ، أستنجده ، وأسأله أعمال شاعر له قصيدة اسمها "أبو تمام وعروبة اليوم" ، ولا أذكر منها إلا أبياتًا قليلة ذكرتها له ،

ولم تمض غير أيام ؛ حتى حمل إلى البريد من اليمن الأعمال الكاملة للشاعر اليمنى العظيم، ومن يومها لا تفارقنى أشعاره ، أعود إليها حين تحاصرنى عجمة الشعراء الأحرار أو المنفلتين ، أو الناثرين ، وكلام كثير تقرأه فلا تفهم منه شيئًا ، وادعاءات عريضة تصدع رأسك ، ولا تجد عندها نافعًا ، واكتشفت فى صاحبى الذى أحببته شعرنا العربى العريق ، مضمخًا بأريج العصر وروحه وعطوره ، تجد نفسك والتاريخ بين يديك لم تفارقه ، ولكنك تعيش الحاضر بكل روعته وتقنياته .

فى البردّونى شموخ المتنبى وكبرياؤه فنانًا ، وإنسانية المعرى وفلسفته ، وزهده ، وتعاليه إنسانا على دنايا الحياة وتوافهها ، وأخذ من ابن الرومى سخريته المريرة ، يواجه بها زيف الحياة فى أيامنا ، وما أكثر هذا الزيف وأقساه وأمره فى عالمنا العربى ، إنه مزيج رائع من هذه القمم التى يفخر بها الأدب العربى فى مختلف عصوره ، وأعيذك أن تظن أنه قلّد فى شعره كل واحد منهم فى جانب من هذه الجوانب التى أشرت إليها ، لا ، ذلك شىء لا يرد على الخاطر ، وما أريد أن أقوله إن نيران الأحداث التى اصطلى بها ، وأنضجت عبقريته ، وصفّتها من أدران الطراوة والتردد والنفاق - وهو أشد الأمراض خطورة وتأثيراً ودماراً بين المثقفين العرب ، والنابهون منهم أشدهم ترتيلاً - جعلت مزاجه على النحو الذى ألمحنا إليه ، إحساسه بقيمته شاعراً ، ومشاركته مواطنيه آلامهم إنسانًا ، وتوظيف الفكاهة فى النقد حين تكون ألذع وأقسى من الجدية .

أما فى تشكيله الشعرى فهو أمة وحده ، لا مثيل لها فيما سبق من شعرنا العربى ، ولا بين معاصريه ، ولا أحكم على المستقبل ، لأننى لا أفقد الأمل فى أمتى وعبقريتها ، رغم طوفان الزيف الباطل الذى يتفشى واقعنا الأدبى بعامة والشعر بخاصة ، فلعل الله يبعث لنا بردّونيًا آخر على رأس المئة القادمة إن شاء الله . البردّونى يصب إبداعه فى قوالب شعرنا العريق : عروض الخليل وقوافيه ، ولكن هذه لا تحول بينه وبين أن يفيد من أدق تقنيات النقد الحديث ، فتجد فى قصائده تعدّد الأصوات ، والقصة ، والرمز ، والأحلام ، وتتناثر الحكمة عبر أبياته كأنما هو زهير بن أبى سلمى بعث بيننا من جديد . ولأنه متمكن من لغة قومه ، فهو صاحب مذهب فرد فى الصياغة ، لا يخرج به عن القواعد ، ولكن يذهب بها إلى ما هو أبعد من العادى المألوف ، فيخيل إليك انه يشتق أفعالاً جديدة ، ويصوغ مشتقات غير معهودة ، وأنك معه تقرأ عربية مستحدثة ، وإن كانت تضرب بجذورها فى أبعد أعماق التاريخ .

حتى قريب كانت العربية تزهو بكواكب ثلاثة تتحرك فى سمائها الشعرية : محمد صادق الجواهرى ، ونزار قبانى ، وعبد الله البردّونى ، ذهب الأول والثانى ، وندعو الله أن يمد فى عمر

الثالث . أمّا الجواهرى فكان شاعراً وحدويًا تراثيًا ، يقول القصيدة فى ثلاثمائة بيت ، فلا تضطرب بين يديه قافية ، ولا يعز عليه إيقاع ، ولكنه لم يعر الجديد فى الفن اهتمامًا ، دون أن ينقص ذلك من روعته شيئًا ، فقد كانت إمكانات العربية ، وهى بلا حدود لمن يتمكن منها ، تمده بكل ما يريد ، فملأ الدنيا أنغامًا بهموم العرب وطموحاتهم ، وترك بصماته واضحة فى حياتنا الأدبية ، تقهر النسيان ، وتفرض نفسها على أحداث الزمان . وأفاد نزار قبانى من مستحدثات الفن، فكان يلعب بالمجاز وتراسل الحواس والقص فى مهارة فائقة ، ولكن خطه من التعمق فى التراث كان متواضعًا، فجاء معجمه الشعرى محدوداً ، يتحرك خلال قدر منه لا يتجاوزه . وأخذ البردُّونى خير ما عند الجواهرى وما عند نزار ، فكان معجمه وسيعًا ، وثقافته مترامية الأطراف ، وتمكنه من الحديث معينًا له على أن يكون شاعراً عصريًا .

ومع ذلك ؛ فالشعر الحق لا يقاس فى بعده النهائى بشىء مما قلت ، وإنما فى قدرة صاحبه على إيصال تجربته للمتلقى ، أى القارئ إن شئت ، وربما كانت مأساة الشعر الحر أنه سقط فى الطريق قبل أن يبلغ غايته ، فلم يترك أثراً ، ولا أحس به أحد ، رغم كل دعاوى أصحابه ومؤيديه .

أما شعر البردُّونى فلا تكاد تقرأه حتى تحس بتجربة صاحبه ، ولقد كنت دائمًا أدرس فريدته "أبو تمام وعروبة اليوم" ، فأحس بالدمع فى مآقى عيون طلابى ، حتى إذا سألت ، فى المحاضرة نفسها ، ونحن نتدارسها ، عما إذا كان هناك من حفظها ، فأجد عدداً من الطلاب غير قليل ، ينشد ما تدارسنا من الذاكرة فلا يخطئ ، ولك أن تسأل كم شاعراً من شعراء الشعر الحر يستطيع أن ينشد قصيدته أمام جمع من الذاكرة ؟

انا لا أعرف أحداً .

***

كنت على ذكر مع نفسى من دراسة لهذا المبدع العظيم ، ولكن شواغل الزمن ، وهموم المثقف الملتزم فى أيامنا ، سرقت الزمن من بين يدى دون أن تأتى على الفكرة نفسها . وذات يوم جاءنى الدكتور أحمد إسماعيل ، وهو من طلابى الذين كنت أحبهم ، لمواهبه ، وثقافته ، وخلقه ، يعرض علىّ أن تكون رسالته فى الماجستير عن عبد الله البردُّونى ، بإشرافى ، وترددت ، ووافقت شريطة الأّ يحول هذا دون إعداد دراستى أنا فى المستقبل ، ووافق . كنت خائفًا الاّ تجىء الدراسة فى مستوى الشاعر الكبير ، فلما أنهاها غمرتنى سعادة بالغة ؛ فقد جاءت فوق ما توقعت ؛ ذلك أن المبدع العظيم يرتفع بدارسه إذا كان صاحب موهبة ، وما أكثر ما نصحت طلابى بأن يتعدوا فى

دراساتـهم العليا عن الشـعارير ، وهم كـثر ، والحـمد لله الذى لا يحـمد على مكـروه سواه ، لأن هؤلاء سوف يهبطون بهم إلى قاع الثرثرة والغموض والادعاء .

جاءت دراسـة الدكتـور أحمد إسـماعيل فى مـستـوى رفيع من التحليـل ، وكانت الأولى فى نوعهـا ، فهى عـمل رائد ، ولست أزعم أنه أغلق الباب بعـده ، لأن الشعـر العظيم حمّـال أوجه ، والشخصية المبدعـة تتسع فى حركتها لأكثر من تفسيـر ، وبحسبه أنه راض الطريق لمن يأتى بعده ، وأوضح المعالم للراغبين فى مـتابعته ، ويبقى له فضل الريادة والاكتشـاف . ولا أظن أننى متحدث عن محتوى الرسالة ، فهى بين يدى القارئ ، لن يخسر فى مـتابعتها وقتًـا ، ولا فى شراء الكتاب مالاً .

***

يا أيها القرن الواحد والعشرون ، القادم إلينا بعد عامين ، أفسح الطريق أمام شاعر عظيم سـوف يكون أحد مفاخرك أنك احتويته بين من عاشوك زمنًا .

أ . د . الطاهر أحمد مكى

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل كتابه بلسان عربى مبين ، والصلاة والسلام على النبى العربى الأمين .

هذا الكتاب ، دراسة فى عالم البـردُّونى الشعرى ، وقراءة متأنية لإبداع فنى متـميز ، يمزجٍ بين الأصالة والتجديد ، بمقدرة فنية فائقة ، أما الأصالة ، فإنها تلوح فى كل قصيدة من شعر البردونى ، حيث البناء الموسيـقى التراثى المقتدر ، الذى يؤكـد أن شعر البردُّونى يتهـادى فيه النور الذى لمسناه فى شعر أبى تمام والمتنبى وأبى العلاء ووضاح اليمن ويزيد بن مفرغ الحميرى ، وغيرهم من شعراء العربية الذين أصبحوا معالم فى تاريخ الشعر الجميل .

وأما التجـديد ، فهو التفـرد الحقيقى الذى باغـتنا به هذا الشاعر ، ففى الإطار التـراثى ، تنساب تقنيات الشعر الحديث ، بمذاهبه الأدبية المتعددة ، على مستوى الإيقاع واللغة والأسلوب والصورة، فنلمح أبعاداً عبثية ووجودية ورمزية وسريالية ، لا تضيق عنهـا أوزان الخليل ، ولا تعجز البردُّونى حين يرتحل بحروفه من عالمه الذاتى إلى عالم الحياة الأرحب .

إن الأدب عالم رحيب وشفـيف ، سرعان ما يسجل فى ذاكرة التـاريخ ولا يمحو ، لأن عناصر الأدب تتغلغل فى وجـدان الإنسان مـؤثرة فى سلوكه وتفكيره ، والشـعر أخطر وأصـفى العناصر المؤثرة ، إنه فن تكثيف الانفـعال ؛ لامتلاكه اللغـة والموسيقى وقدرته على تكشيـف جوانب الإيحاء بالصورة والإيقاع ، لقد حفظ الـشعر تاريخ الأمم المختلفة ، وسبر أغوار الشعـوب ، وجاء محملا بآثارها ، فى الفلسفة والعقيدة والسياسة والاجتـماع والحضارة وغيرها ، ومازال الشعر يقوم بنفس المهمة فى حاضرنا ، ليغدو شاهدا عليه فى ضميـر الأجيال المتعاقبة ، وسيظل مجال الأدب والشعر مـرآة لانعكاس العلاقـات فى ذات الإنســان ، وإن للشعـر بخـاصة ، شـفـافيـة تلمس هذه الذات العميـقة، إنه يصور مدى الانفعال والتـلاحم وميلاد الإحساسـات وموتها فيها ، إن الشـعر وحده جدير بخلق مـواسم فكرية ، تنهض بالأمم كل حين ، وتصلها بحـقيقة الوجود والمهـمة التى بعث بها الإنـسان فى هذا الوجـود ، وبتوليـد الثقة فـى الإنسان ، تخلق المقـدرة على الحيـاة.. وتتجـسد السعادة مصـاحبة لجوانبها المخـتلفة ، لأنها ولدت فكرة فى العقل البشرى المسـيطر ، إن الشعر هو

هدية الله إلى الوجدان الجمعى الإنسانى ، رغم أنه موهبة تعطى للقليلين من الناس ، وهؤلاء الشعراء لا يستطيعون إخفاءه ، كأنه قدرهم المحتوم ، ومن هنا فقد حمل الشعر من أسرار التأثير ما يمكن أن يصل بأخلاق رسالة السماء إلى القلب الإنسانى ، فالشعر لا وطن له ، لأنه لغة جمالية تخترق المشاعر فى كل وطن ، فقد تأثر كل الشعراء بكل الشعراء الذين سبقوهم ، إن سلبًا وإن إيجابا ، وليس بمستغرب أن نستشف دندنات "طاغور" و "بيدبا" الفيلسوف فى قصيدة لشاعر عربى ، ونسمع الترنيمات الأندلسية فى شعر أوربا ، ونشدو بالأخير فى شعرنا العربى المعاصر ، ونخضع فى مفهومنا للشعر ، للعديد من المذاهب والتيارات التى اجتاحت الشعر الأوربى ، والتى تولدت من انسياح الشعراء فى عوالم الفنون الأخرى ، كالرسم والنحت والتصوير والمسرح والرواية والقصة.

وشاعرنا " عبد الله البردُّونى" أحد الشعراء المعاصرين الذين ناءوا بثقل أمانه الكلمة الشاعرة ، واستطاع أن يجردها سلاحًا وعلاجًا وبلسمًا فى أمته ، واستطاعت الكلمة الشاعرة أن تصور الوجود والعالم والبشر والتاريخ والحياة فى ذاته خلف جفنيه المظلمين ، كما استطاعت أن ترسم ملامحه النفسية الغائرة ، التى تتحكم فى منطق الأشياء لتبنى له منطقه الخاص ، وتبيح له التردد والاختلاف فى قضية واحدة ، وهو فى موقفيه صادق الحس والمشاعر ، لأنه لا يصور الحقائق الظاهرة ، بقدر ما يصور أثر ترسباتها فى نفسه ، وكم هى كثيرة وشائكة تلك القضايا اليمنية والعربية والإسلامية !

وإنى إذ أقدم هذا الكتاب ، أقدم قبله عظيم امتنانى لأستاذى الدكتور الطاهر أحمد مكى ، فهو الذى مهد لى الطريق ، وحبب إلىّ الأدب ، وأول من عرفنا بهذا الشاعر العظيم ، وتفضل بتقديم هذا الكتاب .

وباقة ورد وحب ، لرفيق العمر والدرب ، الدكتور أيمن ميدان ، زهرة الود بينى وبين أستاذى الحبيب .

المؤلف

تمهيد

اليمن :

تحتل اليمن مكانـة أثيرة فى قلب الأمة العربية المسلمـة، بل فى ضمير العـالم القديم والحديث، لماضيها الزاهر النقى، الذى تجلى فى «حـضارة سبأ» وقد عظم القرآن ملكة من ملوكهـا، لخضوعها مؤمنة بالحق والتوحيـد، كما عظم فى قومها الرشد والطاعة، ، ومـا كانت الملكة "بلقيس" إلا يمنية الدم والنسب، وما كـان خضوعـها للنبى سليـمان عليه السـلام إلا إيذاناً بمولد أمة موحـدة، تدخر لأنبـياء الله بعـد حين، لما وهبت مـن سلامـة الصدر وصـفاء الذهن، ولا عـجب أن يكون ملوك الغساسنة فى الشـام من اليمن، والأوس والخزرج من اليمن، وهم أحبـاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأنصار الإسـلام، وكانت اليـمن أولى المناطق التى دخلت الإسلام بعـد المدينة، فاستـحقت اليمن واليمنيون تكريم الرسول لهم بقوله: " الإيمان يمان، والحكمة يمانية" [1] والإيمان والحكمة زهرتان لطهر القلب وصـفاء الذهن، وقد قامت فى اليمن دول كـثيرة مختلفـة المذهب والفكر بعد تفكك الخلافة زمن الدولة العباسية، هذه الدول تنتـمى إلى أهل السنة والشيعة بأنواعها والخوارج، كلها زالت مع الزمن، ولم يبق سوى أهل السنة والشيعـة الزيدية، وهم أعدل الشيعة وأقربهم فكراً إلى أهل السنة، ولم يذكـر خلاف بينهـما، رغم مـحاولات الاستـعمـار الإنجليزى إحداث الـفتنة بينهما، ثم محاولات الأئمة إشعالها، حتى ينشغل الشعب اليمنى بخلافاته عن جرائمهم فى حقه.

أحوال اليمن السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبل ثورة سبتمبر سنة ١٩٦٢م :

بسطت الدولة العثمانية نفوذها على اليمن سنة ١٧١٧م فى عهد سليم الأول، وسرعان ما أخذ هذا النفوذ فـى الانحلال تدريجيـاً، لضعف العـثمانيـين فى مواجـهة الدول الاستـعمـارية، وسوء إدارتهم وإشرافهم على اليمن، وبداية المقـاومة الشعبية اليمنيـة للأتراك، معلنة سخطها على الحكم التركى. إذ أدرك اليـمنيون أنهم أولى باليمن وأجـدر بالاستقـلال، فأيدوا الدعوة الوهابيـة، كفكرة

(١) انظر: الشـيخ بدر الدين العيـنى (ت ٨٥٥هـ): عمـدة القارى، شـرح صحـيح البخـارى، ج ١٨، ص٣١، دار إحياء التراث العربى، بيروت .

دينية وسياسية، تستطيع أن تجمع الشعب اليمنى على كلمة واحدة، لتخرج اليمن قوية من تحت السيطرة التركية، ولكن والى مصر "محمد على"، وكان يعمل على إرضاء الباب العالى فى تركيا، أرسل حملة عسكرية قوضت عرش الاستقلال الوليد لتعود اليمن مرة أخرى الى حظيرة الدولة العثمانية سنة ١٨١٨م، وظلت الثورات صغيرة فى الخفاء، إلى أن كان عام ١٩١١م، حيث بلغت الثورة أوجها بقيادة الإمام يحيى بن حميد الدين، وتمكن الثوار من الاستيلاء على صنعاء، عندئذ فرضوا على تركيا عقد صلح معهم، وفيه، اعترفت لهم بحق السيادة على المناطق الجبلية الداخلية، واحتفظت تركيا لنفسها بالسيادة على المنطقة الساحلية (١).

استطاع "بنو حميد الدين" بقيادة الإمام يحيى، أن ينصبوا أنفسهم أئمة على اليمن، وساعدتهم الظروف السياسية على ذلك. كما ساعدتهم بعض الادعاءات الدينية، إذ أعلنوا أنهم ينتسبون للرسول صلى الله عليه وسلم، مما دفع الشعب إلى الالتفاف حولهم صادقاً، وبعد محاولات عديدة مع الدولة العثمانية التى لقبت بعد ضعفها "بالرجل المريض"، سنحت الفرصة للإمام يحيى، ليعلن استقلال اليمن سنه ١٩١٨م، بعد هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى، وعقدها صلحاً مع أعدائها (٢).

وكان من الإمام يحيى ما لم يحمد عقباه، فقد عقد معاهدة مع بريطانيا سنة ١٩٣٤م، ليضمن ملكه وملك أسرته، ومفاد المعاهدة الاعتراف باستقلال اليمن - التى استقلت من قبل - ولكن على ما هى عليه، أى دون عدن البريطانية ومحمياتها التسع كما أطلقت عليها بريطانيا، التى رأت فى عدن موقعا استراتيجيا يضمن لها السيطرة على البحر العربى والمحيط الهندى ومدخل البحر الأحمر من الجنوب، وهى المناطق التى تمر فيها تجارتها من الهند وجنوب شرق آسيا الى الشمال عبر طريق رأس الرجاء الصالح جنوب أفريقيا أو طريق قناة السويس (٣).

لقد تألم اليمنيون لانقسام اليمن، ومما زاد فى الهم، ضياع مناطق الشمال اليمنى أيضا فى نفس العام الذى استسلم فيه الإمام للإنجليز، ففى سنه ١٩٣٤ م، قامت الحرب اليمنية السعودية نتيجة للخلافات حول الحدود، وضمت السعودية أراضى يمنية، هى "نجران وأبها وجيزان"، ولحقن الدماء تنازل الإمام مرة أخرى، ليخلف فى قلوب اليمنيين حسرة دفينة، باسم القومية العربية (٤)،

---

(١) د. يسرى الجوهرى، د. ناريمان درويش: جغرافيا العالم، ص ٥١٧، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٨م.

(٢) نفسه: ص ٥١٧.

(٣) نفسه: ص ٥١٧.

(٤) انظر: محمود كامل المحامى: الدولة العربية الكبرى، ص٤٥٧، دار المعارف بالقاهرة.

مما جعل بعض المؤرخين الإيطاليين يتساءل عن ماهية القومية العربية، التى تخول للإمام تسليم أرض شعب اليمن إلى المملكة السعودية، ولم تستطع إيطاليا حليفة اليمن آنذاك أن تساعد اليمن على استرداد أراضيه، ذلك أن الإمام لم يطلب استعادة الأرض من الإنجليز فى عدن جنوب اليمن، أو من المملكة العربية السعودية حليفة الإنجليز، لقد أراد الإمام أن ينطوى بدولته بعيدا عن المعارك العالمية، خوفا من تدخل القوى ذات المصالح الطامعة فيها، فرأى أن تبقى بلاده - ما أمكن - بعيدة عن فكرة التوسع فى العلاقات الدولية، خوفا مما كان يسميه "بالطفرة"، ولذلك، بلغت اليمن فى عهده أقسى درجات التخلف [1]، وكان أن تفجر الفكر الثورى فى أذهان كوكبة من أبناء اليمن المخلصين، الذين أتيحت لهم فرصة الإقامة خارج اليمن، أو أتيح لهم من العلم والثقافة ما يبعث على المقارنة بين اليمن وغيرها من دول العالم، وقد وهب هؤلاء الغيرة على بلادهم، واليقين فى إحداث التغيير، من خلال المد الروحى الدينى الذى وافاهم من "الإخوان المسلمين" فى مصر، والذين باركوا الخطو الثورى فى اليمن، وأمدوه بالفكر والتنظيم ، حيث كان بعض الثوار من المفكرين والشعراء والأدباء اليمنيين المقيمين فى مصر ؛ هروبا من الإمام الطاغية "يحيى"، ينالون قسطا من الثورية المنظمة على أيدى جماعة الإخوان قبل قيام ثورة يوليو بكثير، كما كان بعض هؤلاء الثوار عسكريين يدرسون فى العراق وسوريا، انضموا إلى إخوانهم فى مصر للقضاء على النظام المريض [2].

قامت الثورة الأولى فى اليمن بصورة انقلاب عسكرى، قتل فيه الإمام يحيى سنه ١٩٤٨م ، وكان على الثوار بعد مقتل الإمام أن يواجهوا الشعب اليمنى الذى لم يحرك ساكنا للثوار والثورة، "إن الجماهير اليمنية على ما تعانيه من مظالم ومتاعب، وما تقاسيه من جهل وفقر ومرض، لم تفكر فى ثورة، ولا تنتظرها" [3]، ففشلت الثورة لأنها فقدت قاعدتها الشعبية العريضة، لم يكن هناك توعية شعبية تضىء للشعب مساره المظلم خلف أئمة متخلفين، لقد ارتعد الثوار من غضبة الشعب ضدهم، إن اليمنيين لا يعرفون إلا السلطة الإمامية، إنها - فى تفكيرهم - تاريخ الإسلام وامتداد الخلافة الإسلامية، والنور الذى يمنع عنهم دياجير الكفر والفسوق، مما اضطر الثوار إلى إعلان قيام إمام آخر، هو ولى العهد "أحمد بن يحيى" الذى كان يرقب الأحداث من بعيد، أمره

---

(١) انظر. جغرافيا العالم: ص٥١٨.

(٢) مركز الدراسات والبحوث اليمنى: وثائق أولى عن الثورة اليمنية، ط١، ص ١١٨ وما بعدها، دار الآداب، بيروت، صنعاء سنة ١٩٨٥م.

(٣) السابق : ص ١١٨

أبوه قبل اغتياله "بالانتقال إلى صنعاء العاصمة، لاتخاذ الإجراءات اللازمة ضد من سماهم بالخونة، وتظاهر ولى العهد بأنه يتأهب لمغادرة "تعز"، ولكن كان يتوجس خيفة من أن يعطى تواجده مع أبيه فى العاصمة الأحرار فرصة التمكن من القضاء عليهما معا، دون أن يجد فرصة للخلاص، كما وجدها أخيرا فى "تعز" أو أنه كما قال بعض اللصيقين به: كان قد استطال عمر والده الإمام يحيى، وطال انتظاره لتولى "إمارة المؤمنين"، فتباطأ فى الاستجابة لإلحاح أبيه عليه بسرعة الوصول، حتى يتخلص من أبيه، ثم يتخلص به من أعدائه [1]، وكان له ما أراد، إلا أن الأحرار كانوا مضطرين لتوليته كما سبق، ولم يكن الأحرار كلهم معروفين عند الإمام الجديد ليقضى عليهم جميعا، فقد كان منهم القاضى عبد الرحمن الإريانى قائل الكلام السابق، وكان من أهل الحل والعقد فى حكومة الأئمة، ولثقتهم فيه لم يشكوا فى ولائه لهم، وكان مثله الكثير من الأحرار الذين لم تطلهم قبضة الإمام "أحمد بن يحيى"، فعندما اضطر الأحرار لتولية "أحمد إماما"، استبشروا فيه من خلال قوتهم الدافعة الخفية، "قابلية التطور"، والخروج باليمن من العزلة المضروبة عليها، وأن يقبل دستورا جديدا، ومسارات تصحيحية سليمة، بالإضافة إلى كونه واجهة ترضى طموح الشعب المسكين المطالب باستمرار سلطة الأئمة [2].

مرت سبع سنوات على ثورة سنه ١٩٤٨ م، وبقدر ما كان أثر فشلها شديدا على من بقى من الأحرار ومن باركهم فى الداخل والخارج، كان أثرها عظيما فى إفاقة فئات الشعب المختلفة وبثهم فكرا جديدا، وزاد المنتسبون إلى الفكر الثورى، لقد استطاع الثوار أن يضيفوا جديدا إلى مفهوم الثورة الشامل، فقد استقر حكم الإمام وثبت أمره، وعليهم أن يسيروا فى خطين متوازيين: **الأول** : التوعية والتثقيف للشعب ولأكبر عدد ممكن من مشايخ القبائل الذين كان لهم حينها ثقل حاسم فى سير الأمور عند الأزمات. **والثانى**: محاولة شق العصا بين أمراء البيت المالك ليأكل بعضهم بعضا، وذلك عن طريق إثارة طموحاتهم وتحريكها إلى ولاية العهد، بدفع الأمير "البدر بن أحمد بن يحيى" بالسعى إلى ولاية العهد، التى سيعارضه فيها الأمراء، وعلى رأسهم "السيف حسن" أخو الإمام أحمد، وآتت الخطة ثمارها، ودب الخلاف فى الأسرة الحاكمة، وعلى الصعيد العسكرى، ينشط قائد الثورة الثانية سنه ١٩٥٥م "المقدم عبد الله الثلايا" فى تأليب الجيش ضد الإمام وتمرده عليه، فأعلن الإنقلاب العسكرى، وضرب الجيش حصارا على القصر، واحتل المراكز الحكومية ومخازن الذخيرة والسلاح واللاسلكى والمطار، وانتزع من الإمام التنازل عن العرش

---

(١) وثائق أولى عن الثورة اليمنية : ص ١٣٣.
(٢) نفسه: ص ١٣٤.

حقنا للدماء، لأنه عجز عن القيام بأمانة المسئولية التى فى عنقه، وبويع أخوه "عبد الله" إماما فى جمع من مشايخ القبائل وضباط الجيش، ومضت أحداث عجيبة، فيعلن الإمام المخلوع انقلابا على الانقلاب، وإذا بالمدفعية التى أمرت من قائد الجيش والانقلاب "المقدم الثلايا" بضرب القصر ومن فيه، تتحول على قيادة الجيش العسكرية، ومقر الإمام الجديد، وحوصر الإمام الجديد وحاشيته، ويعرف قائد الثورة والجيش أن "عبد الله" الذى كانوا سيولونه عميل استعمارى على صلة ببريطانيا وامريكا، وأن الجيش قد أعانه على تحقيق مطامعه، فى حين يرى القائد "الثلايا" أن "عبد الله" لم يكن إلا صورة مؤقتة للإمامة الزائلة، وقد تعلم القائد من الثورة الأولى فى عام ١٩٤٨م، وها هو ذا الآن الشعب وكثير من الجيش يعلن الولاء للإمام أحمد ، تقديسا لمكانته فى دينهم وعقيدتهم، فالقائد "الثلايا" عالج الثورة كما عالجها سابقوة فى الثورة الأولى خوفا من غضب الشعب الذى تقدس فى خاطره عرش الإمام (١).

وقد كانت قيادة الثورة المصرية فى القاهرة على دراية بخطوات عبد الله بن يحيى، فهاجمته عبر إذاعة "صوت العرب" بصوت المناضل اليمنى، الأديب والشاعر "محمد محمود الزبيرى"، كما جاءت تهنئة رسمية فى شخص الوزير المصرى "حسين الشافعى" الذى جاء يهنئ الإمام، ويحذر الثوار سرا من الطريق الذى سلكوه، وتم القبض على قائد الانقلاب ومساعده والإمام المزعوم وأعدموهم جميعا، فى مشهد من الجيش الذى عاد بولائه الى أحضان الإمام "أحمد بن يحيى" (٢).

لم يصمت الثوار الذين يتزايدون يوما بعد يوم، وفى أيديهم خبرات متراكمة من الحركتين السابقتين، وممارسة العلاقات مع أطراف القضية الثورية: السلطة الإمامية والشعب، والجيش، والقوى الخارجية المؤثرة ، والعلاقات فيما بينهم.

استطاع الأحرار أن يهتكوا ستر الإمام إزاء شعبه، فأبرزوا أوضاع اليمن الاقتصادية والاجتماعية للشعب بكل وسيلة، فاقتصاد البلاد فى يد الإمام، يَمُنّ بالثروة على من يشاء من مساعديه، حتى تفشت الرشوة وانتشر الفساد فى المصالح الحكومية، وغدت الرشوة السبيل الأوحد إلى قضاء مصالح الشعب الفقير، واليمن اجتماعيا تنقسم إلى طبقتين، طبقة الأئمة ومن والاهم، وطبقة الشعب الكادح الذى يحرم من الثروة والمناصب معا، وسلطة القبائل تتولد من

---

(١) وثائق أولى عن الثورة اليمنية: ص ١٣٣.
(٢) السابق : ص ١٣٤.

ولائها للإمام، وهناك قبائل عديدة لا تقبل الإمام لمذهبه الزيدى، وهى كثيرة، وقد ساندت الأحرار فى ثورة سنه ١٩٥٥م، وظلت تنتظر الفرصة للقضاء عليه، كما دفعوا بسياستهم الخفية العنيدة "الإمام أحمد" إلى المحافل الدولية العربية، حتى يبرزوا ضعفه ومكابرته ورفضه الشديد لتقدم اليمن أمام الشعب اليمنى، حيث دفعوه الى طلب اتحاد فيدرالى مع الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨م، وفشل الاتحاد بجهود المملكة السعودية، وتبين للأحرار والشعب أن رغبة الإمام غير صادقة فى الخروج باليمن من عزلته، إذ كان يريد من الاتحاد أن تسكت مصر أصوات المعارضين اليمنيين فى إذاعة "صوت العرب"، عندئذ تضافرت أياد كثيرة داخل اليمن وخارجها للقضاء على النظام الحاكم، واستطاع الأحرار تنظيم الثورة باقتدار، حيث بدأوا بتوعية الشعب من خلال الإذاعة التى بثتها مصر على موجة "صوت العرب"، بتصوير المفارقة بين الإمام وبيئته ومواليه والشعب الفقير، حتى هذه الإذاعة كانت تسمع فى السر، إذ ليس يملك جهاز الراديو إلا القليل من الشعب، فكانوا جماعات تسترق السمع، والعجيب أن اليمن آنذاك لم يكن لها ميناء على الإطلاق، رغم إشرافها على البحر الأحمر والمحيط الهندى،[1] ولم يكن فيها طرق ممهدة بين المدن، وغير ذلك من السلبيات التى تفجر فى دم الشباب الحمية والغيرة على الوطن، كما أبرز الأحرار سلبية الإمام إزاء الأراضى اليمنية المغتصبة فى الشمال والجنوب، وإلى جانب ذلك كان الجيش على أهبة الاستعداد، وبعض القبائل الموالية للأحرار، وقامت الثورة قبل السادس والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٦٢م بسبعة أيام، ففى التاسع عشر من سبتمبر قتل "الإمام أحمد" على أيدى ثلاثة من ضباط الجيش الأحرار: "عبد الله اللقية، والعلفى، والهندوانة"، ولم يكن "البدر" ولى العهد يتوقع أن بعد مقتل والده الإمام ثورة شاملة، وكان فى جيشه مازال قويا، فقتل ثلاثتهم، وحوصر البدر "الإمام" أياما خمسة، ثم استطاع أن يهرب عن طريق القبائل إلى المملكة السعودية التى أمدته بالذهب والمال والسلاح والجنود ليعيد الإمامة، ولكن لم يستطع، ذلك أن الأحرار قد استقدموا القوات المصرية لتساندهم ضد قوى الرجعية المساندة من السعودية والإنجليز فى الجنوب ، "ولولا التدخل المصرى العسكرى لفشلت الثورة، لأن إمدادات السعودية العسكرية أطالت الحرب إلى ثمانى سنوات بعد ١٩٦٢م، وظلت القوات المصرية حتى ١٩٦٧م، حيث هدأت الأوضاع نسبيا، وقد وضعت مصر أول تشكيل رئاسى ووزارى فى اليمن بعد الثورة، وعلى رأسه الإريانى – قائل هذا الكلام – و جاء تشكيل الثورة بجعل «العميد عبد الله السلال رئيسا» [2].

---

(١) "وثائق أولى عن الثورة اليمنية: ص١١٨ وما بعدها.
(٢) نفسه: ص ١٣٣.

جغرافية اليمن :

لا شك أن التضاريس تشكل ملامح البيئة و الحياة، و تؤثر فى الإنسان و تصوُره للثابت والمتغير وفلسفته تجاه الأشياء، باعتبارها الطبيعة التى تتجانس مع نشأة الإنسان فى موطنه و تمتزج بطبائعه وملكاته، و اليمن إحدى الدول العربية التى تختلف تضاريسها عن بقية الدول، لموقعها الجغرافى المتميز، فهى تقع فى أقصى الجنوب الغربى من قارة آسيا و شبه الجزيرة العربية، و تختلف « طبيعة أرضها عن بقية شبه الجزيرة العربية، فى كونها هضبة جبلية مرتفعة فى معظم أجزائها، و هى امتداد لسلسلة جبال الحجاز بمحاذاة البحر الأحمر، يبلغ ارتفاعها فى اليمن نحو ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر، تقطعها الأودية الزاخرة بالمزروعات التى تستقطب الإنسان اليمنى، كزراعة البن و القات، وتكثر بها السفوح البركانية الخصبة، بالإضافة إلى الأمطار الغزيرة معظم شهور السنة فى بعض المناطق المرتفعة، فاليمن خضراء بطبيعتها»[١] حتى عرفت باسم بلاد اليمن السعيد.

هذه التضاريس التى تشكل الأرض، استطاعت أن تميز الإنسان اليمنى فى أنماط حياته، فاليمنى لين القلب شديد الغضب فيه جدية ووضوح، و قد تأثر الشعراء و الأدباء اليمنيون بهذه الطبيعة المتناقضة ظاهراً"، و برع شاعرنا "عبد الله البردُونى" رغم عماه المبكر، فى الوقوف أمام سحر هذه الطبيعة وتشخيص وحدتها النفسية ضمن وحدة كونية كبرى تتحكم فى مسيرة الزمن والإنسان[٢]، كما برع شعراء اليمن القدامى فى تصوير هذه الطبيعة المميزة، أو استطاعوا من خلالها التفاعل مع الطبيعة الساحرة أينما تجلت، كامرىء القيس ووضاح اليمن عبد الرحمن بن إسماعيل ويزيد بن مفرغ الحميرى وحسان بن ثابت فى الجاهلية والإسلام، وسنجد أن البردُونى نهج سبيلهم فى استخدام الأسماء بكثرة، حيث يذكر أسماء الجبال والوديان والأنهار والزروع والأشخاص والمدن والقرى والعواصم، يذكرها دون كلل، وإن بلغت من كثرتها التقليل من شأن الصورة الشعرية.

***

---

(١) جغرافيا العالم: ص ٥١٩.

(٢) انظر قصيدته «أصيل القرية ١٩٦٥م، من ديوانه، مدينة الغد وقصيدته «سيرة للأيام ١٩٦٨م نفس الديوان».

الفصل الأول

حياة الشاعر

أولاً : حيــاته

أ - نشأته ودراسته :

ولد عبد الله البردُّونى سنة ١٣٤٨هـ الموافقة سنة ١٩٢٢م، فى قرية«البردون» وهى قرية صغيرة من أعمــال بلدة «زراجة» الخــاضعة لإقليم «الحدا» أو «الحدة»، أحـد مصايف «صنعـاء» عاصـمة الجمهورية العربيـة اليمنية، وفى قريته نشأ، «وهى قرية شاعرية الهواء، ذهـبية الأصائل والأسحار، يطل عليها جبلان شاهقان، مكللان بالعشب، مؤزران بالنبت العميم»[١] ولعشق أبدى بين الشاعر وقريته، انتـسب إليها، وكانت ضمـيره الحى، ومعبد الخضـرة والمثالية والجمال خـلال رحلته الفنية الطويلة، ففى «أحضـانها مرحت طفولته، وتحـسست نظراته كؤوس الجمال الفـاتن، حتى أغمض عينيه الـعمى بين الرابعة والسادسـة من عمره، بعد أن كابد الجـدرى سنتين[٢]، لقد اجتـاح موسم الجدرى القرى الفـقيرة المعتـمة، والمدن التى لم تر نور التحضـر فى ظل الإمامة المستـبدة، وليذهـب الجدرى بكبـار وصغار إلـى المقابر، وليتـرك بصماته عـلى بعض الوجوه، ولينتزع مـن وجه الطفل "عبد الله" عينيه اللتين أضاءتا له قبل رحيلهما طريق الجمال والحب، هذا الحب العميق الذى أضاء قلبه فانبعثت منه رؤيته للحياة.[٣]

وقد كان حـادث العمى مأتما صاخـباً فى بيوت الأسرة ؛ لأن ذلك الريف يعـتد بالرجل السليم من العاهات، فرجاله رجال نزاع وخصام فيما بينهم، فكل قبيلة محتاجة إلى رجل القراع والصراع الذى يقود الغارة ويصد المغير[٤] ورغم فداحة المصاب، مضى الطفل قوى الإرادة فى طريق النور، فاستهل التعليم فى مدرسة ابتدائية فى القرية وهو فى السـابعة من عمره، أقام فيها سنتين، ثم انتقل إلى قرية «المحلة» مـن أعمال إقليم «ذمـار» وفيهـا أقام أشهـراً، ثم شاءت له الأقـدار أن ينتقل إلى مدينة «ذمار» نفـسها، وفى مدرسـتيها الابتدائيـة والعلمية عكف على الدرس عـشر سنوات، كابد

---

(١) انظر: مقدمة ديوان البردونى، بقلم الشاعر، ط١، المجلد الأول، ص ٥١، دار العودة، بيروت ١٩٧٩م.
(٢) نفسه: ص ٥١.
(٣) انظر: مقدمة ديوان البردونى، بقلم الدكتور عبد العزيز المقالح، ص ١٠.
(٤) نفسه: ص ٥٠

فيها متاعبَ الدرس ومكاره العيش، والحنين إلى القرية وملاعبها، وخلال وقفة الصبى يتأمل مسيرة حياته المؤلمة، ومع اعتمال الحنين إلى طفولته البريئة وقريته الحبيبة وضيائها القديم، تتفجر ملكاته بالشعر، فبدأ يكتبه فى الثالثه عشرة من عمره[1]، ويبدو أن الزمن لم يتح لشاعرنا أن يسجل ذلك الشعر الأول أو يستعيده فيما بعد، فأول قصيدة مؤرخة كتبت سنة ١٩٤٧م، وهى تصور فترة من حياة الشاعر المدرسية، وتلك القصائد الأولى للشاعر والتى ذهبت مع صباه حملت شكواه وتأوهاته من الزمن وضيق الحال ونزعاته الهجائية التى تكونت من قراءته للهجائين، ومن سخط الشاعر على المترفين الغلف، فقد كان يتعزى بقراءة الهجو ونظمه، بدافع الحرمان الذى رافقه كثيراً، فيظهر التشاؤم والمرارة، والغريب حقاً أن هذه المرحلة انتهت تماماً من حياة البردُّونى الشاعر، لأنه ليس - إلا فيما ندر- هجاءً أومتشائماً.

وبعد عشر سنوات أخرى فى «ذمار» شق البردُّونى الشاب طريقه إلى العاصمة صنعاء، وفيها عانى كثيراً فى مكابدة العيش ومصارعة الأهوال، ولم يكن يملك من العدة سوى مثاليته الشفيفة الريفية، وذهنه المتوقد الطموح، وليله الدائم الضرير، حتى تبنته مدرسة «دار العلوم» بصنعاء لنبوغه المبكر وضيق ذات اليد، وفى مدرسته قرأ المنهج المرسوم للمدرسة حتى أنهاه، ثم عين أستاذا فى نفس المدرسة ولا يزال[2].

ويحمد لصديقه الدكتور عبد العزيز المقالح رئيس جامعة صنعاء، أنه شبه رحلة البردُّونى من قريته إلى بلدة "زراحة" ثم ذمار ثم صنعاء، برحلة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين من قريته إلى المدينة فالقاهرة العاصمة، ثم رحلته إلى باريس، وكلاهما كابد هموماً من جنس واحد، وكلاهما رأى العالم والحياة من خلف جفنين مظلمين[3].

ب - حياته المهنية :

لقد عمل الطالب النابغة "عبد الله البردُّونى" مدرساً فى المدرسة التى تخرج فيها، وكان شعره شفيعه إلى اعتلاء المنصب الأمين، بالإضافة إلى سماحة أخلاقه، ولينه مع رفاقه ومجتمعه، وقدرته المميزة على الإدارة والجدية، واتزانه الاجتماعى الذى يدحض تعميم كل صفات العميان فى كل أعمى، ثم إلى جانب التدريس عمل كاتباً إذاعياً يكتب للإذاعة، فلم يلبث أن عين مديراً لبرامج

(١) مقدمه الديوان: ص ٥٢، وأول قصيدة فى دواوينه بتاريخ ١٩٤٧ « اعتراف بلا توبة، لعينى أم بلقيس».
(٢) نفسه: ص ٥٢.
(٣) نفسه: ص ١٢.

إذاعة صنعاء العاصمة، وهو إلى جانب ذلك عضو فى تحرير "مجلة الجيش"، وعضو فى هيئة تحرير "مجلة الحكمة"، كما يكتب لصحف أخرى كثيرة، يمنية وعربية، فهو إذن شاعر وأديب وناقد ومحرر أدبى وسياسى وإذاعى ومدرس، والتدريس هو العمل الذى يفخر به ويؤمل فى الارتقاء به ارتقاء الشباب العربى.

جـ - أسرته :

ولد عبد الله البردونى لأبوين فقيرين فى قرية "البردون"، وكان أبوه فلاحاً عظيماً، كما كانت أمه عظيمة، ذلك أنهما استطاعا أن ينزعا من طفلهما الإحساس بالعجز والمرض، وأحاطاه بقلبين رحيمين مؤمنين، وغرسا فى تفكيره وقلبه الصغير الإيمان بالله وحكمته فى خلقه وفلكه، فلافرق عند الخالق بين ليل ونهار، وضرير ومبصر، ولذلك لانجد شاعرنا حاقداً أو ضعيف النفس حتى يتمنى نور البصر بدل العمى، ومن ثم اخترق "عبد الله" طريق حياته قوياً بصبر وجلد، حتى أخذ مكانه بين شعراء الدنيا، كشاعر يمتاز بأصالة فكرية تنأى عن الشكوى من العمى أو مداراته بنظارة سوداء كما يحلو لبعض العميان، وهذا الاستقرار الأسرى، كان له أكبر الأثر فى حياته واستقرارها، وشخصيته ونبوغها وتفردها، وعندما أقدم على الزواج، لم يركن إلى ضعف اختيار يتحكم فيه العمى، بل ارتقى عن الإحساس بالعجز، ليرزق بزوجة صالحة ، سيدة جامعية تحبه كثيراً [1]، تقدر فيه "عبد الله" الشاعر الكبير والإنسان والمسئول عن مهام وطنية جسيمة وأخرى قومية، حيث يسافر البردُّونى بأمانة الكلمة ليولد جيلاً من الشباب العربى المستنير.

وحينما توفيت والدته، رثاها وهو لا يجيد الرثاء، فبكاها حينما ذكر حنوها عليه جائعاً ضريراً، ويتمنى لو عاشت حتى تراه شاعراً، يملأ التاريخ فناً :

آه .. يا أمِّى .. واشواكُ الأسى   تُلهبُ الأوجاعَ فى قلبِى المذُابِ
فَيك ودَّعتُ شبابى والصبَا   وانطوتْ خلفى حلاواتُ التصابى
كم تَذَكرتُ يديكِ، وهُمَا   فى يَدى أو فى طعامِى وشَرابى
كان يضنيكِ نحُولِى، وإذا   مسَّنى البرُد، فزَنداكِ ثيابى

(١) جريدة الأنباء الكويتية، بتاريخ ٢٦/ ٥/ ١٩٨٨م، نقلاً عن كتاب «الروامع المكفوفين العرب» للكاتب صادق محمد أحمد بخيت.

وإذا أبكانيَ الجـــــوعُ، ولـمْ تملكي شيئاً سوى الوعد الكذّاب
هَدْهدَتْ كـفــاك رأسي، مـثلَمـا هدهَد الـفـجُـر رياحـين الرّوَابي
كـم بـكـتْ عـــيناك، لمّا رَأتَنا بصري يُطفَا، ويُطوى فى الحجاب
وتذكـرت مــصـيـرى، والجـوى بين جنبيك جـراحٌ فى التـهـاب
هَـا أنَا يَا أمىَ الـيــومَ فَــتًى طَائرُ الصّيت، بعيدٌ فى الشّهاب
أمــلأ التــاريخ لحنا وصَــدى وتُغَنى فى رُبا الخلد ربَابى(١)

د - مكانته بين شعراء عصره :

يعتبر البردُّونى أمة وحده بين شعراء اليمن، يمتلك من القدرة الفنية أكثر مما امتلكوها، فغالبيتهم جنح إلى تجديد الشكل والمضمون فى القصيدة العربية، بينما اخترق البردُّونى إلى روح القصيدة العربية، أفاض عليها من طاقاته الفنية، فأخرجها من رتابتها، وحمّلها من ظواهر التجديد ما ينسب إليه وحده، وقد تناول البحث تجديداته فى مواقعها المناسبة فى فصول اللغة والأسلوب والموسيقى والصورة، وقد حافظ "البردُّونى" على القالب الموسيقى التراثى، لإيمانه العميق بشمولية هذا القالب وإمكاناته فى استقطاب ظواهر التجديد المختلفة، وسعته لاحتواء المذاهب والتيارات الشعرية المتعددة، بل إن الشكل التراثى عند البردُّونى أضفى على تلك التيارات إيقاعاً جديداً، فشعره ينطلق بالأصالة حينما يمتاح من السريالية والرمزية، وهذان المذهبان بما يحملان من عناصر المفاجأة والتشويه والإيحاء والغموض، قد أثرا فى شعره أيما تأثير، وظهر ذلك جلياً فى تناوله الفنى للصورة، ولغتها وإيقاعها وأسلوبها ونمطها، وفى الفصل الخاص بالصورة فى الباب الثالث، تناول البحث تأثره بالمذهبين.

ويقدر شعراء اليمن مكانة شاعرهم، فالشاعر الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح يتحدث عن البردُّونى فى مقدمة "ديوان البردُّونى" قائلاً «هل تستطيع الساقية أن تقدم النهر؟ وهل يستطيع النهر أن يقدم البحر؟ ذلك ما يريده منى صديقى الشاعر الكبير الأستاذ "عبد الله البردُّونى"، وهى إرادة عزيزة على نفسى، حبيبة إلى قلبى، ولكنها كبيرة على قلمى، ثقيلة على ذهنى .. أيها الصديق العزيز، لقد قرأت شعرك وأنا تلميذ فى الابتدائية، وقرأته وأنا طالب فى الإعدادية، وقرأته وأنا مدرس فى الثانوية، وصار بينى وبينه إلفة العمر(٢) ذلك أن "البردُّونى" حلقة وصل بين جيل

(١) «أمى، من أرض بلقيس».
(٢) مقدمه الديوان: ص٦.

وجيل، وهو زميل الجيلين فنياً، كان فى بدايته الشعرية حينما قرأ شعر الزبيرى والموشكى والإريانى، وكان فى قمته حينما قرأ للشامى وعبده غانم وباكثير والمقالح، وبإجماع هؤلاء الشعراء وبرغبة اليمن حكومة وشعباً، يمثل "البردُّونى" بلاده فى المؤتمرات الأدبية فى الخارج، ومن خلالها عرفه العالم العربى، فقد مثل اليمن فى مؤتمر مدينة "الموصل" فى الجمهورية العراقية الذى عقد سنة ١٩٧١م، بمناسبة مرور ألف سنة على مولد الشاعر العربى «أبى تمام حبيب بن أوس الطائى»[١] وألقى فى ذلك المؤتمر قصيدة ذائعة الصيت، طارت بشاعرها آفاق الدهر، وهى قصيدته «أبو تمام وعروبة اليوم ١٩٧١م، من ديوانه: لعينى أم بلقيس» فقد كان لها تأثيرها العميق، حيث كان العرب يجففون عرق الهزيمة بعد انتكاسة ١٩٦٧م بأعوام، بعد دخول إسرائيل الأراضى العربية، الضفة والجولان وسيناء.

ولشعراء اليمن القدامى والمحدثين مكانة فى قلب "البردُّونى"، مما يدل على نزعته الوطنية العميقة؛ فقد أفردلهم كتاباً يعرض لشعرهم وأفكارهم ومراحلهم الفنية، واستطاع أن يحدد فيه ملامح كل اتجاه فنى سلكوه، ولم يذكر فيه نفسه، وسماه «رحلة فى الشعر اليمنى» ، كما يعرض لميزات هذا الشعر وخصائصه وصفات شعرائه، وقد أجمل ذلك فى قوله: إن الشعر اليمنى يمتاز بطرح الفكرة المباشرة، والوضوح فى أقرب لفظ، والتدفق[٢].

لقد استطاع شعراء اليمن المعاصرون النهضة باليمن فكراً وشعراً، ولقد تأثروا بالنهضة الشعرية والأدبية المصرية فى مطلع هذا القرن العشرين، وإن كانوا يمتازون بنوع من وحدة الفكر حالت دون التشتت المذهبى والسياسى كما كان فى مصر، مما ولد معارك أدبية لم تشهدها اليمن، وذلك لأن شعراء اليمن كانوا يحملون قضية واحدة، هى تحرير الشعب والبلاد من قبضة الإمامة المستبدة، «وقد عرفت اليمن ثمار النهضة المصرية فى مؤلفات طه حسين والعقاد وسلامة موسى وسيد قطب، والمثقفون اليمنيون لم يسبروا تلك المنابع ولم يعرفوا منازع الكتّاب، لهذا لم يكن لهذه الثقافة المصرية عمق فى تفكيرهم، فقد كان أثر الماضى أغلب عليهم[٣] ، كما أن اليمن «لم تواجه فلسفة استعمارية، ولا دعوات تبشيرية وما سونية، وبهذا لم تتقبل هذه المذاهب ولم ترفضها لانعدامها[٤].

(١) جريدة الأنباء الكويتية، ٢٦/ ٥/ ١٩٨٨م.
(٢) «رحلة فى الشعر اليمنى قديمه وحديثه» ط٤، ص ٣١، دار العودة، بيروت ١٩٨٢م.
(٣) عبد الله البردونى : قضايا يمنية، ص ٢٥٤.
(٤) نفسه : ص ٢٥٥.

هـ - مؤلفاته :

أولا: مؤلفاته الشعرية : مجموعة دواوين بلغت إلى الآن أحـد عشر ديواناً، ومازال حفظه الله وبارك له فى عمره يثرى المكتبة العربية بشعره، وهى كالآتى :

١- من أرض بلقيس ١٩٦١م .

٢- فى طريق الفجر ١٩٦٧م .

٣- مدينة الغد ١٩٧٠م .

٤- لعينى أم بلقيس ١٩٧٣م .

٥- السفر إلى الأيام الخضر ١٩٧٤م .

٦- وجوه دخانية فى مرايا الليل ١٩٧٧م .

٧- زمان بلا نوعية ١٩٧٩م .

٨- ترجمة رملية لأعراس الغبار ١٩٨٣م .

٩- كائنات الشوق الآخر ١٩٨٥م .

١٠ - رواغ المصابيح، ١٩٨٩م .

١١- جوّاب العصور ١٩٩١م .

ثانياً : مؤلفاته النثرية : مجموعـة كتب تتناول قضايا أدبية وتاريخية وسـياسية، بلغت إلى الآن ستة كتب، ومـازال حفظه الله قادراً على التأليف رغم بلوغه السبـعين، أجزل الله ثوابه ونفع الأمة بأمانة كلماته :

١- «رحلة فى الشعر اليمنى قديمه وحديثه ١٩٧٢م».

٢- قضايا يمنية ١٩٧٨م.

٣- فنون الأدب الشعبى فى اليمن ١٩٨١م.

٤- اليمن الجمهورى ١٩٨٣ .

٥- الثقافة الشعبية، تجارب وأقاويل.

٦- الثقافة.. والثورة فى اليمن.

***

ثانياً : مفهوم الشعر عند "البردُّونى" :

أمانة الكلمة عظمى ، والشعر حمل ثقيل ، يحتوى "البردُّونى" الشاعر والإنسان ، قد سلبه خفقات قلبه، يطيعه ويعصيه، يشدو فترتد إليه قوته كالفجر العنيد، ويولد ليفرح الشاعر بميلاده، يشكل به وجه الحياة، فيحيى الصريع بعد استقدام المستقبل المجهول، وتتحد ذاته وأحرفه لميلاده :

ما ذلك الحمل الذى يحتسى ... خفقي، ويعصي ذاهلاً أو يطيع
يشدو، فترتد ليالى الصبا ... فجراً عنيداً، أو أصيلاً وديع
وتحبل الأطياف، تجنى الرؤى ... ويولد الآتي، ويحيا الصريع
فتبتدى الأشتات فى أحرفى ... ولادة فرحي وحملاً وجيع (١)

فشعر البردُّونى عالمه الكبير، الذى يجتاز به ذاته إلى فهم عالم الواقع الصغير، وإن آفاق الشعر الرحيبة أتاحت له حياة عامرة بالحركة والألوان والضياء، فالشعر عمره الذى أفنى فيه عمره الزمنى:

هذي الحروف الضائعات المدى ... ضيعت فيها العمر كى لاتضيع (٢)

والشعر سلواه عن صمته خلف جفنيه، ولذا يجسده ويشخصه "صديقات"، بما فيهن من إشراقة الجمال ورقة المعاشرة والأمان، بل إنهن أهله بطهرهن وحنانهن، وهن خمره وسكره، وعالمه الذى يجتذب الدنيا إليه، وهن ابنته وطفله، حيث حرم منهما فى الواقع :

أصبحت وحدها القصائد أهلى ... صرن لى فى الضياع حقلاً ودارا
تلك أمى، تلك ابنتى، تلك طفلى ... تلك عرسى ليلاً، وأختى نهاراً
حاضناتى، وهن طفلات حبى ... مرضعاتى، وهن أصبى العذارى
هن سكرى، وهن فى الكأس أصحى ... هن صحوى، وهن حولى سكارى

---

(١) «فاتحة ١٩٦٨»، مدينة الغد» .

(٢) نفسه .

يختصرن الشعوب قلباً بقلبي وإلى جرتي يسقن البحارا[1]

إن "البردُّوني" لا يعبر بالشعر، بل يصور ويشكل ويلون ويحرك، وذلك منبعث من مفهومه للصلة بينه وبين شعره، فهما واحد، الروح الشعر والجسد الإنسان، من هنا "ينبغي أن ننظر إلى الشعر على أساس ما يثير في نفوسنا من أحاسيس، وما يرسم لخيالنا من صور، وما يطلق لنا من أعيان الفكر المحسوسة المحدودة، ويصلنا بصور الإنسانية، وبالحياة المكنونة" [2] وليس المعنى فى شعره هو المهم، "إنما هو المخلوق الآدمى الذى تحس دبيب انفعالاته، ووسوسة وجداناته، وليست الفكرة التى تحويها المقطوعة هى المهمة، وإنما هى الصورة المترائية بين الظلال الشفيفة"[3] وقد أضاء "البردُّونى" هذه الجوانب فيما سبق ، حيث نلمح ملامحه ونلمس إحساساته خلف تصويره علاقته بشعره، فإذا كان الشعر عمره وميلاده وعالمه الذى يرى به الواقع، وأمه وابنته وطفله المستقرين فى خاطره من عالم الغيب أمنية حبيبة، وزوجته وأخته، وحاضناته ومرضعاته وطفلات هو أمهن، وسكره وصحوه وسكاراه، ويخضعن مزيج الشعوب إلى قلبه، والبحار إلى يديه، فإننا لاشك نلمح شاعراً ينأى بعزلته عن الحياة والناس، ولكنه نأى اغتراب نفسى تأملى، ونلمح شاعراً هادىء الفكر مستقراً فى مجتمع يحبه، فهناك فرق بين من يتخذ شعره سلاحاً ضد الحياة والناس "كبشار وأبى نواس"، ومن يتخذ من شعره سبيلاً إلى سبر أغوار النفس الإنسانية العميقة، ليتلاحم معها وصولاً إلى مثالية النفس والحياة، وتحقيق شىء من سعادة الإنسان، وهذا المفهوم يتضح جلياً فى الفصل الخاص بالموضوعات، حيث يتناول كثيراً من القضايا البشرية الأخلاقية الحساسة معالجا، وموضحاً بالصورة السلبيات التى تدمر المجتمع.

ومن الناحية الفنية، فإن "البردُّونى" «من الشعراء القليلين فى اليمن، بل فى الوطن العربى الذين ما يزالون يحافظون على شرارة الشعر والفن فى القصيدة العمودية، وهو من القراء المدمنين للشعر الجديد، يفيد من صوره الجديدة، ومن تحرره فى استخدام المفردات والتراكيب الشعرية الحديثة، وقد اكتسب شعره - على محافظته - أهمية كبيرة فى السنوات الأخيرة، لمضامينه الجماهيرية الواضحة».[4]

---

(١) «الصديقات، ترجمة رملية لأعراس الغبار ١٩٨٣م».

(٢) الأستاذ سيد قطب رحمه الله: كتب وشخصيات، ط٢، ص ٥٠، دار الشروق، القاهرة ١٩٨١م.

(٣) نفسه: ص ٥١.

(٤) د. عبد العزيز المقالح: الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر فى اليمن، ط٣، ص ٣٧٩، دار العودة، بيروت ١٩٨٤م.

ثالثاً : فكره وفلسفته :

لقد تآلفت عوامل عديدة، كونية ونفسية وقدرية ، لتشكل فكر "البردُّونى" وفلسفته خلال عمره - حفظه الله - المختلف الأحداث والفكر، وهذه العوامل تتلخص فى :

أ - مولده ونشأته فى قريته «البردُّون» التى وهبت من جمال الطبيعة وهيبتها ما دفعه إلى الفكر والتأمل العميقين، خلال إبصاره فى السادسة وقبلها حيث كان طفلاً نابهاً، وبعد إصابته بالعمى، وقد تعلق طبيعة قريته بجبالها وهضابها وخضرتها ووديانها ورياحها القوية.

ب - إصابته بالعمى المبكر فى السادسة من عمره، نتيجة الجهل الذى كان سائداً فى بلاده آنذاك، ونتيجة المرض والعجز عن سبل العلاج المناسبة.

جـ- نشأته بين أبوين مؤمنين رحيمين، غرسًا فيه العقيدة صغيراً، وأعاناه على الصبر وحسن معاملة الناس، فكان له على نفسه وعلاقاته منهج متزن وأخلاق كريمة.

د - فقر الأسرة والقرية، وكان للفقر نتائجه القاسية، أن افتقدت الأسرة علاجه فى المدينة أو العاصمة مذ داهمه الجدرى، حتى أشفق كبيراً على كل فقير. وغدا يفلسف بعض العلاقات الاجتماعية نتيجة للفقر ومساوئه ونتائجه، ويضع لها حلولاً منطقية.

كما أن هناك عوامل ثقافية، ومؤهلات شعرية فطر عليها، شاركت فى تحديد فكره وفلسفته، كتكشيفه العناصر الإنسانية فى نفسه، من خلال اطلاعاته على الأدب العربى، وخلقه علاقات نفسية عميقة بينه وبين رواده، "كأبى تمام وأبى العلاء والمتنبى"، وقد أفاد أيضًا من ثمرات الآداب الغربية فى نتاج شعراء وأدباء العرب المحدثين وترجماتهم، ومما كثف العنصر الإنسانى فى نفسه أيضاً، شغفه بالتاريخ والحضارات البائدة، التى استقربعضها فى ذاته تراثًا فكريًا يمتاح منه فى أزماته النفسية، كحضارة «سبأ» وملكة اليمن "بلقيس"، وقد ألقيا بظلالهما على الشاعر وعمقا مفهومه عن مساوئ الاغتراب والهجرة عن الوطن، والحضارة الإسلامية التى لم تزل رنينًا فى سمعه

وكل هذه العوامل على اختلاف مناحيها وعتها ذاكرته الفذة وهى البديل الإلهى عن العمى ،

وحركتها فى خياله الفسيح دوافع الإبداع ، ورهافة حسه ، ودقة شعوره بنبضات الحياة ، ووعيه العميق بوحدة الكون والإنسان، وأكثرما تجلت هذه العوامل، فى بعض القضايا التى تربط الإنسان بما حوله من ظواهر وغيبيات، مثل:

أ- قدم العالم : يرى البردُّونى رأى "أبى العلاء" وفلسفته فى قدم الزمان والمكان والمادة، وأن المتجدد هو الإنسان ونظرته إلى حركة الكون والأفلاك ، يقول "أبو العلاء" فى اللزوميات[1] :

ومولد هذى الشمس أعياك حدُّه — وخَبَّر لُبٌّ أنه مُتَقَادِمُ

ويستدل "البردُّونى" على ثبات المادة وقدمها بسبقها الإنسان فى الوجود، ويضيف إلى وجودها نضارة وجدة، باعتبار أن الإنسان يهلك قبلها، ويستنتج من ذلك أنه لا يوجد ما يسمى بالابتكار، لأن الغيب يتضمن كل جديد قادم، ولا يد للإنسان فيه سوى أن الجديد ظهر فى زمنه المحدد، وليس هناك جديد، لأنه واضح ولا يدركه العقل البشرى :

وهل الشمس طفلةٌ أو عجوز — تستعير الصبا وتُغوى المدارا
أتراها عصرية؟ أم تراها — مُتحفاً دايراً يوشى الجدارا
ما الذى تدَّعى؟ لها كل يوم — مولد، كيف "يافقيه بُخَارَى" ؟
أو ما أزوَجَتْ وروما جنينٌ — وأبو الهول فى حنايا الصحارى
أو ما أدفأت "ثبيراً" ولما — يلد الغيب «يَعرُبا» أو "نزارا"؟
فليكن .. إنما الأصالات أبقى — جدةً، والنُّضار يبقى نُضاراً
ياصديقى .. فكيف يدعون هذا — مُستعاداً؟ وذاك يُدعى ابتكاراً؟
ربما لم يَجِدَّ شيءٌ ، ولكنْ — نحن نرنو، بناظرات السُكارى [2]

و قد توحى هذه الفكرة برياح الوجودية ، والحقيقة أن "البردُّونى" تأثر بالفكر الوجودى الفلسفى، و لكنه لم يتغلغل فيه فلسفات المذهب، فشعره مفعم بعقيدة راسخة، تعظم الله والأنبياء و الملائكة و الحور و الصحابة و أخلاق الدين، و هو عندما أثبت قدم المادة، فقد قصد سبقها الإنسان، و لم يثبت أزليتها او أبديتها، كما أراد بهذا الإثبات تحقير شأن

---

(١) د. طه حسين: تجديد ذكرى أبى العلاء، ط٦، ص٢٤٨، دار المعارف ١٩٦٣م.
(٢) «سيرة للأيام ١٩٦٨م، مدينة الغد» أزوجت: دخلت سن الزواج، ثبير: جبل فى الجزيرة العربية.

الإنسان وتكسير طموحه الذى يجنح به عن جادة الحق ، و يرى البحث أن هذه القصيدة أنشأها "البردُّونى" فى حالة تمرد نفسى رهيبة، أخذت بحكمته و بصبره، توسوس فى خلجاته بالملل من استمرار الظلام خلف ساتر العمى، فيعظِّمُ من ثبات عناصر الطبيعة العظيمة، و التى تخضع فى مداراتها لوحدة إلهية حكيمة، ليلجم نفسه بالمنطق العقلى، إن العمى فيه حكمة لا يعرفها، وهى أكملُ من رغبته فى البصر، كما أن المبصر لا يدرى سر إبصاره دون غيره، مثل الحقول لا تدرى سر الربيع، و المواسم ليس بإمكانها إسكات البوم لتغرد العصافير، و الزمان لا يشكو الملل، ولن ينتهى من ملله و سأمه، و الرياح لا تدرى أين تسير و من أين تأتى، و لن تطير الربى بدلاً منها بجناحيها، و لن تكون الرياح وقورة كالربى، و مثل ما مضى من ظواهر الطبيعة، العمى القدرى، لا يدرى صاحبه سببه، ولم اختير من دون غيره، و الصمت أجدر بالسائل من الجدل، و الاستسلام للقدر راحة النفس المعذبة، و قد كنى عن ذلك بالنوم والنعاس:

هَلْ تُحسّ الحقولُ ما سُّر نيسان ومن أينَ عاد يهمى اخضرَار ؟
أىُّ فصلٍ من الفصولِ التوالى أسكتَ البومَ و استعادَ الهَزارا ؟
أينَ يمضي الزمانُ؟ هل سوف يطوى سفرَهُ ؟ أو يعِى فيشكو العِثارا ؟
أتظنُّ الرياح تدرى إلى أين ومن أينَ تستهلّ المَسَارا ؟
أتراها تُعطى الربى جانحيَها ذاتَ يومٍ و تستعيرُ الوقَارا ؟
هل رماد الضُّحَى يحولُ رداءً للعَشَايا لكى يعودَ ... نَهارا ؟
العَشايا، صُبْح كفيفٍ يدلِّى شوقَه من رَمَادِ عينَيه نارا
يسحب الظل و الطيوف الحزانى و يعانى شوق الطيور الأسارى
ثم يأتى كما مضى فى ذهولٍ شفقى، يَدْمَى و يندَى افترارا
يا صديقى.. وهل يعى كيف أغفى جمر أجفانه؟ و كيف أنارا ؟
فلننم، و النعاس يروى حكايانا و يُرخى قبل الشروع الستارا[1]

لقد استطاع شاعرنا أن يمزج عماه بوحدة كونية إجبارية، و الإحساس بالإجبار يعنى الخضوع لقوةعظمى، و هو ما لا يتفق و الاعتقاد بأن الحياة هى الفاصلة الأبدية، و أن الذات هى الحقيقة

(١) «سيرة للأيام ١٩٦٨، مدينة الغد».

المطلقة و التى يمكن أن نصل إليها[1] ، فتأثر "البردُّونى" بالوجودية سطحى أو هكذا أراد ، ليكثف التصوير بمادة عقلية تنزع إلى التأمل والتفكير ، ففى استسلامه للقدر شئ من التمرد نستلهمه ، وفى انكساره امتداد بركانى نستوحيه ، ولكن وسع عليه الكون ، وعظم فى ضميره الأمر ، وكأننا نراه يستوحى فلسفة أخيه "أبى العلاء المعرى" فى الرضا :

وهل يـأبَقُ الإنســـان مـن مُلك ربه فيــخـرجَ من أرضٍ له وســمـاءِ (٢)

ب - الموت : إن للموت فلسفة خاصة فى أذهان المفكرين، تخضع لمفهومهم وعقيدتهم وتجاربهم، فعلى حين يعتبر الملحدون باختلاف أسماء مذاهبهم الموت نهاية الحياة إلى العدم، يؤمن الموحدون بأن الموت بداية ممهدة لحياة الخلود فى الآخرة؛ لأن العالم والإنسان لم يخلقا هباء ليذهبا هباءً، وتوالد فى حياة الموحدين تبعًا لذلك معانى التضحية والاستشهاد والاستماتة فى سبيل الله، "والبردُّونى" خلال رحلته الطويلة فى اليمن وأحداثها الكبار، تعددت فلسفته فى الموت، ولم تخرج هذه الفلسفة عن حيز التوحيد، ويأتى تعددها من أن «الرؤية الفكرية للأحداث اليمنية تجعل الحدث المكرر غير مكرر»[3]، لأن رؤية اليمنى لوطنه تتغير فى ضوء «ثقافته، وجدة رؤيته الثانية، وتقدم السن والذهن».[4]

فقد يرى الشاعر أن العشق الإنسانى العنيف يتمثل فى عشق الموت، والموت جبر لا اختيار، ورحمة الموت فى إعطاء الإنسان الموت الأجود ، ومن لم يتخير الموت المناسب تكسر مع الأشياء الزائلة، وهو ما يختلف عن منتقى موتته أو تضحيته:

غـدا أعنف العشـق عشق التـراب وكل هـوى لســواه ضـيــاع
لأن إجـــادات إنجـــابــه تمت إلى جــودة الابتـــلاع
إذا لم تـذب نطفــة فـى حـشـــاه تكســرتَ تحت رُكـام المتــاع(٥)

والتضحية ربح لاخسارة، لأن موت البعض حياة للكل:

مـــوت بعض الشــعب يحى كـله إن بعض الشعب روح الاكتمال (٦)

---

(١) د. نبيل راغب: المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، ص ١٢٢ ، مكتبة مصر بالفجالة، القاهرة.
(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء: ص ٢٤٩. والإباق: هرب العبيد وذهابهم من غير خوف ولاكد ولا عمل.
(٣) عبد الله البردونى: قضايا يمنية، ص٧.
(٤) نفسه: ص٧
(٥) "أغنيات فى انتظار المغنى ١٩٧٧، زمان بلا نوعية".
(٦) " احزان وإصرار ١٩٧٤م، السفر إلى الأيام الخضر".

والموت هو سلسلة الحياة التى لا تتصل الحياة بدونها؛ لأن الموت يفرز حياة جديدة، فالموت هنا مأساة وتأس وعزاء، كما أنه جدير بالتفاؤل، ويتضح هذا المفهوم فى مواساته اليمن إثر خروج الجيش المصرى منها بعد مساندته الثورة والأحرار حتى سنة ١٩٦٧م، لتنقض قوى الاستعمار والرجعية على السلطة من جديد، ويموت كثير من الثوار والشعب الأبى من جراء الخيانة الوطنية، يواسى بأنه متفائل بالجديد بعد الموت، والحضارات تفنى لتولد أخرى:

كنت بنت الغيوب دهراً فنمّت ... عن تجليك حشرجاتُ الحضاره
وتداعِى عصر يموت؛ ليحيا ... أو ليفنى، ولا يحس انتحاره (١)

وقد يقف أمام العلاقة بين الموت والشر، وأن الأخيار يموتون ويعمر الأشرار، فينزع يده من هذه القضية، وإن أثارتساؤلات خفية، تتضح من غضبه وسبه لنموذج شر، فهذه ثكلى تخاطب روح أبيها تشكوه من عمها الانتهازى:

ومُتَّ أنت الغضُّ، وابن البِلّى ... كالبغل، يا للموقف الأغرب
كيف نجا اللص؟ ومات الذى ... يستغفر الله ولم يذنب؟
عفواً، فلا تدرى، ولا علم لى ... كيف يعادى الموت أو يجتبى (٢)

والموت فى هذا الزمن الرهيب ضاعت رهبته وهيبته، لافتقاد الإنسان العدل والأمان فى هذا العالم، وتسلط القوى على الضعيف، وتفشى المادية المفرطة، فيكرر الموت خلال بيتين ست مرات، ليؤكد أن الموت غدا مجرد مسرحية تمثيلية فى العالم المادى:

ما الذى ..؟ موت بموت يلتقى ... فوق موتى، من رأى فى ذا طرافه؟
نهض الموتى .. هوى من لم يمت ... كالنعاس الموتُ.. لا شىء خرافه (٣)

بل إن الموت الآن أشبه ما يكون بعلم الطب والعلاج، فهما سيان؛ لفقدان العالم صوابه ورشده:

يا زمانا من غير نوع تساوتْ ... مهنةُ الموت، واحترافُ الطِّبابه
ينمحى الفرقُ بين عكس وعكس ... حين ينسى وجه الصواب الإصابه(٤)

---

(١) "مدينة الغد ١٩٦٧م، مدينة الغد".
(٢) «ثكلى بلا زائر ١٩٦٩م، مدينة الغد».
(٣) «بين الرجل والطريق ١٩٧٥م، وجوه دخانية فى مرايا الليل».
(٤) «آخر الموت ١٩٧٨م، زمان بلا نوعية».

جـ- زحف الحاضر المادى على روح الماضى ونقائه : والإنسان هو الجانى والصريع، ففى مقارنة نفسية بين الماضى الآمن المشرق بالعدل وتكريم الإنسان، والحاضر اللامبالى بقيمة الإنسان تطرح قضية افتراضٍ جدلى نفسها، وهى أوضح من الشرح:

لو عبرتُ الطريق عُريانَ أبكى ... وأُنادى، مَن ذا يَعى؟ أو يُوَعِّى؟
يافتى، يا رجالُ .. يا، يا .. وأنسى ... فى دَوِى الفراغ صَوتى وسمعى
إنما لو لمستُ جيب غنى ... فى قوى قبضتيه قُوتِى ومنعى
لتلاقَى الزحام حولى يدوِّى ... مجرمٌ .. واحتفى بركلى وصفعى
ولصاحَ القضاةُ: ما اسمى وعمرى؟ ... مَن ورائى؟ ما أصلُ أصلى وفرعى؟
وهذَى المدَّعِى بقتلى، لأنى ... خنتُ، حاولتُ مكسباً غير شرعى(١)

وإن زحف الزمن وامتداد العمران وتقلبات الحياة والناس، ظواهر تكمن فيها فلسفات عميقة تفرض فكرها على الشاعر، وهو يصف آثار تلك الظواهر على نفسه ومجتمعه، إنهما فقدا الحس الذى يتذوقان به الحزن والفرح، فقدا الإلفة نحو الأشياء والأحداث، مما يبرز جمود الحياة والزهد فيها، ويوحى بأن استمرار الحياة والزمن على ذلك سيؤدى إلى فقدان الروح وضياع الإنسان، وترهل أحاسيسه وذهاب قدرته :

ها هنا نجلس يا عمرو نرى ... ما اقتنى التاريخُ منا واطّرحْ
خط آثارَ خُطانا زمنٌ ... بيديه، وبرجلَيه مسح
أمسُنا كان كريماً مُعدماً ... وزمان اليوم أغنَى وأشح
ثم أصبحنا نشازاً، صوتُنا ... فى ضجيج اليوم كالهمس الأبح
كل شىءٍ صار ذا وجهين، لا ... شىء يدرى أى وجهيه أصح
لم نعد نهنا ولا نأسى، ذَوَتْ ... خضرةُ الأنسِ، خَبَتْ نار الترح
أو خبا الحِسُّ الذى كنا به ... نطعَم الحزن ونشتم المرح
لم يعد شىء كما نألفه ... فعلام الحزن؟ أو فيما الفرح (٢)

***

(١) «ضائع فى المدينة ١٩٦٩م»، مدينة الغد».
(٢) «ذكريات شيخين، ١٩٦٧ مدينة الغد».

رابعاً : أثر العمى فى شعره :

كـف بصـر "البـردُّونى" وهو فى السادسـة من عـمـره، وكان لأبويه وأسـرته الفـضل فى خلق الانسجـام الكامـل بين الطفـل ومجتمعـه ، فلم يتسرب إلى نفسه عجز أو إحسـاس بالـذل ، ومن ثـم، لـم يكـن هجـاء،[1] وشعـره البدائى الـذى ضـم ألـوانـًا مـن الهجـاء والشكوى لم يجمـعه بديوانـه ؛ لأصـالتـه الخلقيـة الـتى ترفــض وصمـه بالهـجـاء، وأن فـى الهـجـاء نقـصــًا يعـادل ضعـف الشخصـية الهجاءة، وربما لم يجمعه بشعـره لعدم اكتماله فنيًا فى تلك الفتـرة المتقدمة من حيـاتـه، حـيث بـدأ يقرض الشـعر فى الثالثـة عشـرة من عمـره[2]، والصلة بين العمى والهـجاء عمـيقة؛ «ذلك أن الهـجاء ليس سـوى تجسيـد للقبح والتشويه والمنكر»[3]، وهى صفـات ملازمة لبعض الـعميـان الذين افتـقدوا منذ نشـأتهم الحب والعقـيدة السليمـة؛ لفقـدهم الأسرة الصـالحة المتماسكة، والمجتـمع الرحيم، لقد كان "بشار" هجاء مـفحشاً، يصدر إباحيتـه وهجاءه عن «طبعه الأنوف بالقسر والذل، فنقم على مستذليه وحـقد عليهم، ولم يكن هجاؤه سوى تنفس عنهما، إن هجاءه لذلك نوع من التفاخر السلبى»[4]، حيث يلعن من لا يقرون بتـفوقه، وموقفه من مجـتمعه جعـله يرتـد إلى داخلـه المظـلم " يحملق فيـه، وفـى تـلك الانكفـاءة المـظلمـة، كانـت تتـراءى لـه صـورة الأشـخـاص وصـورة نفسـه"[5]، حتى توالـد الهجاء فلسـفة إيجـابية مـعادلة لواقـعه النفـسى، إذن، فقـد يسر "للبـردُّونى" من اتـزان الشخـصيـة والعقـيـدة والأسـرة والحـب مـالـم ييسر "لبشـار"، ولكن العميان جميـعًا قد يتفقـون أو يختلفون فى درجة الحدة أحيـانـاً، والسخرية الهادئـة أو الـلاذعة أحـيـانًا أخـرى، والحـساسيـة المفـرطة والتركـيز الشديد صفتـان لا تفارقان كل أعمى[6]، وأثرهما واضح على نتـاج البردُّونى كله، وخاصة فى مـجال التصوير والتـفاعل مع

---

(١) باستثناء هجـائه السيـاسى اللاذع لأئمة اليـمن والرئيس السـادات، فـإنه يعبـر فيـه عن شعب بأكـمله ثم دول بأكملها نتـيجة لموقفى الإمام والسادات تجـاه الشعب اليمنى والعرب، فالإمام كـان مستبداً بشعـبه، والسادات كما يرون غدر بالعرب فى معاهدات كامب ديفيد ، انظر فصل الموضوعات.

(٢) مقدمة الديوان: ص ٥٢.

(٣) إيليا الحاوى: فى النقد والأدب، ط٤، ج١، ص ٦٩، دار الكتاب اللبنانى، بيروت.

(٤) نفسه: ص ٦٨.

(٥) نفسه: ص ٦٩.

(٦) د. حامد الهوال: «مجلة اللغة العربية»، العدد الأول سنة ١٩٨٥ ، ص ٣٦، معهد التربية للمعلمين، الكويت.

التجربة الشعرية حتى القرارة.

وأثر العمى فى شعره جاء فى أشكال ثلاثة: الشكل الأول: شكوى الشاعرالشفيفة من العمى، من هيئته التى يشفق عليها ويخجل منها أمام الناس، فهى شكواه نفسه، وليست شكواه القدر، وهذا الشكل من الشكوى تولد فى شعره الرومانسى، الذى يتبرم فيه من الحياة، ويتالم من طول الزمن على الألم، ويمثل هذا الشكل من الشعر قصيدته «أنا»، حيث يقول :

فمتى متى يُطفى الفنا الموعود عمرى الأحمقا
كيف الخلاصُ ولم يزل روحى بجسمى موثقا
لا الموتُ يختصر الحياة ولا انتهى طول البقا
لا القيد مزّقه السجين ولا السجينُ تمزقا
حيران لم يطق الحياة ولم يطق أن يزهقا

يا آسر العصفور رفقاً بالجناح المتعب
سئم الركود ولم يزل فى قبضة الشوك الغبى
درنُ التراب مجسَّدُ فى الشيخ، فى ثوب الصبى[1]

فالبيتان الأخيران محملان بالضيق النفسى الجارف من العمى، فالعمى ركود وملل، وشوك جارح غليظ لا يرحم، ويشفق على نفسه فى البيت الأخير، إن ثوبه كثوب الصبى ، لا يستطيع أن يميز من أثوابه النظيف المناسب ، ولكلمة "مجسد" إيحاءاتها العميقة بآلامه المستمرة، كما أوحت كلمة الصبى أيضًا بشكواه من ماضيه المؤلم فى غيابات العمى، وهذه المرحلة من شعره خلال ديوانيه الأولين «من أرض بلقيس ١٩٦١م، وفى طريق الفجر ١٩٦٧م» يذكر فيها العمى بوصفه «مصاباً» مؤلما ، فحينما شرعت اليمن فى الانضمام إلى الاتحاد المصرى السورى سنة ١٩٥٨م، استثار مصابه ليلتحم بمصاب "أبى العلاء" الراقد فى «معرة النعمان» بالشام :

وأهزُّ فى ترب المعرة شاعراً مثلى، توحد خَطبُه ومُصَابى [2]

وتغلبه حرقة الدمع وهو يذكر أمه الراحلة، والتى بكت لانطفاء نور عينيه:

---

(١) «أنا، من أرض بلقيس».
(٢) «زحف العروبة ١٩٥٨م، فى طريق الفجر».

كـم بـكَـتْ عـــــينـاك، لما رأتـا بصرى يُطفَأ، ويُطوى فى الحجاب(١)

والشكل الثانى للتأثر بالعمى: يبرز فيه جانب يوحى بالغضب والتمرد، ففى قصيدته «سيرة للأيام ١٩٦٨م» يستعرض الطبيعة الكونية فى حركة الرياح ودوران الأرض والكواكب، وتوالد الليل والنهار، وثبات الأرض تحت قدم الإنسان، بخضرتها وجبالها وحقولها ومواسمها، ورغم محاولاته الدقيقة ليلجم ذهنه عن التفكير فى «مصيبة العمى» فإنه قد شردت به خواطره بما يوحى بالتأثر شيئًا ما بالفكر الوجودى، وقد رد البحث على هذه الفكرة فيما سبق، وهذه بعض أبياته التى نضج فيها التمرد والغضب، فى شكل القناعة التى ارتضتها الطبيعة وعناصرها، كما ارتضاها هو حكمة خفية لا يدرى سرها:

هل رمـــاد الضـحى، يَحُـول رداءً للـعَـشَـايا، لكى يعـود نهـــارا؟
العَـشـايا، صبحٌ كـفـيف يُـدَلّى شـوقـه من رمـاد عـينيـه نارا
يسحب الظل والطيوفَ الحَـزَانى ويعـانى شـوق الطيـور الأسـارى
ثم يأتـى كـمـا مـضـى، فى ذهول شـفـقى، يدمى، ويندى افـتـرارا
يا صـديقى، وهل يـعى كيف أغـفى جـمـر أجـفـانـه؟ وكـيف أنارا؟
كـيف نُغْـضـى؟ وللسؤالات ركضٌ تحت أهدابنا، يخـوض الغـمـارا؟
ربمـا .. إنمـا .. لمـاذا نُـنـادى؟ ويضيع الصدى، فنرجو القـفـارا؟
يا صـديقى .. أنا وأنـت اشـتـهـاء نحـتـسى الملح، أو نلوك الشـفـارا
طال فـــينا جـــوع الســؤال، فأطعمـناه «كـانون» واعـتـصـرنا الغبـارا
واجـتـدانا ولائمــاً عـاجـلات فطبـخـنا على النجـوم الحـيـارى
كـل مـــا عندنا، نـداء بلا رد ســؤال، يتلو ســؤالاً مـشـارا
من دعـانا؟ ومن نـنادى؟ أصـخـنا وانتظرنا، حـتى حـرقنا انـتظاراً (٢)

والشكل الثالث : شعر مستحدث هُدى إليه البردُّونى لملكاته الخاصة المبدعة، التى وهبها بديلاً عن العمى، فأثر العمى هنا إبداعى، نور خفى يستضىء به الشاعر فى رسم صوره وتلوينها وتمييز لمساتها، مما يثبت تفرده وأصالته الفنية فى مجال التصوير، والحق أن ارتقاءه بالشعر إلى قمة الخصوصية والتفرد، يترفع عن كونه مجرد بديل عن العمى؛ لأن الشعر هنا طاقات فنية توالدت

---

(١) «أمى، من أرض بلقيس».

(٢) ديوانه: مدينة الغد .

من طاقاته العقلية والنفسية والعاطفية، وكما يمكن لشاعر مبصر أن يجسد حياة ضرير، فإن الفنان الضرير أوتى من الملكات الإلهية ما يميزه عن المبصرين فى تصوير حياتهم، فهو يمتزج بالحياة من طرف لا يدركه غيره، ومهما كانت إمكانات اللغة وسعة موروثها الضخم من التصوير فى الشعر والنثر[1]، فإن اللغة تفتقد إلى الحاسة النفسية التى تبتعث اللغة وإمكاناتها من جديد، ولو كانت إمكانات اللغة وحدها قادرة على وهب مهارة التصوير وخلق صور معقدة بصرية ومعنوية، فإن المبصرين أولى، ولكان معظم المثقفين شعراء، وجدير بالبحث أن يثبت أصالة الفن الشعرى عند البردونى، وتفرده فى هذه الأنماط من الصور، والتى عرض لها البحث فى الفصل الخاص بالصورة، وهذه إشارة سريعة إلى أنماط تصويرية مستحدثة:

أ- **الصورة الصوتية** : وفيها يكثف الشاعر المعجم الصوتى بدرجاته المتفاوته باقتدارعفوى، يوحى بأبعاد الشخصية، ويلمس الملامح النفسية الغائرة فيها، كتصوير الملك فى حالة خوف وغضب ووهم، فى قصيدته «مأساة حارس الملك ١٩٧٦م» ، حيث تقوم درجات الصوت بنقل الحوار النفسى الذى يبرزخوفه من ثورة الشعب :

هاجسٌ فى صدر مولانا، أتتْ ... مَن تخوَّفت، أكانتْ ممكنه؟
آخرُ الهمس، سكوت أو لظى ... أول العزف المدوِّى دندَنه
الجهات الأربعُ احمرَّت، عَوَتْ ... السماء الآن صارت مدخنه (٢)

فالهمس والسكوت واللظى والعزف والدندنة والمدوى والعواء، كلها من معطيات الصوت وينظم الشاعر بينها، فالبيت الثانى "طباق صوتى، بين الهمس واللظى، والمدوى والدندنة، والسكوت والعزف، وهى طبقة صوتية تفكيرية، مهدت لصوت طبيعى صارخ هو «عوت» فى البيت الأخير، حسب منطقه النفسى، فالملك بعد تفكير تخيل الثورة « تعوى كالذئاب الجائعة».

وما أثقل الليل عليه، ومع ذلك يسترحمه، طيوفه كسعال الأطفال وزحف الفئران، وكلاهما صوتان يمتزجان، فيستدران الشفقة والكآبة والرهبة فى آن معاً، والليل مفتوح علية للأبد، مرهف الحسن والصوت كحد السيف :

(١) د. حامد الهوال: مقالة فى «مجلة اللغة العربية»، مايو ١٩٨٥م، العدد الأول معهد التربية للمعلمين، الكويت.
(٢) ديوانه: وجوه دخانية فى مرايا الليل».

تَسعُل الأشياءُ كالأطفال، كالفيران تزحف
وهو كالشُّبَّاك ساه وكحدُّ السيف مُرهَف (١)

وشعر "البردُّونى" يكثر فيه هذا النوع من الصور، وأشير إلى ذلك باستفاضة فى فصل الصورة.

ب – **الصورة العضوية** : حيث يستخدم الشاعر أجزاء الإنسان أطرافًا فى الصورة؛ ليرسم لوحات سريالية عميقة، غالبًا ما تصور مادية الإنسان المعاصر، وهوانه على الحياة، وضياع ذاته فى دهاليز الحكومات الفاسدة، كقوله:

كان راسى فى يدى مثل اللفافه وأنا أمشى كباعات الصحافه
بين رِجلى وطربقى جثتى بين كفى وفمى عنف المسافه(٢)

وكقوله:

بى يرفُلون ليحفروا بيدىّ فى فَخذَىّ لحدى
من جلدى الخشبىّ اخرج، تدخل الأزمان جلدى(٣)

وكقوله:

اغوص من ظهرى إلى وجهى، أذوب فى فمى(٤)

وكقوله:

فأفر من فخذى إلى فخذى ومن عِرق إلى عرقٍ أجر خِبالى(٥)

وهذا النوع من التصوير أيضًا قد أشير إليه فى الفصل الخاص بالصورة، وهو لا شك إبداعات غنية بالجديد المعجب فى الشعر المعاصر، تعتبر فتحًا فنيًا لميلاد أنماط تصويرية حديثة، لم يطرقها الشعراء قبل البردُّونى.

جـ– **الصورة الاستعارية المجردة** : حيث يجسد ويجسم المجردات ويشخص الحركة فى ركام أطراف الصورة الحسية؛ ليرتقى بهذا المزيج الحسى المعنوى إلى التجريد المنظم، ويتضح من هذا النمط التصويرى مدى تأثر "البردُّونى" بالمدارس الشعرية الحديثة التى انبثقت عن الرومانسية،

(١) «طيف ليلى ١٩٧٦م، وجوه دخانية ..».
(٢) «بين الرجل والطريق ١٩٧٥م، وجوه دخانية فى مرايا الليل».
(٣) « صياد البروق ١٩٧٦ وجوه دخانية فى مرايا الليل».
(٤) «العابر غير مسبوق ١٩٧٧م، زمان بلا نوعية».
(٥) «ليلة فارس الغبار، وجوه دخانية ..».

كالرمزية والسريالية، وتأثره بالتصوير فى الشعر الحر، والأجدر بالملاحظة، أن لغة هذا النمط التصويرى يخضعها الشاعر لمداركه ولمسه، يشكلها فى أبعاده النفسية الخاصة، ويولدها ملتحمة باللون والضوء والحركة؛ لتأخذ دلاله أخرى مفاجئة، هى الأقرب فى صورتها من عالم التجريد الذى يعتمل بعمق فى خيال الشاعر، ولغة الشاعر هنا تعتمد على المصادر والمعانى، التى اخترق بها حاجز التفكير إلى إحداث هزة نفسية عميقة ومفاجئة فى شعور المتلقى، ومن هذه الأمثلة استخدامه لهذه المصادر والكلمات ذات الدلالة المعنوية : اللمح - الالتفات - الاجتماعى - الشتات، وكلها مضافة إلى ياء المتكلم :

كل هذا الركام جلد عظامى فإلى أين من يديه انفلاتى؟
يحتسى من رماد عينيه لمحى يرتدى ظل ركبتيه التفاتى
تحت سكينه تناءى اجتماعى وإلى شدقه تلاقى شتاتى(١)

ويقول :

سفلتّ جمجمتى بخاصرتى وركمت تطويلى بمتسعى(٢)

ويقول :

هنا أرقم الصدى وانمحى كالخربشه
وكالصلاة أرتقى وارتمى كالدروشه
حقيبة تطبخى قضية مشوشه
أمسية كهفية صبيحة مغبشه
بيتاً، كتاباً، شارعاً مقهى، حكايا مدهشه(٣)

***

فهذه الصور أقرب إلى عالم عبثى مجرد ، تستثير أشتاتاً من المشاعر الغامضة ، وإن كانت وسائل تشكيلها الحركة والتجسيد والتجسيم والتشخيص ، فإن التجريد هو التصور الذى يسبح فيه خيال المتلقى ، حين يدلف إلى عالم هذا النوع من الصور .

---

(١) السفر إلى الأيام الخضر ١٩٧٤م، السفر إلى الأيام الخضر»
(٢) «بين الجدار وجدار ١٩٧٧م، وجوه دخانية فى مرايا الليل».
(٣) «طفوس الحرف ١٩٧٣م، السفر إلى الأيام الخضر».

خامساً : مراحله الشعرية:

إن التـزام "البردّونى" بناء القـصيـدة التراثى عن قـناعة فنيـة وقدرة خـلاقة، سـاهم فى تشكيل مراحله الشعـرية وتأصيلها، فالتزامـه قد صحبه خلال رحلتـه التى استشف فيها خـلاصة إبداعات المذاهب الأدبية المخـتلفة، وتأثره بمذهب دون آخـر لم يتولد من فـراغ، بل من ضرورة فنيـة ملحة، كرغبـتـه فى تطـوير شـعره العمودى؛ ليحـتل مكانة بارزة فى صدارة الشعر العربى المعـاصر، بعد سـيـل المحـاولات الجـادة الـتى أرادت أن تنـأى بـه عـن مـيـدان الحـداثة، ومـفـهـوم "البـردّونى" للحداثة ينبع من إيمانه العميق بقدرة البناء التراثى على اسـتقطاب المذاهب الشعرية والتفاعل معها تأثراً وتـأثيـراً؛ لاسـتمـــرار قـدرة الموسـيقى التـراثيـة وفـاعليـتـها وتـــأثيرها فـى وجـدان القـارئ العربـى ، فما زالت نغـماتهـا فطرة عفـوية آسرة، توهـب لناشـئة الشـعر ومـريديه، وهو بذلك، لم يختلف مفهـومه للشعر التراثى عن مفهوم النقـد العالمى المعاصر، «فالكلا سية الحديـثة- كما يقول «إليوت» تعنـى إرساء التقـاليد الأدبيـة التى تساعد الموهبـة الأدبيةالفـردية على الانطلاق بأسلوب منظـم ومنهـج علمـى، بحـيث يرتكز الأديب والشاعـر على خلفية عـريضة من التقـاليد، وبذلك يقـيـم عمله على أسـاس صلب»[1] ومن دوافـع تأثره بـبـعض المذاهب مـجتـمـعة، أن اليـمن من ثلاثينات هذا القرن حتى الثمانينات، مرت بأحداث جليلة، كـان لها آثار عميقة فى تفكيره، فطوح بشعـره يتعث فـيه الجديد من رصـيد الإنسانيـة الفكرى والشعرى والحـضارى، بحثـا عن الصدق المرجـو المتآلف مع ذاته الطمـوح وطموحـات اليمنيـين، وإن جوهر الأدب واحـد مهـما اخـتلفت مذاهبـه، «فهـو تجسيد للكيـان الروحى للإنسـان وبلورة له، بحـيث يمكنه من التعـرف على ذاته بطريقة صحـية وأسلوب موضوعى، بعيـداً عن ذاته الضيقة، وانطلاقًا إلى آفـاق الفن الرحبة، وهذا التعدد فى المذاهب الأدبية، يؤكد الثراء الخصب الذى يشكل طبيعة الأدب، ولعل هذا التعدد يرجع إلى موقف الأديب من عصره، يتشكل طبقًا للمناخ الحضـارى والثقافى والفكرى لمجتمعه خاصة، وعالمه المعاصر عامة»[2].

ومما سبق، يتبـين أن "البردّونى" لم يخضع أسير مدرسـة أدبية واحدة، فقد أضفت عليـه تقاليده

(١) د. نبيل راغب: المذاهب الأدبية، من الكلاسيكية إلى العبثية، ص١١، مكتبة مصر بالفجالة، القاهرة.
(٢) نفسه: ص ٧.

التراثية أصالة وجمالاً، فكان كالفراشة الهائمة فى رحيق الزهور، ولقدرته على المزج والإبداع، لم تقيده حدود المدارس الأدبية التى يضعها النقاد؛ «فالكاتب المبدع يخلق مذهبه دائما»(١)، ومذهب "البردونى" أن يمزج ابتداعات تلك المدارس فى ديوان واحد بل فى قصيدة واحدة، وكثير من قصائده جاءت ترفل فى طيوف مدرستين أو أكثر، كقصيدته «كانت وكان ١٩٦٥م» فلقد تعانقت فيها المدارس الشعرية: الكلاسيكية والرومانسية والسريالية، وأضفى عليها من إبداعاته المتفردة ما أبرز فيها من ملامح فنية ولمسات مرهفة لم تكونا لتلك المدارس من قبل، كاستخدامه موسيقى التراث فى وزن البحر البسيط بروى الفاء المضمومة، ليلتحم الهمس بالإطلاق، كما استخدم التصريع فى صدر القصيدة، لتلتحم هذه العناصر التراثية بأسلوب القص الحديث، وتبرز اللغة تراثية فى البدء، تفيض فى أسلوب حديث، تعتمل فيه دفقات الحداثة والتراث معاً، وهذه القوة البنائية، تناسب قوة دفع الذكريات فى خاطر الشاعر، وتنبئ عن طاقة عاطفية مفكرة بوسعها أن تواجه أزمته النفسية :

كانت له، حيث لا ظل ولا سَعَفُ ... من النخيل الحوالى، ناهد نَصِفُ
وكان أرغدُ نصفَيها، الذى ابتدأت ... أو امحى من صباها، الياء والألف
أغرى، وأفتن مافى بعض فتنتها ... طفولة، وامتلاءٌ مثمر هيف
كانت له بعض عام، لا يمت إلى ... ماض، ولا امتد من إخصابه خلف
ولّى، ولا خبرٌ يهدى إليه، وفى ... حقائب الريح، من أخباره تُحف(٢)

وأزمته النفسية هنا ، تتضح خلال هذا المقطع الرومانسى القصصى ، تصور فى إطار العاطفة علاقة الحب من طرف واحد، وصلف المرأة ومدى تأثيرها فى انحراف فكر من يتعلق بها عندما لا تحب، وإصرارها على إذلاله، لتدغدغ فيه المشاعر إرضاء لنشوة نفسية شاذة، والوصف الكلاسيكى الذى سبق، يناقض الفكرة، ولكنه يتلاءم وجموده إزاء مشاعر تلك المرأة، كما يناقض هذا الوصف القصيدة بعد ذلك، فإنها عالم رومانسى رحيب، مفعم بالحزن والألم من خلال السرد القصصى والحوار، إن الصور سرعان ما تقفز إلى خيال القارئ بحركتها ولونها وضوئها:

(١) د. شكرى محمد عياد: الأدب فى عالم متغير، ص ١٦٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١م.
(٢) «كانت وكان ١٩٦٥م، مدينة الغد».

من ذا تريد؟ وتسترخي عبارتها فيأكل الأحرف الكسلى ويرتشف
وخانه الريق، فاستحلت تلعثمه واخضر في شفتيها العذر والأسف
فنغمت ضحكة كسلى، طفولتها جذلى، على الرقة المغناج تنقصف
فمد كفا خجولاً، وانحنى، فرنا من وجهها الموعد المجهول والصلف
وكان يرنو، وجوع الأربعين على ذبول خديه، يستجدي ويرتجف(١)

ومن هذه الإشراقة الرومانسية في التصوير، ينتقل إلى عالم آخر من الصور، إنه يصور حالة من الترهل الذهني والجسدي للمحب، وهي أقرب ما تكون إلى الهيستيرية الفكرية، فينهل من السريالية عناصر التشويه والمفجأة، ويهيم خلف المدارك المحسوسة، ليرصد أغوار النفس في اللاوعي، وتغلغل المشاعر المختلطة فيها، بين الخجل والندم والحزن:

وخلفها، اقتاده وعد السراب إلى بيت نضيج الصبا، جدرانه الشغف
حتى احتستها شفاه الباب، لا أحد يومي إليه، ولا قلب له يجف
وظن وارتاب ، حتى اشتم قصته كلب هناك، وثور كان يعتلف
وعاد من حيث لا يدري، على طرق من الذهول إلى المجهول ينقذف
فاعتاد ذكراه بيت مسه فمها في دربها، وبظل الدار يلتحف

وطبقًا للمفهوم السابق لأبعاد المراحل الشعرية عند البردُّوني، فإن الكلاسية قد لازمته خلال مراحله الثلاث بدرجات متفاوتة:

أ- **المرحلة الرومانسية**: من سنة ١٩٦١م وما قبلها حتى سنة ١٩٦٧م. وقصائد هذه المرحلة ضمها ديواناه الأولان: «من أرض بلقيس ١٩٦١م» و«في طريق الفجر ١٩٦٧م»، وهما أكبر دواوينه من حيث عدد القصائد، ومن حيث طولها، وهي خليط من الأحلام الرومانسية التي تنشد استقرار النفس في عالمها المثالي المستحيل، فتعلو نبرات الألم والشكوى. ويفتقد الشاعر الحبيبة والأليف، فيغيب في غيابات الحزن والعزلة، يجتر الذكريات المؤرقة، ويحاول المشاركة في علاج أمراض الإنسان العاطفية، كالخيانة وتشهي المرأة لجسدها، وتتسم عناوين القصائد بصفات تلك المرحلة «نار وقلب، هائم، عروس الحزن، أثيم الهوى، وهكذا قالت، حين يشقى الناس، بعد

(١) نفسها.

الحب، فلسفة الجراح ، وغيرها كثير، وفى تلك المرحلة يتلمس الشاعر ذاته الشاعره ويتقرب إليها، ويؤانس روحه الشاعرة فى عزلتها الخفية، ليستجمع ذاته فى رحاب الفن « فلسفة الفن، الشاعر، أنا والشعر، روح شاعر، محنة الفن، راهب الفن، مع الحياة، من أغنى، شعرى، أنا الغريب..»

كما تبرز الكلاسية فى هذه المرحلة فى قصائد كثيرة مثل «من أرض بلقيس، يقظة الصحراء، عودة القائد، البعث العربى، فجر النبوة، ميلاد الربيع» وهى قصائد فى المدح والمناسبات، وغيرها أيضًا كثير، كما تبرز الكلا سية أيضًا فى استخدامه المعارضات الشعرية، كمعارضته "المتنبى" فى قصيدة شاعر الكأس والرشيد» ويبدأ الحس الوطنى فى الظهور خلال هذه المرحلة، وإن أهمية المرحلة الأولى فى شعره تأخذ فى الازدياد عبر المراحل التالية، لأنها مشهد ميلاده الفكرى والفنى والفلسفى، والمنبع الأول الذى يمكن مقارنته بمسيرة الشاعر فيما بعد، فعلى حين تزخر هذه المرحلة "بالنزعة الذاتية المفرطة، والتوهج الحسى الوطنى، واليسير من «النزعة الغنائية» فإن المرحلتين التاليتين تكادان تخلوان من النزعات الثلاث؛ لدخول اليمن فى أطوارجديدة أخذت بناصية "البردونى"وشعره.

ب - المرحلة الثانية : الواقعية: وقد امتدت من سنة ١٩٦٨م إلى سنة ١٩٧٤ عبر ثلاثة دواوين: «مدينة الغد ١٩٧٠، لعينى أم بلقيس ١٩٧٣، السفر إلى الأيام الخضر ١٩٧٤» وتولدت هذه المرحلة نتيجة التحول غير المتوقع فى الحكومة اليمنية والمجتمع اليمنى، فقد تآمرت قوى داخلية رجعية وخارجية استعمارية وعربية على ميلاد حرية اليمن واستقلاله الفكرى الحضارى، وحينما نهض الشاعر يستنقذ بلاده، اكتشف أن العالم العربى كله فى قبضة استعمارية واحدة، تحصد فيه طاقاته، فانصبت قصائده تصور الواقع وقضاياه المختلفة، وتنتقد بقوة ولين، وترسم من خلال المعالجة الفنية الإنسانية منهجًا مثاليًا يستجمع الفكر العربى، فالواقعية هنا توحى بالنقيض المثالى الذى يدندن حوله الشاعر، كما برزت نزعاته العفوية والعميقة فى المعالجة بالرمز، وتفجير أمراض المجتمع الشائهة بالسريالية، باعتبارها معادلاً فنيًا للواقع المادى المشوه، وذلك لتنقية الذهن العربى واليمن خاصة، ومحاولة تعميق وتجذير القضايا التى يعتبرها عامة شعبه مؤقتة أو ضرورية، كقضايا الاغتراب عن الوطن، وزواج اليمنية من أثرياء الخليج، والطبقية الاجتماعية، والانتهازية والخيانة الوطنية الممثلة فى أبسط العلاقات كالرشوة، ويضعط بقوة على قضية الغربة والاغتراب، فثلثا قصائد ديوانه «العينى أم بلقيس» تتناولها، ويربط الاغتراب بخراب اليمن حضاريًا وسياسيًا منذ عهد الملكة "بلقيس" التى هاجرت إلى فلسطين إنابة للتوحيد والنبوة إلى الآن، حيث تهاجر جموع

إلى دول الخليج، فهو ينير للإنسان اليمنى فكره ومنهاج حياته، ويغرس فيه الوطنية اليمنية، فكل دولة قد أحاطت شعبها بسياج وطنى، واليمن ما زال يضرب بأصوله العريقة المتشعبة فى عموم القومية والإسلام، وهو ما يرفضه منطق العالم الحديث، فالواقعية فى هذه المرحلة تتآلف حينًا مع المثالية، وحينا مع الإنسانية التاريخية، وتعتبر قصيدته « أبو تمام وعروبة اليوم ١٩٧١م» أقوى قصائده فى هذه المرحلة، إذ إنها تضم ملامح هذه المرحلة بعمق وقوة، كما أنها محاكاة كلاسية للشعر التراثى، باعتبارها معارضة لقصيدة "أبى تمام "فى فتح «عمورية»

وفى هذه المرحلة يبلغ "البردُّونى" قمة نضوجه الفنى، ويخترق آفاق الشعر بتفرده وخصوصيته، ويبنى صرح التجديد الشعرى داخل البناء التراثى، فى اللغة والأسلوب والموسيقى والصورة، وتتحول نزعاته الذاتية المفرطة ، والوطنية المتوجهة ، والغنائية العذبة، إلى مزيج راسخ فى أعماق وطنه يمتد فكرًا ودماً؛ لتوطين الإنسان اليمنى، وتحويله إلى نسيج فى ثوب الفكر والوطنية المخلصة، ولتحقيق هذا الانتماء القوى سلك منهجين: الأول : إقامة وحدة نفسية عميقة بين الإنسان اليمنى وأرضه، فشرع فى ذكر أسماء الشخوص والقرى والمدن والجبال والحقول والثمار، وغيرها من مكونات الوطن، إن الإنسان هو روح الأرض وحبه، وهو ذاته الأرض والعبير:

وكنيسان انطلقنا فى الذُّرا	نسفح الطِّيب يميناً وشمال
نبتنى لليمن المنشود من	سُهدنا جسراً، وندعوه: تعال
واتَّقدنا فى حشا الأرض هوى	ونَحولَّنا حقولاً وتلال
مشمشاً، بُنّاً، وروداً، وندى	وربيعاً، ومصيفاً، وغلال
نحن هذى الأرضُ، فيها نلتظى	وهى فينا عنفوان واقتتال
من روابى لحمنا هذى الربى	من ربى أعظمنا هذى الجبال [1]

والمنهج الثانى: تأصيل الفكر الوطنى الإنسانى بجذور التاريخ، فأبدع قصائد ملحمية تاريخية، تتناول اليمن وأحداثها الكبار من زمن «حضارة سبأ» حتى الآن، وهى من مطولاته الشعرية، حيث بلغت قصيدته «حكاية سنين ١٩٦٥م، من ديوان: مدينة الغد» مائتين وستة وتسعين بيتًا على مجزوء الكامل المرفل، وبلغت قصيدته "ورقة من التاريخ، مسافرة بلا مهمة ١٩٧٣م . من ديوانه السفر إلى الأيام الخضر" ثمانية وتسعين بيتًا . وإلى جانب هذا المنهج عالج كثيرًا من القضايا

(١) «أحزان وإصرار ١٩٧٣م، السفر إلى الأيام الخضر»

السياسية والاجتماعية والفكرية، التي تساعد اليمنى الإنسان على تجاوز آلامه المستمرة بعد شعور الإخفاق الذى دب بعد فشل الثورة فى تحقيق مطالب الشعب اليمنى، وكان أسلوبا القص والحوار أداته الفنية خلال هذه المعالجة.

جـ- المرحلة الثالثة : الرمزية : وبدايتها من سنة ١٩٧٥م حتى سنة ١٩٨٣، وتجلت فى دواوين ثلاثة: "وجوه دخانية فى مرايا الليل ١٩٧٧م "و" زمان بلا نوعية ١٩٧٩م" و"ترجمة رملية لأعراس الغبار ١٩٨٣م"، ولقد تولدت الرمزية نتيجة الأحزان والإرهاقات التى هزت كيان الشاعر وضعضعته، من الصمت اليمنى والسلبية فى مواجهة الجديد المخيف، الغزو الحديث بوسائله الخفية يطحن اليمن بشراً وفكراً، وأحس "البردُّونى" بضياع صوته فى غوغائية المادية التى اعترت الحياة، وأسماء الدواوين توحى بمعانى الرمزية الغامضة المواجهة للتردى المادى، إن اللغة التقريرية فى المرحلتين السابقتين تعجز عن إثارة العواطف والإحساسات الراكدة داخله، وتعجز عن استخصار تجربته الشعورية[1] التى تبلورت فى هذه المرحلة، ومن ثم لجأ إلى الرمز باعتباره «المقابل اللفظى للتجربة الإنسانية المعاشة، فهو يتميز بالقوة والحيوية والتدفق وتعدد الأبعاد والجوانب[2]؛ لأنه يثير هالة من الإحساسات والمشاعر المختلطة التى يمكنها أن تهز العقل وتستثير فيه أنماطًا من الحرية، وذلك لأن الرمز يحرر الوجدان من جمود التبعية وتحجر المشاعر، ويضع للذات مهربًا منها، ويتيح برهة ذهنية قد يتغير سلوك الإنسان بعدها.

فى هذه المرحلة موجات متلاطمة من القصائد الرمزية التى تأخذ اتجاهات ثلاثة :

الأول : ابتعاث الحياة فى الجوامد بالتشخيص، بديلاً عن الإنسان فى المرحلتين السابقتين، لتكون رموزاً فى صور الشاعر المكثفة، مما يوحى بانكباب الشاعر على ذاته حزينًا بعد تجربته المريرة مع الإنسان والمجتمع، والرموز الجامدة فى صورها التى تستلهم الرسم السريالى، تستثير فى المتلقى معانى المادية التى شوهت المثل الإنسانية، فالقصائد مفعمة بالجدران والأسقف والكوى والحجارة والغرف والأرصفة والسكاكين والغبارِ والضباب، وغيرها من الجوامد، يقول فى قصيدته "فى الغرفة الصرعى ١٩٧٥م من ديوانه: وجوه دخانية ..":

(١) د.نبيل راغب: المذاهب الادبية من الكلاسية إلى العبثية، ص٨٨، مكتبة مصر بالفجالة.
(٢) نفسه : ص٨٨.

شيء بعـينَي جـدار الحـزن يلتـمع
يريد يـصرخ، يُنبِي عن مـفـاجـأة
يغـوص، يبـحث فى عينيه عـن فمـه
عـمّـا يفتش؟ لا يدرى، يضـيع هنا
يومى إلى السـقف، تسـترخى أنامله
من أين يا باب يأتى الرعب؟ تلمحه؟
الصـمت يسـقط، كـالأحـجـار باردة
تُصغى إلى بعضـها الجـدرانُ واجفـةً

يَهِمُّ، يُخـبـر عـن شىء، ويمـتنع
لكـنه قـبل بدء الصـوت ينقـطع
تغـوص عـيناه فـيـه يقـتـفى، يدع
بقـوم يبـحـث عنه، وهو مـضطجع
تمتـد كـالدود، كـالأجـراس تنزرع
من أى زاوية ، يعَـشْـوشب الوجع؟
على الـزوايا، ولا يشـعُـرنَ مـا يقع
تئنُّ، محـمَـرُّ كـالـقـتلى وتمتـقع

كما يجسم المجردات أيضاً، كالحزن والكآبة والأمسية، وتزخر دواوين هذه المرحلة بالتشخيص والتجريد وتراسل الحـواس والغموض، وهى من سمات الحـداثة والمعاصرة فى الشعر، وقصيدته «أمسية حجريه ١٩٧٥م من ديوانه: وجوه دخانية .. تمثل تلك السمات، كما تؤكد استخدامه المثير للجوامد فى تكوين الصورة، إلى جانب كثير من القصائد الأخرى مثل. "وجوه دخانية.. ١٩٧٥ « والتاريـخ السرى للجـدار العتيـق ١٩٧٦ " و الضباب وشـمس هذا الزمـان ١٩٧٦»، وخلال هذا الاتجاه الرمزى التشخيصى التجريدى قد يصل به غضبـه العارم مرحلة نفسية تفسد الرمز؛ ليتحول إلى مجـموعة من الصـور الحسيـة التى تثيـر الاشمئـزاز والغضب أيضاً، رغم أنهـا لا تنصب على أشخـاص محددين، ولكنهـا أسلوب التفات يكاد يقـترب من العبـثية والتى سـتتضح فى الجـاهيه الآخرين، ففى ثورته على سلبية مواجهة الغزو الحـديث، يثير حالة حادة من الاشمـئزاز والغضب من خلال مجموعة صور لا تحدها وحدة سوى وحـدته النفسية، يقول فى قصيدته «التاريخ السرى للجدار العتيق ١٩٧٦ ، من ديوانه: وجوه دخانية .

حـوافـرُ المحـتل فى شـاربى
لأننى جَـزَّأتُه، نـصـفُـه
وها هـنا يَنْهَـى، يرى وجـهـه
غنِّى «إلـيـزا»، «جـوليـانُ» اخـلعى
يَود لـو مـا بين فـخـذيه فى
جـريـدةٌ، أخـبـارُها عن حـصىً
روايـةٌ، أبطـالُهـا . عَـوسَـجٌ

لكـننى أشـبـعـتُ منه الـدمـار
سيـفى، ونصفٌ داخـلى مـسـتشـار
من منكبيـه، فى مـرايا الفَـخـار
عـبـاء تى، سـاقـى، أدرْهَا، أدار
إحـدى يـديه، خـاتمـاً أو سـوار
ينمـو، وعن «ديك» تعـشَّى حـمار
يمـشى، واطيـارٌ نبـيعُ المحـار

والاتجاه الثانى من هذه المرحلة : يجزئ أعضاء جسمه أطرافًا فى صورته الشعرية، ليوحى بمدى التفتت فى أوصال ذاته ومجتمعه وعالمه، والحرقة الى سيطرت عليه نتيجة ضياع وجهة الإنسان المعاصر، وقصائد عديدة تحمل هذا الاتجاه، "بين الرِّجل والطريق ١٩٧٥م" و "بعد سقوط المكياج" و"فكريات رصيف متجول ١٩٧٧م" و "وللقاتلة حبًا ١٩٧٧" ، يقول فى قصيدته "بعد سقوط المكياج" :

غيرَ رأسى .. أعطنى رأس «جمل» غيـر قلبى .. أعطنى قلب «حمل»
رُدَّنى ما شئتَ، ثوراً ، نعجةً كى أُسميكَ .. يمانيّا بطل

وقصائد أخرى مثل: "صياد البروق" ١٩٧٦ و"سندباد يمنى" ١٩٧٥ و"ليلة فارس الغبار" و"زمان بلا نوعية "١٩٧٩و "لعابر غير مسبوق" ١٩٧٧ و "بين الجدار وجدار" ١٩٧٧م .

والاتجاه الثالث يمزج فيه الشاعر إحساسين متناقضين؛ ليخرج بالإنسان اليمنى، من أزمته، إنه يوحى بإرهاقه وتفانيه معاً، فصوته ضائع لأنه فى «غبار» ، فالسلبية غبارالشعوب وهلاكها، والإحساس الثانى، افتخاره بنماذج حية مثالية فى ضمير الإنسان اليمنى ، وبين شعوره باليأس من الشعب والافتخار بنماذج منه، يتولد الرمز الذى يثير عوامل دافعة إلى التجاوب الفكرى المنظم لإقالة الوطن من عثرته، فالبردُونى يرتقى بشعبه بكل وسيلة ليعبر مخاطر التردى المادى، ليواجه بالروح والأصالة الغزو الخفى الحديث، فهناك قصائد كثيرة توحى بالسأم والضيق لسلبية الشعب إزاء دعواته المستنيرة "زامر القفر العامر" ١٩٧٦م و"الأخضرالمغمور" ١٩٧٦م و"مغنى تحت السكاكين" ١٩٧٥م و"ليلة فارس الغبار"و" الجدران الهاربة" ١٩٧٨م و"غير كل هذا" ١٩٨٣م ، وغيرها كثير، وهناك مجموعة من القصائد التى تستشف الفخار وتعلى من شأن التضحية فى سبيل الوطن، والشاعر هنا كأنه يناجى نفسه بعيدا عن المباشرة والخطابية ، مثل قصيدته "مأساة حارس الملك" ١٩٧٦ حيث يؤكد فى حوار مسرحى مكثف أن الصلة مقطوعة بين الحكومات المريضة وجيوشها ، وأن الجيوش والشعوب أقرب إلى العدل والخير منها إلى الظلم والشر، وقصيدته "الآتون من الأزمة" ١٩٧٤م تعد رمزية المغزى والإيحاء، باعتبار ما تثيره من مشاعر مختلطة من الرعب والضحك والاستهزاء والترقب، إنها أشبه بالهذيان السريالى غير المعقد، لسهولة اللغة والأسلوب مع مفاجأة التصوير:

قـــرروا الليـلة أن يـتَّـــجـــروا
بالعَـشَـايا الصُّـفـرِ، بالصـبح الحـزين
فـافـتــحـوا أبوابَـكم .. واختــزنوا
من شـعـاع الشـمس مـا يكفى سنين
وقِّـعـُـوا مـشــروعَ تقنين الهـوى
بالبـطاقــات، لـكل العـــاشــقـــين
قـــرروا بيعَ الأمـــانى والـرؤى
فى القنـانى، رفـعــوا ســعـر الحـنين
فـــتـــحـــوا بنكـين لـلنوم، بنوا
مـصنعـاً يطبـخ جـوع الكادحـين
بدأوا تجـــفـــيف شطآن الأسى
كى يبـيـعـوها، كــأكيـاس الطحـين

فالقـصيدة صرخـة راكدة، ترمز إلى غضب بركـانى يعتمل فى صدر الشـاعر ضيقًـا ورهبة من المجهول، إلا أن هذه النبـرة لا تشكل اتجاهًا خلال هذه المرحلة المتأنيـة فكريًا من عمر الشاعـر، فهو يفخر بنماذج لعلها تؤثر فى شعبه بكل وسيلة، يقول فى قصيدته "الصاعدون من دمائهم" ١٩٧٨، من ديوانه: "زمان بلا نوعية" :

لأنـهم مـن دمـــــهم ابـحــــروا
كـالصـبح، من تـوريدهم أسـفــروا
تـكســـــروا ذات خـــريـف هنـا
والآن مـن أشــــــلاتـهـم أزهـروا
تجـــمَّـــروا فى ذكـــريات الحـصي
ومن حـنين التـربـة اخـضَـو ضـروا
نامــــوا شـظايـا أنجم فـى الثـــري
وقــبل إســحــار الدجـى أسـحــروا
مـــؤقَّــتـــاً غـــابوا، لكى يـبـزغــوا
كي يشـمـسـوا، من بعـدمـا أقـمـروا
عـــادوا إلى أعــراقـــهم، أورقـــوا
منهـــا، ومن أشـجــارهـم أثمـــروا

ويتضح من الأبيات استقرار الكلاسيـة فى تصويره وبنائه الفنى، والكلاسية لم تفـارقه خلال مراحله كلها، تلك المراحل التى تدافـعت خلالها المذاهب الأدبية صوراً وأبنية داخلية، اسـتعان بها "البردُّونى" على التقليد، لـيخرج بشعره العمودى إلى آفاق عـالمية، تشهد بتفرده وخصـوصيته فى مجال الإبداع الشعرى المتطور الحى داخل البناء التراثى.

O■O

الفصل الثانى

الأســـلوب

تتعدد المناهج والاتجاهات فى تناول الأسلوب الشعرى ومعالجته الفنية، كالمنهج التجريبى والوصفى والتحليلى والنفسى واللغوى والإحصائى، وغيرها من الاتجاهات الحديثة، التى اتخذت مما سبق ركيزة أسلوبية تنطلق منها لآفاق أرحب فى البحث الأسلوبى، تتفق والتقدم العلمى المذهل، الذى ألقى بضوئه على الدراسات الأدبية، ويظل النص الأدبى الشعرى - فى مجال الشعر- هو محور التناول والمعالجة؛ لأنه خلاصة التكوين الفكرى والعاطفى للشاعر، وميلاد تميز وعيه فى الاختيار والمعالجة والمزج المبدع بين العناصر المألوفة، كاللغة والأسلوب والموسيقى والتصوير؛ ليشيد بناءه الفنى فى عالم التفرد والخصوصية.

ويأخذ الأسلوب الشعرى فى مجال الدراسات الحديثة مكانة سامية؛ لأن الأسلوب هو الشاعر، وهو «المصطلح الذى ندعو به أعلى مرحلة وصلها الفن، أو يمكن أن يصلها، والأسلوب بهذا المعنى مطابق للفن العظيم، أى أنه مفهوم نقدى، ومعيار تقويمى»[1]، يترقى به الشاعر، ليدرك وظيفته الفنية والإنسانية، التى "تتجاوز اللغة والأسلوب إلى الاتساق والتناسق فى العمل الفنى، إلى علاقاته بالواقع، إلى نفاذ نظرته فى معنى ذلك الواقع، ومن ثَمّ، إلى مغزاه الاجتماعى، ثم الإنسان؛ لأنه يقوم على أعمق أسس المعرفة، على جوهر الأشياء، بقدر ما تتاح لنا معرفة ذلك الجوهر، بواسطة الأشكال المرئية المحسوسة"[2]، المتمثلة فى الكلمة، وعلاقتها بالكلمة داخل التركيب الذى أخذ صفة حلولية من إرادة الشاعر، بعد عملية الاختيار والتنسيق فى ضوء الوعى الفنى.

والأسلوب يزاوج بين الخصائص الفنية للشاعر، والخصائص الفنية لعصره، " لوقوعه تحت تأثير الحساسية الخاصة بلغته أو بعصره، ومن خلال ذلك، تظهر مشاركة الشاعر فى تدعيم الصفات الأسلوبية الخاصة بهذه اللغة، دون أن ننفى وجود الخواص الفردية التى تولد إحساسًا متجددًا باللغة، تبعًا لاختيار المفردات والمادة النحوية، وتنظيم الكلمات، والحركة الموسيقية فى الجملة"[3].

---

(١) رينيه ويلك: مفاهيم نقدية، ص ٤٤، عالم المعرفة، العدد ١١٠، الكويت.

(٢) نفسه: ص ٤٤.

(٣) د. محمد عبد المطلب: بين البلاغة والأسلوبية، ص ١٤٩، مكتبة الحرية، جامعة عين شمس.

فالأسلوب إذن، اختيار واع لمفردات اللغة وأبعادها، وأثر ملموس لتخلق المجردات فى العاطفة والخيال، ومسبر فنى للبحث عن علاقة الشاعر الفنان بتراثه، ومجتمعه وفنه ولغته المتراكمة فى تحفز للميلاد المنظم." فضغط الرصيد المعجمى على المتكلم أو الشاعر، يتناسب عكسيًا مع تقدمه فى سلسلة الكلام، ومعنى ذلك، أن هذا الرصيد يتزاحم بأفعاله وأسمائه وحروفه على لسان المتكلم عندما يهم بالكلام، فإذا انطلقت الجملة على لسانه، وبدأها بفعل مثلاً، انسحبت كل الأفعال من الضغط، وبقيت الأسماء والحروف، وهكذا، كلما تقدمت سلسلة الكلام، خف الضغط"(١)، فالفعل هنا، موضع دراسة أسلوبية؛ لأنه جاء امتداداً لعملية إبداع ذهنى مكثفة، تتصل بالهدف منها، وسبب اختيار هذه الوسيلة دون غيرها، هنا تتحقق العلاقة الجدلية بين الهدف والمنهج فى البحث الأسلوبى؛ "لأن الهدف الأساسى من البحث هو النص لا المؤلف، ويجب أن يتركز على التأثيرات الأدبية فى اللغة والوسائل الإيحائية التعبيرية، التى استعان بها الشاعر لتحقيق قدرة الكلمة ونفاذها"(٢).

وقد اعتمد البحث فى تناوله أسلوب الشعر عند البردُّونى، على المنهج الوصفى التحليلى؛ لمزجه بين الموضوعية العلمية، ورصد القيم الجمالية، واستبطان العاطفة، إيمانًا بأن الشعر عالم الشاعر "يقيم فيه المودة التى افتقدها فى عالم الواقع، فيجعل كل كلمة بإزاء صديقتها، ويجعل من الألفاظ بنيانًا تام الخلقة وثيق الترتيب"(٣)؛ فقد يأخذ عنده الأسلوب طابعًا ترائياً، ومسحة رومانسية، وشيئًا من الفلسفة الوجودية، حيث نرى أن الأسلوب الأدبى "يحمل فى طياته الصراع الدرامى، المشابه والموازى للصراع الإنسانى من أجل الوجود؛ لأنه تعبير عن الظواهر الميتافيزيقية، التى أعيت الإنسان فى إيجاد تفسير متكامل لها"(٤)، بينما تتوالد من نفسه وعقله دوافع البحث عن تلك الظواهر، وليس المقصود أن يتهم البحث الشاعر اليمنى العملاق بالشك أو بخلل العقيدة من خلال التحليل الأسلوبى، ولكن المقصود هو رصد الأسلوب الذى يكمن خلفه تساؤلات أو صمت، مثلاً، عن استمرارية الشر فى اليمن أو فى العالم العربى على وجه التحديد، وعن استطالة الظلام فى العمى(٥)، ثم نراه فيما بعد مستسلماً، يستولد الأمل فى الميلاد الجديد، ويلوذ بركائز الإيمان، "فلم تضطرب النفس الإنسانية بالشعور الذى لايطاق إلا التمست لها ملاذاً فوق طاقتها،

(١) بين البلاغة والأسلوبية ص ١٤٧.
(٢) د. صلاح فضل : علم الاسلوب، مبادئه وإجراءاته، ط٢، ص١٤٩، الهيئه المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.
(٣) د. لطفى عبد البديع : الشعر واللغة، ص١٠، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٩م.
(٤) د. نبيل راغب : المذاهب الأدبية من الكلاسية الى العبثية، ص١٢٦، مكتبة مصر بالفجالة، القاهرة.
(٥) انظر : قصيدة الشاعر ' دوى الصمت ١٩٧٨م ، زمان بلا نوعية '.

وقاربت بذلك ملاذ الإيمان"[1]، وسيظل الأسلوب نقطة انطلاق " تمكننا من التعليق على التاريخ الفكرى الاجتماعى، وعلى المفاهيم المتغيرة، عن الواقع والوضع الإنسانى"[2].

١- خصائص الأسلوب

أ- الحوار:

ويعد الحوار من أهم خصائص البردُّونى الأسلوبية، التى تتيح له قدراً من حرية التعبير بعيداً عن الانفعال والمباشرة، لتعدد الأصوات فى الحوار، ينشئها الشاعر من الواقع أو يستولدها من ذاته، "لتعبر عن الأبعاد والمستويات الشعورية والنفسية فى رؤيته الشعرية، والتفاعل بين هذه الأبعاد"[3].

ويأخذ الحوار عند البردُّونى صوراً أربع: الحوار المباشر من الواقع للإيحاء بمدى تأثير قضاياه فى النفس الإنسانية، والحوار المتولد من خلال السرد، والحوار النفسى من الذات، والحوار المسرحى.

* **فالصورة الأولى** يستخدمها الشاعر للتعبير عن القضايا الاجتماعية التى تتعدد أو تختلف فيها وجهات النظر، كقصيدته "حوار جارين"[4]، والتى يتناول فيها قضايا يمنية، كالعرقية بين القحطانيين والهاشميين، والطبقية السياسية بين الأئمة الأثرياء وطبقات الشعب المطحونة، والطائفية بين أهل السنة والشيعة، وقد جاء الحوار معبراً عن تلك القضايا فى إطار الوحدة الوطنية، ولكنه أيضا، حمل الملامح المميزة لطرفى الحوار، وقصيدته" أم فى رحلة"[5] "التى جردها لقضية اجتماعية نفسية، وهى قضية الأمومة والأبوة والعقم، حيث صور شخصياته تصويراً راقيًا وعفوياً، يحمل قدراً من الرمزية، وشيئًا من التفاؤل داخله، فالحوار هنا بين شخصيات ثلاث: والد وطفله وامرأة عاقر تحلم بالميلاد، ،يبنى بالسرد روابط وصفية بين ثنايا الحوار، مستغنيًا عن فواصل القول:

---

(١) الاستاذ. عباس محمود العقاد: عقائد المفكرين فى القرن العشرين، ص٧٧، دار المعارف بالقاهرة.

(٢) مفاهيم نقدية : ص٤٣٥.

(٣) عن بناء القصيدة العربية الحديثة : ص٢٠٠.

(٤) " من ديوان : فى طريق الفجر ".

(٥) " ديوان : مدينة الغد".

هل هذا طفلك" واقتربت — كالطفل، تناغى وتنادى
طفلى، هل أعجب سيدتى؟ — حلو كهدايا الأعياد
ما اسم المحروس؟ أجب يا ابنى — "نعمان" كجد الأجداد
أهلا "نعمان" فيستحيى — ويرفرف كالورد النادى
فتحاكى لثغته الخجلى — وتغمغم كالنبع الشادى
ما أروعه يا عم، وما — أسخى عينيه بإسعادى
لا تأسى يا بنتى، إنى — سافرت العمر بلا زاد
خضت الخمسين، بلا ولد — يرجى، وبلا أمل حادى
واستنجدنا المولى حتى — لبانا أسخى إنجاد
المحبين ابنى" كل ابن — فى الأرض، وكل الأحفاد
عفواً يا عم، أنا أم — أولاد الغير كأولادى

والقصيدة قصة قصيرة، يقوم فيها الحوار بالدور الرئيسى، حيث يرسم الشخوص ويميز أبعادها الاجتماعية والفكرية، فوالد الطفل يجتاز العرف والظن وينجب بعد الخمسين، ليبث المرأة الحنون الصبر والإيمان، ويحاكى الشاعر بالحوار والسرد انفعالها التلقائى بالأمومة، وتولد رعشة الميلاد فى أحشائها، حيث تناغى وتحاكى وتغمغم تحت سيطرة العاطفة "وحين يستطيع الشاعر أن يضع على لسانهن ما هو من شانهن فعلاً، يكون قد بلغ قمة الإبداع فى التصوير"[1]، وقد استخدم السرد فواصل تخدم الحوار وترتقى به.

* **والصورة الثانية** للحوار، أن يفجر الشاعر الحوار الصريح بين شخصيات القصة فى إطار السرد، والأسلوب بهذا التشكيل أداة فى بناء الصورة عنده؛ لتعدد الأصوات التى تتوالد خلال الحوار النفسى فى ضمير البطل، ففى قصيدته "قالت الضحية ١٣٨٢هـ"[2]، يعالج تمخضات "الدعارة" فيجرى على لسان بطلته حوار المعجبين بها، فيظلل الحوار بأسى الراوية الخاطئة، ليثير فى المتلقى الشفقة، بتركيزه على التظليل الرومانسى المتعاطف مع الخاطئات "وهذه إحدى ظواهر الشعر الحديث"[3]، ويعمق الشاعر الحوار بالتحول فى شخصية البطلة من مدافعة إلى مهاجمة:

(١) د. الطاهر أحمد مكى : امرؤ القيس، حياته و شعره، ط٤، ص٢٥٧، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٩م.
(٢) " ديوان : فى طريق الفجر".
(٣) د. نعمات أحمد فؤاد: خصائص الشعر الحديث، ص٤٧، دار الفكر العربى ١٩٧١م.

تتناجـــــون بينكم: أتراها بنت "كسرى" أم "شهرزاد" الصغيرة
لو رأى "شـهريار" طيف صباها باع فـيـهـا سلطانه وسريره
ليـتني ثوبهـا، ويهـمس ثان يدعى أنه مناها الكبـيـره
آخـر العهـد بيننا، سمـر الأمـ ـس شكوت الهوى، وبث سعيره
لا تقولوا: سامرت وهما فمازا ل على ساعدَىّ دفء السميره
فيلبيه ثالث: ليت أنى نقطة فوق خدها مستديره
ويجاريه رابع: فيغنى ليتنى البحر، وهى فىّ جزيره
ويعيد المنى أديب شجى ليتها جدول أناغى خريره
لا تقولوا: كانت بغيًّا، أما الفجار كثر، والفاجرات كثيره؟
لست وحدى، كم البغايا ولكن تلك مغمورة، وهذى شهيره
صدقونى إن قلت: فى دوركم مثلى، فلست الأولى ولست الأخيره

* **والصورة الثالثة للحوار**، وهو الأسلوب الأمثل لدى شاعرنا، حوار الذات، أو "المونولوج الداخلى" وهو من تكنيكات "تيار الوعى" ، ويستخدم "لتقديم محتوى وعى أبطال الرواية قبل أن يخضع للمراقبة والتنظيم"[1]، ومما يتيح للبردُّونى إجادة توظيف هذا التكنيك الروائى أنه يمزج الحوار بالسرد" "والسرد يتضمن قدراً من المناجاة الداخلية وتقنية تيار الوعى، ويتيح للمؤلف أن يختفى خلف شخصياته، مما ينسجم مع الحياد الموضوعى فى الواقعية. وينزلق المؤلف من السرد إلى القول الداخلى، حتى يتخذ موقفًا حلوليًا باتحاده بشخصياته، فهو الأسلوب الحر غير المباشر، مما يجعله معادلاً لغويًا وجماليًا دقيقًا للموقف"[2].

إن هذه الخصيصة الأسلوبية تعتمد على التناقض الأسلوبى، بين الاختيار الفنى الجمالى للأسلوب، وتدافع التجربة النفسية إلى معجمها، فمفاد "تيار الوعى أو تيار الشعور" "انسياب التجارب النفسية داخل الإنسان، وتلقائية التفكير التى لا تخضع لمنطق معين، ولا لنظام تتابع خاص، ولكن فى ذهن الفنان، يخضع هذا التيار لعملية اختيار مبدئية"[3]، فتتداعى المعانى والصور فى خيال الشاعر حسب منطقه النفسى، ويضيف البردُّونى فى هذا النطاق، إمكانية توظيف : تيار

---

(١) عن بناء القصيدة العربية : ص٢٢٣.
(٢) علم الأسلوب : ص٩٥.
(٣) د. مجدى وهبة : معجم مصطلحات الأدب، ص٥٣٨، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٤م.

الوعى" بالحوار الوهمى، مع أشخاص وهميين قد بثهم ذاته، ومع جوامد وهمية قد بثها أبعاد رؤيته للتجربة النفسية والصراع الإنسانى بين الإنسان وذاته والحياة، وسنجد أنه يمسك خلال تداعياته خيطًا فكريًا واحدًا ينساب سرداً :

إنه صوتى، ويبدو غيره حين أصغى باحثاً عن وجه حلمى
من أنا؟ أسأل شخصاً داخلى هل أنا أنت؟ ومن أنت؟ وما اسمى
أيها الحارس، تدرى من أنا؟ اشتروا نومى، طويل ليل همى
الأنى حارس يا سيدى ..؟ زوجوها ثانياً، المال يعمى
من أنا؟ الليل يبنى للرؤى قامة كالرمح، من جلدى وعظمى
لا تعى سكران؟ تسع، أعلنت أول الأخبار: ما سموه رسمى
من أنا؟ صار ابن عمى تاجراً واشترى شيخ ثرى بنت عمى
هل تنام الصبح؟ سيارتها عبرت قدام عينى، فوق لحمى
أصغ لى أرجوك .. اغرى امها شيدت قصرين من أشلاء هدمى
داخلى يسقط فى خارجه غربتى أكبر من صوتى وحجمى[1]

فالخيط الفكرى الذى يمسك به خلال انسياب تجاربه النفسية، هو "المرأة" رمز الشرف فى البيئة العربية، غدت سلعة متمردة، تسقط أمام الإغراءات المادية، فتهاجر داعرة أو زوجة، لتضغط كبرياء الشباب فى وطنها، وتدوس رجولته لأنه فقير، ففى البيت الأول: هى وجه الحلم الذى يبحث عنه لاستقراره النفسى فى مجتمعه، وفى البيت الرابع: زوجوها ثانياً، وفى السابع: اشتراها شيخ عربى ثرى، وفى الثامن: تزهو بثرائها، وفى التاسع: اغريت امها، وشيدت قصرين، دلالة استعدادها للسلوك الشائن دون أسرتها أو جذورها العائلية، وهو تحذير من الإفراط فى حريتها، وفى البيت الأخير: خلفت فى نفسه غربة أبدية، بعد أن كانت حلماً، والتزام الشاعر وأصالته الدينية والبيئية مجالات صدق فنى دفعته للإمساك بهذا الخيط فى وعى واقتدار.

وفى قصيدته "زمان بلا نوعية ١٩٧٧م"[2]، يقيم حواراً نفسيًا بين نوازعه البشرية وسموه الروحى، ومنطقه العقلى، وهذا الشتات الإنسانى داخله، مصدره رغبة الهروب من الواقع، أو

---

(١) " وجوه دخانية فى مرايا الليل ١٩٧٥م، وجوه دخانية .."
(٢) " ديوان : زمان بلا نوعية ".

الرحيل عن "زمان بلا نوعية"، ولو كانت نهاية الهروب الانطفاء والانكسار فى مجاهل "الخمر"، ولتعدد الأصوات داخله يستخدم أساليب مختلفة، كالنداء والاستفهام والتعجب والأمر والتحذير والنهى والنفى والتقرير، وكلها أجزاء من صورة كلية تخضع لوعى فنى دقيق، تتداعى فيه الأفكار والصور مستخدمًا تقنية "تيار الوعى":

يا كـاس هل أحسـو؟ حـذار احتـرق — اشـــرب إلى أن تنـطفى يـا بليـــد
لاترتشـــفـــهـــا، لـست من أهلـهـــا — ذقـهـــا، إلى كم أنت صـاد وحـيـد!
تخـضـر فى كـفـى كـجـمـر الهـوى — تحـمـــر كـــالسكين فـــوق الوريد
تَعـــرى الى ســـرِّنـهـــا، تـرتدى — كـهـفـين، تـبـدو ذات أصل مـجـيـد
تهـتـــز كـــالعنقـــود، تدعـــو فـــمى — تفـتـــر، خـــذ يا جـــرة من جـليـــد
يا كــاس لو تنســـينتنى أشـتـــفى — هذا أكــيـــد، كل ســـوء أكـيـــد

وحينما يصور تحولات الإنسان القهرية عبر الزمن، لأسباب تتوالد فيه حتماً، يتخذ من المونولوج الداخلى مدخلاً إلى "تيار الوعى" فيشخص الزمن لحوار نفسى متنام، يستولد حواراً آخر مع "هواجسه" البشرية، والتى كانت خارج نطاق الشعور، ليجعلها محوراً جديداً ذا صوت قوى يدفعه إلى المثالية التى عزف عنها ليأسه، لينفصل الإنسان عن زمنه وتفكيره خلال رحلة التحول:

تخـشـبت، والأيام مـثـلى تخـشـبت — أتمضـين يا أيـام؟ من أين؟ حـــاولى
من الآن حـاول أنت، كـيف تريدنى؟ — سكت لماذا؟ هزنى من مـفـــاصلى
تقـولين، حـقى أصبح اليـوم باطلاً — على إلـيـــه، امـتـطى ظهـر بـاطلى
أتدرين؟ أنســانى التـمـــرغ هـا هنا — جـبـينى، وأنـستنى المنافى شـمـائلى
تقـولـين: مـاذا أنتـوى ياهـواجسى؟ — أتنوين شـيـئاً؟ فـارقـينى وناضلى[1]

* **والصورة الرابعة** للحوار: الحوار المسرحى، وهو العنصر الأول فى البناء الدرامى المسرحى، والذى يقوم على تعدد الأشخاص والأصوات، ونماذج التعدد فى القصيدة غير قليلة، فهذه الأشخاص - عند البردُّونى - تعبر عن أبعاد فكرية وشعورية متصارعة من أبعاد رؤية الشاعر، أكثر مما تعبر عن أبعاد درامية تتطور وتنمو، أى أن هذه الشخصيات المتحاورة المتصارعة، هى بمثابة

(١) "تحولات اعشاب الرماد ١٩٧٨م، زمان بلا نوعية".

رموز لأفكار الشاعر وأحاسيسه"[1]، التى تتخذ من الصوت والحركة إشعاعًا يتخلق فى حوار ملموس، وسنجد أن الحوار ومستوياته عند شاعرنا يتصل اتصالاً وثيقًا برهافة السمع، حيث نجح فى التصوير بالصوت[2]، وفى دوران معجمه اللغوى حول الصوت[3]، وكذلك الحوار يستخدمه هنا تكنيكا أساسيًا يرتبط بتعدد الأصوات التى تحدد بوضوح ملامح الشخصيات،

فقصيدته "مأساة حارس الملك ١٩٧٦م"[4]، تعد فى ذاتها مسرحية شعرية، ينساب فيها الحوار مشحونًا بالصور ملونًا بالأصوات المتعددة علوا وانخفاضًا تبعًا للموقف النفسى للشخصية، فالحوار فى المسرحية يدور بين شخوص ثلاثة: الملك والحارس والجندى، ويكثف الحوار بحوار نفسى آخر ينبع فى كل شخصية تعليقًا على الحدث المسرحى، وثلاثتهم رمز لواقع سياسى وفكرى مريض؛ فالملك رمز السلطة والجبروت يتمخض عن جبن وغباء، والحارس رمز الحكومة الذى يشارك ملكه الغباء والتبعية مفعم بالتوتر والاضطراب، أما الجندى فهو رمز السلطة التنفيذية، حيث الطاعة المطلقة، وهو يد لكل حاكم، فيه من الخير ما ينفع الأحرار الثائرين على الملك، وفيه من البطش ما يهلكهما معاً، ويضىء الشاعر الجانب الإنسانى فى هذا الجندى رمز السلطة التنفيذية، إنه أب يحلم بشرف الحياة والعدل ولكن رزقه ورزق أولاده وبناته أن يكون سيفًا فى كل يد تحكمه، وهذه المسرحيةبلا فواصل تحدد الشخص المتكلم، فالحوار وحده هو الذى يبين عن الشخصية، فما بين قوسين للملك :

سيدى: هذى الروابى المنتنه   لم تعد كالأمس كسلى مذعنه
[اقتلوهم.. واسجنوا آباءهم   واقتلوهم بعد تكبيل سنه]
أمركم .. لكن .. [ولكن مثلهم]   سيدى. هذى أسامى أمكنه
[هم شياطين، أنا أعرفهم   حين أسطو، يدعون المسكنه
"صبر" وغد ... أنا رقيته   كان خبازاً، أحلهُ معجنه
"نقم" كان حصاناً لأبى   اطحنوه .. علفاً للأحصنه
اقتلوا "يسلح" ألفى مرة   اسحبوا "عيبان" حتى "موسنه"][5]

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة : ص٢٠٦.
(٢، ٣) انظر : فصلى الصورة واللغة عند البردونى.
(٤) " ديوان : وجوه دخانية ..".
(٥) جاءت أسماء الاماكن و الشخوص أيضا بين قوسين، " فنقم و عيبان "جبلان مطلان على صنعاء، وصبر جبل مطل على " تعز " و " يسلح" ربوة بين منطقة صنعاء و المناطق الوسطى و" موسنة" منطقة تبعد عن "عيبان " بأكثر من ١٠٠ كيلو متر. انظر ذيل القصيدة بيد الشاعر

أمـــركم .. لـكن .. [ولكن اقـطعـوا راســــه، دع عنـك هذى الـلكـننه
عـن أبـى عن جــــده مملكتـى] طلـقــة بتت خـيــوط الـعنعنه
ســــيـــــدى: إطـلاق نار .. ربما ثورة، [قـل تسليـات مــحــزنه]
هاجـس فى صـدر مـولانـا: [أنت من تـخـــوفت، أكــانـت ممكنه؟
آخــــر الهـــمـس، سكوت أو لـظى أول الـعـــــزف المدوى دنـدنـه
الجـهـات الأربع احــمـرت، عـوت السـمــاء الآن صـارت مـدخـنه
مـهــرجـان دمــوى .. مــا الذى شب عـينيـه؟ ومـن ذا كـونه؟
الشـــيـــاطـيـن الذيـن انفلتــوا عــرفــوا أدهـى فنون الـشـيطنه
[امض ياجـندى ومـزقــهـم] .. نعم فـرصــة أخـرج، أرمـى السلطنه
أشـــعـــــر الثـــوار أنـى منهـم سـوف تبـدو سـيـئـاتى حـسنه
لسـت من عـائلة الأســيــاد يا .. إخــوتى، إنـى "مـثنى مـحــصنه"
إنـنى ســيـف لمن يحــمـلنى خــادم الأسـيــاد، كل الأزمـنه
كنت فى كـفى "أبى جـهل" كـمـا كـنـت فـى تـلـك الأكـف المؤمـنه

وإذا تمثلنا الحـوار أصواتاً، وجـدناها تتعـدد وتختلف تبـعًا لحـالة الشخـوص النفـسيـة، ومدى انفعالهـا بالدافع أو الحدث، فحديث الملك يتـراوح بين مستويات ثلاثة، العلو الغـاضب فى البيت الثانى: "اقتلوهم.." وآخرصدر الثالث: "ولكن مثلهم" حيث يشبه الأماكن بالثوار فى ثورتها عليه، وفى صدر الرابع" "هم.." ومن الخـامس للسابع، يتغلف الحوار بالغـضب الهستيـرى الذى لا يميز بين الإنسان والمكان لحظة الانتـقام خوفًا مـن الموت، وفى آخر صدر الثامن: "اقطعـوا.." إلى آخره ومستوى ثان، منطقى متعقل فى حـديثه عن أصالة ملكه فى البيت التاسع: "عن أبى .." وفى عجز العاشر: "قل تسليات.."، ومستوى ثالث هو الحوار النفسى الذى غمره الشاعر بمدركات الصوت: الهمس والسكوت واللظى والعزف المدوى والدندنة وعـوت، ومن مدركات الشم: مدخنة، ويظل لمدركات البـصر تلـوينها حـالة الهـستيريا الـتى سيطرت على الملك: احـمرت، مـهرجـان دموى، ليتصاعد المونولوج الداخلى إلى ثورة نفسية ولفظيـة وصوتيه كالمستوى الأول العالى الغاضب، إلا أنه هنا يتـرقى تدريجيًـا من ذات الملك المهتـرئة: وذلك من البيت الثـانى عشـر إلى الخامس عـشر، فالبـيت الثانى عـشر يبدأ وينتـهى بمدركات الصـوت "الهمس فالدندنة"، حـيث يتوالد بعـضه من بعض، ثم يمتزج باللون فى الثالث عشر، ثم يمتـزج كلاهما، الصوت واللون بمدركات البصر فى

الرابع عشر؛ ليساوره الغضب الممزوج بالرعب فى الخامس عشر، من خلال التقرير المباشر: "الشياطين الذين.." ليصل إلى ذورة حالته النفسية بالهروب من نفسه ومواجهتها ضعيفة أمام الحدث فى السادس عشر: "امض ياجندى ومزقهم..".

ويأخذ حديث الحارس مستوى واحداً فى الحوار، يعتمل فيه التوتر والاضطراب والخشوع، بينما يأخذ حديث الجندى، وهو ماركز عليه الشاعر ارتقابًا لحدوث التغيير على يديه، مستويات ثلاثة: المستوى الخفيض المطيع فى رده: "نعم.." وبذلك يعتبر شريكًا فى مستوى الحوار، والمستوى النفسى الذى تجلى عن مونولوج داخلى: "فرصة أخرج.." "أشعر الثوار.." ليصور خلفية الجندى، وليحدد ملامحه الشخصية وتكوينه النفسى والفكرى؛ فهو رمز لكل جندى، يدرك أنه سيف فى يد غاشمة، ولايرى مهربًا من ذلك إلا بوجود يد أخرى تحسن استخدامه، وحتى تحين هذه اللحظة، فهو كالسيف يقطع ترضية للملك، وفى المستوى الثالث: يرتفع صوته سرداً، ويبرز منطقه فى الرد على متهميه بالخيانة أو المشاركة فى الظلم، وحتى يوحى البردونى بجدية المسرحية وإمكانية تحديد زمانها ومكانها وشخوصها فى بيئه واحدة، لتأخذ موضوعية التجربة، يمارس خاصية ذكر الأسماء، فبالإضافة إلى اسم "مثنى محصنة" وهو من الأسماء الشائعة فى الريف اليمنى، يذكر أسماء الجبال والمناطق والربى والحقول والقرى.

ب- القص الشعرى:

لقد كان "عنصر القص والحكاية" جوهر الرواية قبل نضوجها واستقلال أدواتها الفنية لتصبح جنسًا أدبياً"[1]، يوظفه الشاعر فى النسيج الشعرى، ليرتاد آفاقًا أرحب من حيث التعبير والتصوير.

ويعمد البردونى إلى أسلوب القص ليصور أبعاد تجربته النفسية، وتفرق أفكاره بمحايدة وعفوية، يوحى بتلك الأبعاد من خلال توظيفه لشخص القاص، فقد ينطق بلسان الراوى عندما لا يستطيع الهروب من صوته لانصهاره بتجربته وتغلغلها فيه؛ "فأسلوب القص خصيصة مميزة لتجربة البردونى الفنية فى صياغة القصيدة، وتتضح هذه الخصيصة فى سنوات مابعد الثورة بخاصة"[2]. فقد اقتحمت اليمن والأدب اليمنى أحداث وموضوعات وتجارب جديدة لم يألفها الأدب قبل الثورة، كإحساس الشاعر بالفجوة الزمنية الرهيبة، بين يمن الثورة الوليد المتخلف.

---

(١) بناء القصيدة العربية الحديثة، ص ٢٢٠

(٢) د. عبد العزيز المقالح : الشعر بين الرؤيا و التشكيل، ص٣٩٥، ط٢، دار طلاس بدمشق، سوريا.

وصرعة التقدم العلمى فى الدول الكبرى المسيطرة، مما ولد إحساسًا بالعزلة والوحشة، وتوترًا فى مواجهة الأحداث المتعاقبة بعد فشل الثورة دون النهوض بالشعب اليمنى:

مــــولاتـى: يـا أحـلى الأحـلـى | عنـدى لك أخـبـــار عـــجلى
بـالأمـس شــــدا المذيـاع هـنـا | فـشــمـمـتك أغـنيـة جـذلى
واليـــوم تـقـــمــصنى قلـق | مـــجنون لـم يعـــرف مــهـــلا
فـتـقــاذفنى التـجـوال كـمـا | تسـتـاق العـاصـفـة الرمــلا
فـعـبـرت زقـاقـاً مـاهولاً | وزقــاقــاً هـرمــاً منحـــلا
وتـرابـاً يـنـسـج أقـنـعـــة | لـوجـــوه لـم تحـمـل شكـلا
وطريـقـاً سـمـحـاً أسلمنى | لمضـيـق يـلتـحف الـوحـلا
والآن رجـعـت كـمـا تسـرى | فى الـغـاب القـافلة العـزلا
هـذا مـا جـد، ولا أدرى | مـاذا سـيـجـد ومـا يـلى [1]

ويحاكى أسلوب القرآن الكريم فى قص تعدد الأخبار، ثم ترجيح الخبر الرشيد فى النهاية[2]، متوازنًا مع أمنية الشاعر وحالته النفسية، كتصويره ذكرى شهداء الثوار فى الكون، أو فى وطنهم، فهم فى النهاية ذرات خصيبة تتخلق فى الأرض لتحيا الأرض بالثوار من جديد:

قـيل انقـضى عـشرون عـامـاً على | تمزيقـهم، قـيل: انقـضت أشـهـر
وقـال واد: أصـبـحـوا عنده | وقـال سـفح: فـوقـه عـسكروا
وقـال نجم: تحت عـينى سـروا | والفـجـر فى أهدابهم يسـهـر
وقـيل: هبـوا ضـحـوة وانثـنوا | كـمـا يتـيـه العـاصف الأغـبـر
وقـال بـعض: شـاهـدوا دفنـهم | وقـال بعض البـعض: لم يـقـبـروا
قـيل: اختـفـوا يومـا، وقـيل: انطفـوا | وقـيـل: من حـيـث انطفـوا نوروا
وقـيـل. ذابـوا .. ذرة .. ذرة | والأرض فـى ذراتهـم تـكبـر [3]

وقد يقع البردُّونى تحت إغراء حرية القص واتساع مجاله، فينقض بناءه الفنى، حيث ينعدم المنطق بين شخص القاص والخبر المروى. "فأم ميمون" تلك الريفية البسيطة، تتناول فى قصها

(١) " آخر جديد ١٩٧٠م، مدينة الغد ".
(٢) انظر سورة الكهف " الآية : ٢٢ ".
(٣) " الصاعدون من دمائهم ١٩٧٨م، زمان بلا نوعية ".

أفكاراً عميقة، وصوراً معقدة، ومصطلحات علمية وفلسفية، لا تتفق وثقافتها، مما أفقد النص الشعرى معادلته الفنية:

ماذا أقص اليوم؟ كم سقطوا ... والموت لا يغفو ولا يثوى
كان الصباح كأنف أمسية ... كان الدجى كالملعب الجوى
"وغرابة الأطوار .. لازمة ... للحرب، من تكوينها العضوى"[1]

هذا، وقد صاغ البردُّونى كثيراً من قصائده بأسلوب القص الشعرى، كقصيدتيه: "حكاية سنين ١٩٦٥م، من ديوانه: مدينة الغد"و "مسافرة بلا مهمة، من ديوان: لعينى أم بلقيس" وقد تناول البحث القصيدتين فى "فصل الموضوعات" تحت عنوان: اليمن فى التاريخ.

بذلك يكون شاعرنا قد وظف فى شعره تكنيكين من تكنيكات الرواية: أسلوب القص والحكاية، وأسلوب تيار الوعى، الذى أبرز من خلاله "المونولوج الداخلى" لتصوير تجربته النفسية، ومن هنا فقد خطا خطوة متقنة وواعية فى تجديد المضمون الشعرى فى القصيدة التراثيه الأصيلة، بالإضافة إلى توظيفه الراقى للحوار المسرحى فى القصيدة وبنائها، مما أضفى على فنه تميزاً فى عالم الحداثة الشعرى، يعلوو يرتقى بحفاظه على القلب التراثى، والذى كان لبنائه الموسيقى أثر واضح فى تشكيل الحوار وإمداده برحابة صوتية عميقة الإيحاء.

جـ- استخدام الموروث :

وهو الأسلوب الذى يتيح للشاعر انسياحه الفنى، وخوضه الواعى فى التجارب الإنسانية السابقة، يستلهمها رؤى يستشف بها الواقع الملموس، وما الواقع سوى ركام ماض فى دورة الحياة، يتزامن مع فطرة الإنسان فى التعرف والاستكشاف ورغبة الإبداع، والشاعر المبدع يرى العالم مسرحًا تتكرر فيه التجربة الإنسانية على مر الدهور، فالإنسان وهو جوهر العالم ومحور الأشياء ، لا يقنع بالوقوف على الآثار الإنسانية متأملاً متعظاً، ولكنه قد يخوض نفس التجارب وصولاً إلى نهايتها السالفة، ومن هنا فقد كانت دعوة الأنبياء واحدة، وتشابهت أخطاء الأمم المتعاقبة، ذلك أن النفس جبلت على سجايا بشرية تتردد بين سمو وانحطاط، فالشاعر فى رصده الواقع ومزجه بالماضى، إنما يتعمق تلك النفس الإنسانية الدافعه للأحداث، ويحقق نوعًا من الوحدة الإنسانية "ويكسب الكلمات ثروة معنوية واضحة، ويمتلئ المضمون بشاعرية لا تتوافر

---

(١) " من أسمار أم ميمون ١٩٨٢م، ترجمة رملية لأعراس الغبار ".

بدونها"[1]، ويمتلك نقطة انطلاق "تمكنه من التعليق على التاريخ الفكرى الاجتماعى، وعلى المفاهيم المتغيرة عن الواقع والوضع الإنسانى، ووحدة الفنون وتطورها"[2]، وترقب الأحداث القادمة وتوقع نتائجها، من خلال انصهار النوع البشرى وسريانه ثم تشعبه فى مسالك الفكر والسياسة والدين والعقيدة، خلف فلاسفة وحكام وأنبياء ونبلاء وأسياد، كان لهم دور بارز فى صناعة الماضى وتشكيل ملامحه، لهذا؛ كانت العقائد وغيرها مما سلف "على جانب عظيم من الأهمية بالنظر إلى المستقبل؛ لأن العقيدة تبعث الأمل فعلاً فى دوامها بعد صاحبها، وفى سيطرة الإنسان على مصيره بفضلها"[3].

وهذه المسالك إشارات مضيئة فى مسيرة الإنسان، ورصد علاقاته بالكون والحياة والإنسان وتطور هذه العلاقات، فهى جزء من الموروث البشرى الذى يضرب فى أعماق الماضى، ويتناغم مع رغبة الإنسان فى التأصيل لجنسه، خلال رحلة عاطفية إليه، يحدوها الشبق المعرفى، ومحاولة التخفيف من سأمة الحاضر وماديته، وسيجد الشاعر خلال رحلته "مئات الأصوات رهن تصرفه الفنى، ترن فى وجدان المتلقى وسمعه، بأبعاد من تجربته المعاصرة، وهذه الأصوات لها فى سمع المتلقى صدى خاص لا يخطئ وجدانه التقاطه، وهو حين يستخدم هذه الأصوات، يكون قد أضفى على تجربته الشعرية نوعًا من الأصالة الفنية، عن طريق إكسابها هذا البعد التاريخى الحضارى، وأكسبها فى نفس الوقت لونًا من الكلية والشمول، بحيث تتخطى حاجز الزمن، فيمتزج فى إطارها الماضى والحاضر فى وحده شاملة"[4]، تسمح للشاعر بإسقاط أحدهما على الآخر دون الاعتراف بحاجز الزمن، طالما أن الإنسان واحد والتجارب واحدة.

لقد استطاع البردُّونى أن "يضفى نوعًا من الموضوعية والدرامية على عاطفته الغنائية"[5] حينما عمد إلى استخدام "بعض تكنيكات الفنون الموضوعية الأخرى، كفن المسرحية وفن القصة وفن السينما، فشاعت فى قصائده تكنيكات تلك الفنون، كالحوار وأسلوب القص وتعدد الأصوات والمونولوج الداخلى والمونتاج"[6]، فهذه التكنيكات تلائم نزوع الإنسان إلى الحداثة، وتتلاحم مع

---

(١) انظر : د. الطاهر أحمد مكى : الشعر العربى المعاصر، ط٣، ص٨٩، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٦م.
(٢) مفاهيم نقدية : ص٤٣٥.
(٣) عقائد المفكرين فى القرن العشرين : ص١٥٧.
(٤) د. على عشرى زايد : استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر، ط١، ص١٩، منشورات الشركة العامة للنشر و التوزيع و الاعلان، طرابلس، ليبيا ١٩٧٨م.
(٥) استدعاء الشخصيات التراثية : ص٢٤.
(٦) نفسه : ص٢٤.

واقعه الجدلى المتغير وعلاقته بالحياة والأشياء، من هنا مزجها البردُّونى بالتراث، ليؤكد مفهومه للوحدة الشاملة، وليفتح فى حاجز الزمن شرفات تطل على الشخصية التراثية أخذاً وعطاءً، فقد يستخدم الشخصية الحديثة رمزاً كما يستخدم "الشخصية التراثية معادلاً موضوعياً لتجربته الذاتية، بوصف الاستدعاء تكنيكا فنياً، يتخذه قناعاً، يبث من خلاله خواطره وأفكاره"(١).

وهناك بعد قومى اجتماعى، يلجئ الشاعر إلى استدعاء الموروث، "فلأن هناك علاقة جدلية بين الفنان ومجتمعه، يعبر فيها الإبداع عن ذات الفنان من جانب، وعن واقع المجتمع من جانب آخر، فقد كان على الإنسان الذى واكب حركة التغيير فى مجتمعه، ولفته أعاصير الضياع والحيرة، أن يرتد إلى تراثه تأكيداً لذاته، فى مواجهة الحضارة الغربية، التى بدأت تحاصره من كل جانب، متمثلاً فضائل أمته المتوارثه"(٢)، "لإحداث فجوة أو هزة فى المجتمع العربى"(٣)، عسى أن تنهض به من عثرته وتبعيته.

مصادره التراثية، وأنماط استخدامه للموروث :

١- الموروث الدينى :

أ- القرآن الكريم :

تستغرق شاعرنا كثيراً فكرة الرحيل والاغتراب عن اليمن وحلول الخراب فيه، سواء كان الرحيل بحثًا عن الرزق أو رغبة فى الارتحال لأسباب أخرى، ويجسد تلك الفكرة من خلال توظيفه للحدث القرآنى العظيم، "فبلقيس" ملكة سبأ. سافرت وسبقها عرشها إلى فلسطين، حيث ملك سيدنا سليمان عليه السلام، ولم يشر عليها أحد بالرحيل، بل بدا قادتها فى قوة بأس وامتثال لأمرها، وامتدح فيها القرآن الكريم سلطانها القائم على الشورى(٤)، ولكن الشاعر يحول الحدث القرآنى بما يلائم تجربته النفسية، إنه يرى أنها رحلت فى حالة فقدان وعى، لتتهم من أشاروا عليها الرحيل بالغباء، والآن لا مفر من تكملة المسيرة الحزينة إلى الأسر، لتتخلف الخراب الأبدى فى

---

(١) نفسه : ص٢٤. و قد أشار البحث فى أسلوبى الحوار والقص إلى استخدام البردونى الواعى لتلك التكنيكات.

(٢) د. الطاهر أحمد مكى : مقالة فى مجلة العربى، العدد ٣٧٧، ص١١٤، أبريل ١٩٩٠م.

(٣) استدعاء الشخصيات التراثية : ص٤٩.

(٤) محمد صبيح : مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية، ط٢، ص١،٢ دار القلم ١٩٦٥م.

اليمن، ويناوب الشاعر بين أسلوبي السرد القصصي والمونولوج الداخلي الذي يصب لتيار الوعي انسياب مشاعر بلقيس كما ارتآها، وجعل السرد على لسان الملكة ذا صوتين متحاورين، ليعمق المأساة بمحايدة فنية:

يارؤى، يالنجوم .. أين بلادي؟ لي بلاد، كانت بشبه الجزيره
أخبروا أنها . تجلت عروساً وامتطت هدهداً، وطارت أسيره
وإلى أين يا نجوم؟ فتومي: ماعرفنا يا أخت بدء المسيره
من أنا يامدى؟ وأنكر صوتي ويعب السفار وجه السفيره
من أشاروا على، كانوا غباء ليتهم موضعي، وكنت المشيره
كيف أختار؟ كيف؟ ليس أمامي غير درب؛ فليس في الأمر خيره
رحلت، مثلما يحث خطاه موكب الريح في الليالي المطيره
وارتدى الفار ناهديها، وأنست هجرة المنحنى خطاها الأخيره[1]

والحقيقة أن البردُّونى لم يحمل شخصية الملكة موضوعية فكرته، بقدر ما استقطبته الفكرة نفسها؛ لأن فكرة الرحيل تنحر فى أحاسيسه، وتحطم مثالية الولاء للوطن كما يراها، فيقنع فى معالجته الفنية فى هذه الحالة "بمجرد الإشارة إلى شخصيات لها مذخور روحى فى كيان المتلقى، فتفجر هذه الإشارة بقية الإشعاعات المرتبطة بالشخصية"[2]، فلم يوظفها إطاراً أوقف عليه قصيدته الطويلة، بل صهر محاوره الثلاثة: الشخصية والوطن والفكرة فى وحدة واحدة تصور مأساة بلاده وأساه الدفين، وتلك الوحدة صورة مشحونة بنبض الفكرة، تتلوها صور أخرى فى القصيدة تكررها وتلح عليها من كل جانب يثير العاطفة والمشاركة الوجدانية

ب- الحديث الشريف :

ويستخدم الحديث الشريف فى بنائه الفنى استخداماً عكسياً؛ ليحدث التضاد والمفارقة، بين الموقف وبطله قائل الحديث، فالحديث له قدسية المعنى واجب التصديق، وقائله يحاول تبرئة ساحته بنقض معنى الحديث الذى يسبر أغوار النفس الإنسانية، ففى قصيدته "مأساة حارس الملك ١٩٧٦"[3]، ينطلق جندى الملك فى موقف درامى مسرحى، بكلام فيه ازدواجية الولاء للملك

(١) " ورقة من التاريخ، مسافرة بلا مهمة ١٩٧٣م، السفر إلى الأيام الخضر" "السفار" فى البيت الرابع خطام البعير.
(٢) د. محمد فتوح أحمد . واقع القصيدة العربية، ط١، ص٥٩، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٤م.
(٣) " ديوان . وجوه دخانية .."

والتعاطف مع الثوار عليه، فالشاعر يستلهم صدق الأثر الشريف، ويترك للمتلقى توليد المفارقة:

لا عـــيـــالى شكلوا مـــبـــخـلة   ليـــديـا، لا بنـاتى مـــجـــبنه

والبيت مستوحى من قول الرسول صلى الله عليه وسلم "إن الولد مبخلة مجبنة"(1)، مفعلة من البخل، ومظنة لأن يحمل أبويه على البخل ويدعوهما إليه، فيبخلان بالمال لأجله، وكذلك "مجبنة"(2).

جـ- شخصيات الأنبياء والمقدسات الأخرى :

لم يقف الشاعر أمامها كوقوفه أمام شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ورغم ذلك كان استخدامه لجلالها طفيفاً، لا يزيد عن المناجاة والاستغاثة واستجلاب الافتخار، فالشاعر يريد من استحضار الشخصية الكريمة إبراز الصلة بينهما، فهو يمنى وأجداده هم الأنصار، منهم حسان بن ثابت وعمار بن ياسر رضى الله عنهما، فهما شخصيتان تنتميان إلى التراث التاريخى، يمزجه الشاعر بالموروث الدينى؛ ليضفى نوعًا من تأكيد الذات، ويؤخذ عليه هنا التكرار، والإلحاح على إبراز دور الأنصار العظيم، والمباشرة فى التحدث إلى شخصية الرسول بأسلوب النداء الذى يقترب من العامة : يا خاتم الرسل، ياطه، يا أحمد النور، مما لم يتح له بعدًا زمنيًا ومكانياً يمكنه من الموضوعية، واستخدام خصائصه المميزة فى التصوير:

"طه": إذا ثار إنشـــادى فـــإن أبى   "حسان"، أخباره فى الشعر أخبارى
أنا ابن أنصـــارك الغر الألى قـــذفوا   جيش الطغاة بجيش منك جرار
نحن اليـمـانين يا "طه" تطيـــر بنا   إلى روابى العـــلا أرواح أنصـــار
إذا تذكـرت "عـــمـــارا" ومـبـــدأه   فـافخر بنا" إننا أحفاد "عـمـار"(3)

وإنه يتمثل فى الشخصية العظيمة سماتها العظيمة فى جميع نواحى الحياة، كالصدع بالحق والعدل والهدى والإصرار والإقدام على عظائم الأحداث وغيرها من السمات، وهو ما يفتقده

(1) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى : رتبه و نظمه لفيف من المستشرقين، و نشره الدكتور : أ.ى. و نسنك، الجزء الأول، ص147، 320، مكتبة بريل فى مدينة ليدن 1936م. و انظر سنن ابن ماجة : الجزء الثانى، كتاب الأدب، ص1209، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى ، المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان.
(2) و قد جاء الحديث فى لسان العرب : ' الولد مجبنة مجهلة مبخلة ' بحذف ' إن ' و زيادة ' مجهلة '، ص222.
(3) «بشرى النبوءة 1379 هـ فى طريق الفجر».

المسلم فى حاضره، ومن ثم يستلهمـها مقترنة بصاحبها الكريم استثارة لقوة المسلم المعاصر تفاعلا مع قائده صلى الله عليه وسلم.

ويستخدم بقية الشخصيات الدينية لمحات عابرة لا تنم عن استبطان عميق، قانعًا بمجرد الإيحاء المنبعث من الاسم ، كتصويره الاستعمار الحديث ذا طبيعتين متناقضتين؛ ليستقطب الشعوب العربية الساذجة؛ فهو ذو يد تعربد ما تشاء، وذو عينين رحيمتين كعينى " المسيح عليه السلام":

ومن ذا أتى بعـد؟ غــاز تصــول   يداه، ويـرنو بعـــينى "يـســـوع"[(١)]

وكذلك استخدامه لشخصية "مانى"[(٢)] فى بيت متجدر بالجمود من استخدام مصطلحات النحو، ومن تكرار الاسم، فلم يعتمد إلا على بريق الشخصية فى ذهن المتلقى، وذلك ليوحى بتبعية دول الخليج العربى لإيران قبل الثورة الإيرانية، إمعانًا فى "علمانية" العلاقة وخروجها عن أى ولاء دينى، ولذلك تنكرت هذه الدول لإيران بعد الثورة الإسلامية :

لمثنّى "مـــــانى" إعــــرابٌ   بالجـــرِّ إلى عــــقـــبى "مـــانى"
مــــرناه خليـــجىٌ فــــمـــه   شِقٌ من صـــــخـــــرِ إيوانـى[(٣)]

٢- الموروث التاريخى :

ويستخدم الشخصية التاريخية أيضا، معتمداً على ما تثيره من إشعاعات طائفة سريعة، ممتزجة بمخزون المتلقى الثقافى، فالبردُّونى لكى يعبر عن دولة المتناقضات فى ضمير الإنسان العربى وكيانه المنقسم على نفسه، واستعداده المادى للخيانة، يطرق الخيال بأسماء لها رنين سابح فى الأذهان: كربلاء، الحسين، يزيد، وليذكر بالوحدة الإنسانية، ينعش الذاكرة التى حتما تسترجع قولة "الفرزدق" الشهيرة للحسين وهو فى طريقه وآل البيت إلى العراق لقتال بنى أمية: "القلوب معك، والسيوف عليك، والنصر من السماء"[(٤)].

---

(١) « نحن أعداؤنا ١٩٦٩م، مدينة الغد».

(٢) «وجه الوجوه المقلوبة ١٩٧٧م، زمان بلا نوعية». ومانى»: فيلسوف فارسى كان يؤمن بإلهين للنور والظلمة، وكانت آراؤه مزيجاً من الزراد شتية واليهودية والنصرانية، أعدمه «أزدشير» أحد أمراء آل ساسان على الدولة الفارسية البارثية سنة ٣٤٦ ق.هـ انظر : محمود شاكر: إيران، ص ١٥، المكتب الإسلامى، سلسلة «مواطن الشعوب الإسلامية فى آسيا، رقم١٣.

(٣) «وجه الوجوه المقلوبة ١٩٧٧م، زمان بلا نوعية».

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه، ج٤، ص ٣٨٤، دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٨٣م. وانظر تاريخ الطبرى،ج٤، ص ٢٩٩.

فـتـــغـلتى فـى داخلى "كـــربلا"   نصـفى "حسينى" ونصـفى "يزيد"[1]

وهذا التوظيف الدقـيق للشخصية لا يدوم طويـلاً، فالتحام الشاعـر هنا بالشخصيـتين والحدث المأساوى الذى راح ضحيته "الحسين"، أدى إلى إبراز واقع مادى ملموس يعانيه الشاعر ومجتمعه، هذا الواقع هو الدافع للإيحـاء بالشخصـية التاريخـية، وهنا "تنتهى وظيـفتهـا فى القصيـدة، بمجرد تحقيق الصلة بين وعى المتلقى وفكره ووجدانه، وبين هذا المقابل المادى"[2].

وقد يستخدم الشخصية رمزاً لليـمن فى إحدى دوله الغابرة، قانعًا بالإشارة إليها؛ ليدعو المتلقى إلى إكمـال رحلة البحث عن أبعـاد هذه الشخصـية وتلك الدولة، فيـقول عن تبـعية اليـمن خلال التاريخ لدول أخرى :

توجت، أســقطت على غيــر هدى   وانتـــقت، دون رؤية أو بـصـيـــره
فـانتـهت "فـاطمـيـة" "وهى" "أروى"   ظاهراً، خـلفـه سـجل وسـيــره[3]

"فأروى" هنا رمز لدولتها التى ولدت وبادت فى اليمن، فـامتلكت حضر موت وصنعاء، وكان لها حـكم مكة من قبل الفـاطميين فى مصر، إنهـا مملكة "بنى صليح الشيـعية" (٤٢٩:٥٣٢)هـ، وأروى بنت أحـمد الصليحى آخر ملوكـها (٤٩٢:٥٣٢)هـ زوجـة الملك المكرم أحمـد بن على الصليحـى (٤٥٩:٤٨٤)هـ والذى مـرض فـاصطحبتـه إلى "ذى جبلة"[4] فى رحلة عـلاج، واستخلفت على صنعاء أحد قادتها .. "عـمران بن أبى الفضل الهمدانى."، فطمع فى صنعاء، ولم تستطع استـعادتها، لتنفـصل صنعاء عن ملك "أروى الصليحـية تماماً، لتقـوم فى صنعاء دولة" بنى حاتم الهمدانيين (٤٩٢:٥٦٩)هـ، ومـا أن ماتت الملكة أروى سنه ٥٣٢ هـ، حتى تفككت المملكة الصليحـية، وقـد كانـت تلقب الملكة أروى ببلقـيس الجـديدة؛ لرجاحـة عـقلها وحـسن تدبيـرها للملك[5].

ولايفتـأ الشاعر يعـتريه الأسى على بلاده حـينما يتذكـر ماضيـها الأليم، فـيشخـصها خـادمة،

---

(١) «زمان بلا نوعية ١٩٧٧م، زمان بلا نوعية».
(٢) استدعاء الشخصيات التراثية: ص ٢٧٧.
(٣) مسافرة بلا همة ١٩٧٣م، السفر إلى الأيام الخضر».
(٤) مدينة فى الشمال الشرقى، تبعد عن مدينة تعز« ٢٨٠ك.م.
(٥) د. أحمد شلبى: مـوسوعة التاريخ الإسـلامى والحضارة الإسلاميـة، ط٣، ج٧، ص ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٥م. وانظر: د. محـمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر، سـياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها، ص ١١٤، دار الفكر العـربى بالقاهرة ١٩٧٤م، وانظر فى تقسيم دول اليمن: د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام. ص١٢١.

ووصيفة، وخفيرة، وبعيراً، في ديار الغير أو ديارها، وهذا التشخيص تصويري تسجيلي للتاريخ؛ لأنه يستعير الحدث التاريخي الحقيقي نفسه :

فـرأوها وصـيـفـة عند "رومـا" ورأوها في باب "كـسـرى" خـفـيره
وبعـيـراً لـبنت "باذان" حـينا وأواناً، تحت "النجـاشي" بعيره [1]

فـروما وكسرى وباذان والنجاشي أسماء تراثية تستدعي التاريخ؛ لأنها رمز في محنة اليمن "فكسرى أنوشروان احتل اليمن عام ٥٣ ق.هـ فطلب الرومان من أنصارهم وأبناء عقيدتهم الأحباش احتلال اليمن لتأمين الطرق البحرية لهم، ولزيادة نفوذهم هناك، ففعلوا، وأسرع الفرس خصوم الرومان لتلبية طلب مساعدة سكان اليمن بقيادة "سيف بن ذي يزن والنعمان بن قيس" فأعانوهم على طرد الأحباش، ولكنهم أقاموا مكانهم، وبعثوا عاملاً لهم على اليمن يدير أمورها لهم" [2]، "وباذان" أحد هؤلاء العمال، وآخر عامل لكسرى على اليمن؛ "إذ دخل الإسلام بعد أن دعاه إليه الرسول صلى الله عليه وسلم" [3].

فشاعرنا في هذا التوظيف يستدعي الحدث التاريخي من خلال استدعاء الشخصية، ويتميز في هذا الاستدعاء بإقامة وحدة خاطفة بين رموزه التاريخية المتعددة؛ لارتباطها بنسيج نفسي يتردد في إحساسه بفداحة المأساة التي يستدعيها معادلاً موضوعيًا ونفسياً، يخفف من رؤيته المعاصرة لليمن الآن، باعتبار أن البكاء على الحاضر تمخضات الماضي القدري، مما يخفف من أساه، فيستظل بالصبر الفطري مستولداً الأمل الجديد.

٣- الموروث الأدبي :

أ- استخدام الشخصية :

هناك شخصيات من الموروث الأدبي تتردد في شعر البردُّوني كثيراً، امرؤ القيس، النابغة الذبياني، حسان بن ثابت، أبو نواس، أبو تمام، المتنبي، أبو العلاء المعري، فقد يستخدم الاسم صريحًا وعابراً في تظليل الصورة لتعميق تجربته الشعرية، "وقد يستعير من شعرهم بالتحوير أو

---

(١) مسافرة بلا مهمة ١٩٧٣م، السفر ..."

(٢) محمود شاكر: إيران، ص ٢٧.

(٣) محمد فرج: الفتح العربي للعراق وفارس، ص ٦٤، دار الفكر العربي ١٩٦٦م وانظر: تاريخ الطبري، ص ٥٦٥، ج٤، ط٢، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.

الإشـارة أو بنقله كمـا هو"[1] وهو الأغلب، وقـد يقف أمام صـفاتـها وأحـداث حيـاتها بالتـأمل والمشاركة الوجدانية بهدف الإسقاط، وهنا يتنقل بـين أسلوبى السرد والحوار؛ إمعانًا فى بثها هموم ذاته وآلام واقـعه؛ لإحـداث مفـارقة زمـانية وتصـويرية تولد عنيـفة عـند كل مقـارنة، كاصطفـائه لشخصية "أبى تمام، حبيب بن أوس الطائى.[2] الشاعر العباسى الشهـير الذى يلازم اسمه قصيدته الرائعة فى مدح المعـتصم (٢١٨:٢٢٧)هـ وفتح عمورية (سنـة ٢٢٣)هـ، وبدءًا، استطاع البردُّونى فى رائعته التى يعارض بها أبا تمام أن ينقل الواقع المر إلى عالم أبى تمام المشرق بعدة وسائل:

١- العنوان: حـيث يمهـد لجو المفـارقة الزمنيـة والمكانية والتـصويرية فى القـصيـدة "أبو تمام، وعروبة اليوم".

٢- جاءت قصيـدة البردُّونى استلهامًا للشخصـية التى تمتلك فى قلوب الناس وأذهانهم مكانة عظمى، واسـتلهامًـا للتراث الأدبى المشـع بعوالم زاهيـة فى الفنون والحروب والسـياسـة والعلوم والأخلاق، ولذلك فالقصيدة لون من المعارضات الإبداعية المتميزة.

٣- استخدام البـردُّونى لعدة أساليب خلقت امتزاجًا روحيًا ونفـسيًا بينه وبين أبى تمام، ثم بين أبى تمام والمتلقى: التصريع، الموسيقى والقافية، الحوار والسـرد، التضمين، مشاركة الشاعر قضـايا إنسانية خاصـة، كقضـية المدح والارتحال والعلاقـة بالوطن والعبقـرية المبكرة قبل الأربعين، فقد توفى أبو تمام فى الثامنة والثلاثين من عمره، بعد إنجازات خالدة، بينما يرى شاعرنا تـواضعًا أنه فى نهاية فنه لم ينجـز مثله وقد تجاوز الأربعـين، ويربط البردُّونى بين العبقرية المعطاءة وخفض العيش:

"حبيب" تسـأل عن حالى وكيف أنا؟ ... شُـبّـابة فى شـفـاه الريح تنتـحب
كـانت بـلادك رحـلاً، ظهـر ناجـيـة ... أمـا بلادى، فـلا ظـهـر ولا غـبب
أرعـيت كـل جـديب لحم راحـلة ... كـانت رعتـه، ومـاء الروض ينسكب
ورحت من سـفـر مـضن إلى سـفـر ... أضنى، لأن طـريق الراحـة التـعب
لكن .. أنا راحل فـى غـيـرمـا سـفـر ... رحلى دمى، وطريقى الجـمر والحطب
إذا امـتـطيت ركـابـا للنوى، فـأنا ... فى داخلى، أمـتطى نارى، واغـتـرب

---

(١) استدعاء الشخصيات التراثية: ص ٢٥٥.

(٢) ولد سنة ١٩٠هـ بحوارن بـدمشق، وتـوفى سنة ٢٢٨هـ بالموصل، انظر: ديوان أبى تمـام، بشـرح الخـطيب التبريزى، تحقيق: محمد عبده عزام، ط٣، المقدمة، دار المعارف بالقاهرة.

قبـرى، ومأسـاة مـيلادى على كتـفى وحـولى الـعـدم المنفـوخ والـصـخب
حـبـيب هذا صـداك اليـوم أنشـده لكـن لماذا ترى وجـهى وتـكتـئب
ماذا؟ أتعجب من شيـبى على صغرى إنى ولدت عـجوزاً، كـيف تعتـجب؟
واليـوم أذوى، وطيش الفـن يعـزفنى والأربعـون على خـدى تلتـهب
كـذا، إذا ابيضّ إيـناع الحـيـاة على وجه الأديب أضـاء الفكر والأدب (١)

وقد يلتحم شاعرنا بشخصية تراثية أدبية، ويتـحدث بلسانها إلى شخصية أخرى؛ ليحكم القناع الذى يتخـفى خلفه، ويتيح لنفسـه قدراً من الحرية، وهو فى الحـقيقة يسـقط عليها واقعـه القاسى، لينأى عن المضـايقة والإرهاب، فـقد التـحم البردُّونى بالمتـنبى زمنًا ولساناً، من خـلال تقلده الفنى لمعارضتـه، ليواسى أبا نواس فى محنتـه مع الرشيد والأمين، فى حـين أنه يسقط عليه واقعـه، فقد نشـرت السلطة الإمـامية إرهابهـا باسم "جلد باعة الخـمـر وشاربيـه سنة ١٣٧٩هـ فى اليـمن"(٢) والشعب مـحروم من الخبز، ولايمـتلك الخمر سـوى الأئمة وبطانتهم، وإنما القـرار لفرض الحكم قسراً، والإيحاء بظلال الحكم الإسلامى، ولتدمير فئـة المثقفين الرافضين للتخلف، وتشويه مكانتهم لدى العامة بهذا الاتهام البغيض.

فعلى حين يستسلم المتنبى لعناء الزمن الحتمى فى صدر قصيدته:

صـحـب الناس قـبـلنا ذا الزمـانا وعنـاهم من شـأنه مـا عنـانا(٣)

يعتلى البردُّونى الزمن والهدى، بتغليب العقل على الهوى:

لوتـسـامـت عـقـولنا عن هـوانا لهدينا الهـدى، وقدنا الزمانا(٤)

وإن البردُّونى يرفض استخدام شخصـية أبى نواس تراثًا ماجنًا ننزع إليه عندما نحن إلى المجون أو نزدريه؛ فتـبرئة أبى نواس مما نسب إليه هـنا تبرئة لشاعـرنا وشعبه مما ألـصق بهم، فأبو نواس لم يكن ماجنًا إلى درجة مستقبحة، بل إن حاضرنا أشد مجونًا واستقباحاً:

لا تنـم يا "أبا نواس"، أمـا كنت أثيـمـا فى لهـوه يتـفـانى
فهتكـنا عنك الستار كأن لم يخطُـر الإثـم بيننـا عريـانـا

(١) «أبو تمام وعروبة اليوم ١٩٧١م، لعينى أم بلقيس».
(٢) انظر مقدمة قصيدته «شاعر الكأس والرشيد ١٣٧٩ هـ فى طريق الفجر».
(٣) الشيخ ناصيف اليازجى: العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب، ص ٥١١، دار القلم، بيروت.
(٤) «شاعر الكأس والرشيد ١٣٧٩ هـ فى طريق الفجر».

لقد كان الرشيد والأمين، وهما رمز "الإمام أحمد وولى عهده البدر" يتيهان فى الخمر والرذيلة، ويجلدان "أبا نواس" على جوعه وظمئه، ولا يصبر على الرمز فيكاد يصرح به فى البيت الأخير بتغيير اللغة والأسلوب "عرق الشعب":

وأحس "الرشيد" ينزل دنياه كما ينزل الصباح الجنانا
وهو يلهو لهو الشجى ويمضى فى جنون الهوى يعرى القيانا
ماترى يا "أبا نواس"؟ ترى الأكواب ملأى وتحتسى الحرمانا
تتشهى مدامة لم تجدها فتغنى خيالها الفتانا
لووجدت الرحيق ماذبت شجوا وتحرقت فى المنى أشجانا
والأمين النديم يمنعك الخمر ويحسو، وتنحنى ظمآنا
وهو فى القصر يحتسى عرق الشعب ويروى القيان والغلمانا(١)

لقد استطاع شاعرنا أن يمكن المتلقى من استيلاد المفارقة الزمنية والتصويرية بين الحاضر والماضى، ثم نقل الحدث الواقعى إلى الماضى بشخوصه، وأن يلتحم مع المتنبى بمعارضته، ليسقط على "أبى نواس" وزمنه واقعه، ولكنه خاض فى جرأة شديدة تراثنا التاريخى الزاهر فى ضمائرالأجيال الحديثة بالتشويه، والخوف أن يتخلل الخواء والخراب الفكرى هذه العقول النضرة، فتنفصل تدريجًا عن أصولها الخالدة العظيمة، مما يفقدها الانتماء إلى أمة، تحاول لم الشتات فى العصر الحديث(٢).

ب- استخدام الشعر :

ويوظف شعر الشخصيات التراثية كموروث أدبى؛ لأنه يحمل شحنات نفسية مكثفة من صاحبه، توحى بعمق انفعاله والتحامه بالمثير العاطفى لعملية الإبداع، وبالتحوير وإعادة التشكيل حسب موقفه الشعرى، يضيف تميزه الفنى فيضفى على المأثور الأدبى بصمته الخاصة، فخلال تتبعه وتصويره لارتحال القبائل والعمائر اليمنية عن اليمن، ينتهى إلى استقرار بعضها فى الشام، حيث قامت مملكة الغساسنة، وهنا يقفز إلى مخيلته بيت حسان بن ثابت رضى الله عنه (ت ٤٠)هـ فى

---

(١) نفسها.

(٢) انظر فى ذلك المعنى: الأستاذ: أنور الجندى: خصائص الأدب العربى فى مواجهة نظريات النقد الأدبى الحديث، ص ١٠١ وما بعدها، دار الاعتصام بمصر ١٩٧٥م . وانظر: د. على حبيبة: العباسيون فى التاريخ، ص ١١٢: مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٠م.

أجدادهما الغساسنة وغوطة الشام :

يسـقـون من ورد البـريص عليـهم بردى تصـفق بالرحـيق السلسل[1]

فينصهـر لديه الملك اليمنى العريق، ونصاعـة تاريخ حسان بن ثابت جده فى وحدة نفسية هى المعادل لآلام الارتحال التى تأخذ من فكره الكثير:

ورووا : أشـامتْ عـلى غيـر قـصـد ثم أمـست عـلى "دمـشق" أمـيـره
(وسـقت من أتى البـريص إليـهـا بردى ، خـمـرةً ، ونعمى وفـيـره)[2]

ويستلهم بيت النابغة الذبيانى (ت ٦٠٢)م فى مدح النعمان بن المنذر ملك الحيرة:

فـإنك كـالليل الذى هـو مـدركى وإن خلت أن المنتـأى عـنك واسع[3]

ليدفع شعـوره المرير بأسى حتميـة الانهزام اليمنى فى مواقفـه الكبيرة، ،يستـخصر من الموروث الفولكلورى ما يضمد به جراحه، ويزيد الصورة يقينًا فكرياً، وإحاطة أسلوبية مميزة، فيذكرنا بقصة "سنمار" بانى «الخورنق» للنعمان بن المنذر، الذى كان جـزاؤه القتل، كمفـتتح للتعبير عن فكرته التى لخصها بيت النابغة، الذى عانى كاليمن من سيل الفرس وطغيانهم، فقد كانت نهاية اليمن مع الفرس مـحزنة، فمن حيث اعـتقد اليـمنيون صداقة الفـرس وحمايتـهم من الروم؛ كانت الكارثة، حيث رأى الفرس أن يحتلوا اليـمن لتأمين مصالحهم، وإغلاق المنافـذ البحرية فى وجه الروم، ولم يخرجوا إلى أن جاء الإسلام اليمن:[4]

وعلت جـبـهـة "الخـورنق" تاجـاً يا "سنمّـار" أىُّ عـقـبى مـشيـره !
وهمت كـالـنجوم سـعـداً ونـحـسـاً وعطايـا وحـشـيـةً ومـجـيـره
(أنتَ كـالليل مُـدركى من أمـامى وورائى ، كلُّ الـنّواحى ضـريره)[5]

ويستخدم استهلالة امرىء القيس (ت ٥٦٥)م فى معلقته:

قـفـا نبك من ذكـرى حـبيب ومنزل بسقط اللوى، بين الدخول فحومل[6]

---

(١) ديوان «حسان بن ثابت» : ص ١٢٢، تحقيق: سيد حنفى حسنين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ م.
(٢) مسافرة بلا مهمة ١٩٧٣ م، السفر ...
(٣) ديوان "النابغة الذبيانى": ص ٨١، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
(٤) محمود شاكر: إيران، ص ١٦.
(٥) مسافرة بلا مهمة ١٩٧٣ م، السفر ...
(٦) ديوان "امرىء القيس": ص ٨، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م.

لتحقير رد الفعل العربى بعد احتلال اسرائيل وسيناء والجولان ومناطق أخرى بعد هزيمة ١٩٦٧م، حيث حول الطلل إلى أراض عربية مغتصبة، وحول البكاء عند امرئ القيس إلى أسى خفيف:

ما مطلعها؟ أقفا نأسى   من ذكرى سينا والجولان (١)

٤- الموروث الفولكلورى :

لقد تأثر البردُّونى كثيرا بدعوة الارتباط بالموروث فى الآداب الأوروبية، وبالأخص "إليوت" الشاعر والناقد الإنجليزى(٢) صاحب الدعوة، إذ إن أكثر شخصياته الفولكلورية استخداما فى شعره هى التى تبناها إليوت من قبل: كالسندباد وشهر زاد وشهريار والمسيح"(٣). وانطلق البردُّونى من حدود التأثر إلى آفاق بكر للإبداع الفولكلوى، مستمدا مادته من البيئة اليمنية الغنية بالحكايات الشعبية المتوارثة فى شعاب الجبال وبطون القرى والوديان المنتشرة فى أصقاع اليمن، والتى مازالت فى ماضيها السحيق ترفض الواقع المتحضر بالزيف والخواء الإنسانى والتبعية للغرب، ولذلك فإن حكاياهم تغشاها البكارة كنمط حياتهم، فهناك مثلا "قصة المحتضر" و "الجنية صياد" و "ابن علوان"، و "على بن زائد"، كما أخذت شخصية "سيف بن ذى يزن" منحى فولكلوريا يصور مدى الضغط والانطواء اللذين تحكما فى فكر هذه البيئة المحافظة، فتطور شخصيته من التاريخ إلى الفولكلور دليل اتخاذها متنفسا يزين الواقع، ويحمل عن الناس البسطاء طموحهم فى أسمار الليل، كما يشكل البردُّونى من المواسم أيضا سيرة شعبية مصورة "كليالى العجوز" و "أم قالد".

وقصة المحتضر من أسمار الريف الدرامية، حيث تحكى أن المحتضر يشاهد ملك الموت وفى يده سكين حمراء، وأنه قد يخطئ فيهم بقبض روح شخص والمراد شخص آخر، وعلى وجه الخصوص إذا اشتبه الاسمان ، فيصوغ الشاعر ملخص الحكاية فى قصيدته، حيث يصور ملك الموت "يقبض روح إنسان فى ليلة عرسه :

من لياليه حين مسّ عليًّا   ليلة العرس أنه شرّ وافد
أو أتى مرشداً ، فأومى إليه   صاحباه ، أن الضحية راشد(٤)

---

(١) "ساعة نقاش مع طالبة العنوان ١٩٧٢ م، لعينى أم بلقيس".
(٢) إليوت (توماس سترنس، ١٨٨٨ - ١٩٦٥ م) كاتب إنجليزى المولد. انظر المنجد: ص ٦٣، ط ٢٣.
(٣) استدعاء الشخصيات التراثية: ص ٤٠.
(٤) " أسمار القرية ١٩٦٧ م، مدينة الغد".

وتحتل " الجنية صياد" حيزا فى تلك الأسمار، فمهمتها صيد الرجال، وهى أكثر طمعا فى الأذلاء، ولها صفات جسمية ومعنوية من العوالم الثلاثة: الجان والإنسان والحيوان:

وعلى المنحنى ، تمدّ "صياد" للأذلاء حائطاً من أساود
ولها حافرا "حمارٍ" ، وتبدو مرأةً قد تزوجت ألف مارد[1]

وفى القصيدة نفسها يذكر "ابن علوان" و "على بن زائد" تلميحا إلى مذخوريهما فى ذهن المتلقى اليمنى، فابن علوان بطل أسطورى معتقد فى اليمن، تنسب إليه بطولات وخوارق، وكذلك "على بن زائد" حكيم معتبر فى الأوساط اليمنية، ويعتمد الزراع على تجاربه السائرة فى أمثال تحدد أوقات الأمطار والبذور والحصاد، فهو يرتبط "بليالى العجوز" و "أم قالد" وهما موسمان زراعيان، فالأول: موسم بين أواخر الشتاء وأوائل الصيف فى عرف أهل الريف، والثانى: سنة القحط عند المزارعين:

فيقصون كيف طار "ابن علوان" وماذا حكى "على بن زائد"

وإذا الغرب واجه الصيف بالأرياح باعت عيالها "أم قالد"

والتقوا ليلة "عجوزاً توارت فى أحاديدها النجوم الخوامد[2]

أما استخدامه لشخصيات الموروث الفولكلورى الشائعة، فلم يكن بالعمق المرجو، حيث اكتفى بذكرها لمحات عابرة، فلم يحملها من ذاته أو تجاربه الشعرية ما يخلق تكوينا مميزا يعرف به، وهذه أصالة فى ذاتها، إذا اعتبرنا إحياءه لفولكلور بيئته استهلالا إبداعيا له، فيه سبق الريادة فى شعرنا المعاصر.

لقد حملت شخصية "السندباد" تجربة الشاعر المصرى صلاح عبد الصبور، الغنية بالشحنات النفسية والعاطفية والصدمات، حتى غدت معادلا موضوعيا له[3]، فى حين اكتفى البردُّونى من السندباد بمجرد التشبيه فى إحدى حالاته، إن رفاقه سبب حزنه، لأنهم لا يجيدون إلا الاستماع، ولا يضيرهم إن كان حيا أو ميتا، لأنه مجرد حكاية:

فلتستريحى إننى وحدى ، وأحزانى رفاقى
كالسندباد بلا بحار كالغدير بلا سواقى
ورجاى الا تسألى هَل متُّ ؟ أو ما زلت باقى؟[4]

(١ ، ٢) نفسها.
(٣) انظر: صلاح عبد الصبور: "رحلة فى الليل" من ديوانه "الناس فى بلادى" ط٢، دار المعرفة ١٩٦٢م.
(٤) "امرأة وشاعر ١٩٧٠ م، لعينى أم بلقيس"

وأخذت شخصية "شهريار" بعداً إنسانيا غائرا فى النفس الإنسانية والغريزة فى تجربة "نزارقبانى" الشعرية،" لقد حاول أن يعبر من خلالها عن ذلك الأسى الدفين الذى يعانيه بعد أن فقد "الجنس" بالنسبة له بعده العاطفى الإنسانى، وذلك الشعور الأليم بالوحدة، حين يصبح الجنس مجرد صلة ميكانيكية لا روح فيها، بدل أن يكون رباطا روحيا بين اثنين"[1]، بينما أخذت هذه الشخصية عند البردُّونى مجرد إشارة توحى باستكناه الشخصية دون سبرها وتوظيفها، فمثلا، يخاطب المرأة: إن الاعتياد جعل منها شهر زاد، وإن لم يكن شهريار:

لم أكن "شهريار" لكن تمادت عشرة صورتك لى "شهر زادا"[2]

ويستخدم الشاعر اليمنى الدكتور عبد العزيز المقالح شخصية سيف بن ذى يزن فى قصيدته "من يوميات سيف بن ذى يزن فى بلاد الروم" حيث نجح فى استغلال بعض المعطيات الأسطورية لسيرة الشخصية فى التعبير عما يعترض الثائر اليمنى المعاصر من عقبات فى سبيل تحرير بلده من التخلف، والوصول بها إلى شاطئ الازدهار والحرية"[3]، بينما يقف شاعرنا عند مجرد ذكر الشخصية، معتمدا على ما يتناثر فى ذهن المتلقى بمجرد الإشارة إليها، فاليمن ضئيلة بجانب شخصية "سيف" لأنها من أساطيره :

رواية عن "أسعد" أسطورة عن "ذى يزن"[4]

إن استخدام البردُّونى لشخصيات الموروث الفولكلورى الشائعة، استدعاءات تشبيهية ولمحات عابرة، "وإشارات عامه، لا تنم عن استيعاب حقيقى للأبعاد التراثية، ورغبة جادة فى توظيفها تعبيريا، لنقل أبعاد تجربته الشعرية[5]

٥- الأمثال :

ويستخدم البردُّونى المثل كموروث إنسانى، يلخص به موقفه العاطفى والنفسى، وهو بذلك يمتزج بالنسيج البشرى التليد، ويصل التجارب الإنسانية التى يتفاعل معها بتجارب السابقين،

(١) استدعاء الشخصيات التراثية: ص ٢٠٦ . وانظر: ديوان نزار قبانى، الرسم بالكلمات ، قصيدته "دموع شهريار"، منشورات مكتبة مدبولى.
(٢) "اعتيادان ١٩٧٠ م، لعينى أم بلقيس".
(٣) استدعاء الشخصيات التراثية: ص ٢٠٦ .
(٤) "مواطن بلا وطن ١٩٧٠ م، لعينى أم بلقيس".
(٥) استدعاء الشخصيات التراثية: ص ٢١٢ م.

فالمثل قول مركز قوى، انحدر عنهم خلاصة لمجموعة من التجارب والخبرات، وتعبيرا عن حياة الأمم بتاريخها ورجالها وبيئتها وتصوراتها، فهى لذلك صدى قوى لكثير من جوانب الحياة الجاهلية والعربية، ورصد لقيمتها الفكرية؛ فالأمثال ومضات من فلسفة الجاهلية، "فهى فلسفة أخلاقية عملية، مادية روحانية، وروحانيتها مسحة أخلاقية كريمة، تحاول أن تعالج حسن التصرف فى حياه البادية على أحسن طريقة ممكنة، للحفاظ على الحياه الذاتية والقبلية، وللحفاظ على الشرف الذاتى والقبلى، وللحفاظ على الصيت الحسن والحياة الطيبة على ألسنه الناس"(١)، وهو حين يوظف المثل فى بنائه الفنى، فكأنه يدرج تجربته فى إطار الوحدة الإنسانية الشاملة، لثبات فطرة الإنسان وطبيعته على اختلاف العصور، ولأن قوانين الحياة مستقرة غريزيا فى كل نفس.

ففى تصويره لجندى الملك يخاطب الثوار معلنا خضوعه لحكمهم المرتقب، ينطقه بالمثل العربى الجاهلى "شنشنة أعرفها من أخزم"(٢)، وأصله: كان أخزم عاقا لأبيه، فمات وترك بنين عقوا جدهم فضربوه وأدموه، فأطلقت "شنشنة" على الطبيعة والسجية السيئة أو الحسنة، فالجندى يخاف أن يكون مع الملك رمز "أخزم" واختار طريق الجد"، ففيه الأصالة والحق، غير أنه سيكون فى يده قويا كالسيف، لأنها يد أمينة:

حين قلتم ثورة شعبية ... جئتكم أشتاقُ كفّاً متقنه
رافضاً كالشعب أن يدميني ... "أخزمٌ" ثانٍ، جديدُ "الشِنشنة"(٣)

وحين يرفض البردُّونى اغتراب اليمنيات للعمل أو الزواج أو اضطرارهن للعمل فى بلادهن لظروف المعيشة، يستخدم المثل الجاهلى الحميرى: "تموت الحرة ولا تأكل بثدييها" أو "ولا تأكل ثدييها"(٤) استحضاراً للعزة اليمنية التى تحلى بها الأجداد، ويزيد من كثافة المثل، بأن هؤلاء الأجداد ربما أكلوا بناتهم خوفا من العار، وربما يوحى من قريب لإحدى أسباب العادة الجاهلية الرذيلة "وأد البنات":

أقسم الجد: لو أكلنا بثدى ... لقمة من يد، أكلت بناتى(٥)

---

(١) حنا الفاخورى الحكم والأمثال، ط٢، ص ١٧، دار المعارف ١٩٦٩ م.
(٢) مجمع الأمثال لأبى الفضل أحمد بن محمد النيسابورى الميدانى (ت ٥١٨ هـ): ج١، ص ٣٦١ تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار القلم/ بيروت لبنان، وانظر: لسان العرب لابن منظور: ج٤، ص ٢٣٤٦، دار المعارف بمصر.
(٣) "مأساة حارس الملك ١٩٧٦ م، وجوه دخانية فى مرايا الليل".
(٤) انظر: ملحق القصيدة بقلم الشاعر، وانظر: مجمع الأمثال للميدانى: ج١، ص ١٢٢.
(٥) "السفر الى الأيام الخضر ١٩٧٤ م، السفر ..".

ويستلهم المثل العربى "لا يحزنك دم هراقه أهله"(1) استلهاما عكسيا، عندما يصور سوء العلاقة بينه وبين المرأة، إنه لن يأسى عليها، لأنها لم تكن وشيجة دم وإلفة، بل كانت "خلا":

وبرغم هذا الجدب لن آسى على الخل المراق (2)

ويشير إلى المثل العامى الدارج "العين بصيرة واليد قصيرة" فى استعراضه لتاريخ اليمن فطموحه أكبر من خطوه:

وطوت أربعا وعشرا، مناها مسرعات، لكن خطاها قصيره (3)

ويستوحى مثلين فى بيتين متتاليين، وهو يتناول العلاقة بين يتيمة ثكلى وعمها الوصى عليها، وهو ما يؤكد عمد الشاعر إلى الأمثال يستنهضها علاجا لطبيعة البشر، فالعم الوصى يستنزف ابنة أخيه الميت، ويستأثر بحقها ولو استطاع لجردها من كل شىء، وهو أخطر عليها من العقرب، فالمثل الأول: "لو ألقمته عسلا، عض أصبعى"(4) جشعا وطمعا، والثانى "أعدى من العقرب (5)، من العداوة والعداء:

لو شم كفّى لاحتسى خاتمى لو مسّ رجلى لاحتوى جوربى
فى آخر السبعين، لكنه أصبى إلى اللدغ من العقرب (6)

وقد يستخدم شاعرنا أكثر من شخصية تراثية فى بيت واحد، وكل شخصية تستدعى المثل الموروث، ليكثف التعبير بإحداث مفارقة تصور مدى التناقض فى حكم الأئمة فى اليمن، وقدرتهم على قلب الأمور لصالحهم ضد الشعب اليمنى:

وينيلون "باقلا" ثغر "قس" ويعيرون "مادرا" جود "حاتم" (7)

فباقل: يضرب به المثل فى العى والبلاهة "أعيا من باقل"(8)، وهو رجل من إياد" من بنى ربيعة،

(1) مجمع الأمثال: ص ٢٣١، ج٢.
(2) "امرأة وشاعر ١٩٧١ م، لعينى أم بلقيس".
(3) "مسافرة بلا مهمة ١٩٧١م، لعينى أم بلقيس".
(4) مجمع الأمثال: ج٢، ص ٢٥٧.
(5) الدرة الفاخرة فى الأمثال السائرة، للإمام حمزة بن الحسن الأصبهانى (ت ٣٥١ هـ)، تحقيق: عبد المجيد قطامش، ج١ ص ٣٠٣، دار المعارف.
(6) «ثكلى بلا زائر ١٩٦٩م، مدينة الغد».
(7) «مآتم وأعراس ١٩٦٣م، فى طريق الفجر
(8) مجمع الأمثال للميدانى: ج٢، ص ٤٣.

وهو مـا يختلف تمامـا مع "قس" فهـو: قس بن ساعـدة الإيادى، أسقف نجـران، وكان من حكـماء العرب، يضرب به المثل فى الفـصاحة والبيان، فـيقال: "أبين من قس"[1]، ومادر: هو رجل من بنى هلال بن عامر بن صعصعة، يضرب به المثل فى البخل، فيقال: "أبخل من مادر"[2]، وكان من بخله أنه سقـى إبله، فبقـى فى أسفل الحوض مـاء قليل فسلـح فيه، أى مـدره أو لطخه بالطيـن، وسمى "مادرا" لذلك، وكـذلك فهو على النقيض تمامـا مع شخصيـة "حاتم" فهو مـضرب المثل فى الكرم والجود، فيـقال: "أكرم من أسيـرى عنزة، وهما حاتم طيىء وكعـب بن مامة"[3] ويقال: "أكرم من حاتم".

فرغم ازدحـام البيت بشـخصـيات الأمثـال الموروثة، إلا أنه جاء منظمـا، ويحمل من خـلاصة الموقف الشعرى روح الشاعـر الغاضبة، ففيـه الكفاء عن الشرح والتفصيل، كمـا قامت المقابلة بين الشخـصيـات بدورها الأساسى فى إبراز المـفارقة المسـتولدة من المثل المـوروث، مما أضفى تركـيزا سريعا على المعنى.

٦- الموروث الأسطورى :

ويسير البردُّونى فى استخدامه الموروث الأسطورى سيره فى الموروث الفولكلورى، فيشير إلى شخصـياته إشارات عابرة، اعتمـادا على ما تستثيـره الشخصية فى ذهن المتلقى من مـذخور ثقافى، كمـا ينتنى إلى الموروث الأسطورى فى البيـئة اليمنيـة، الريفية والـبدوية، يستنهـضه وحيـا جديدا، يشكل به بناءه الفنى، فالحياة فى تضاريس اليمن الصعبة مـنبت خصب لخيال فضفاض، تروج فيها الخرافات، لبعدها النسـبى عن التأثير الإعلامى، ولمحاولة ساكنيها فـرض عزلة على منهاج حياتهم كنوع من الإبقاء على العادات والتـقاليد، فتولد فى مـسامرهم مبالغات خلف كل حكاية، تسـتقر فى الأذهان، لقلة ما تقع عليه أعينهم، فـلاشىء، غير السماء والجبال الممتدة والـنهار والليل المستبد المخيم على كل شىء يستلهم تداعيات طفولية عن الأشباح والجان، والفراغ المستظل بعواء الذئاب ونباح الكلاب.فحين يصور شاعرنا زماننا الحاضر الذى ضاعت فيه إنسانيته، وطفا فيه الانتهازيون على الحكومـات وزيفوا الحقـائق. وهم يتغـيرون ويتـخللون السلطة والمجـتمع كالريـح ويدمرون كالزوابع، يسترجع ذلك الماضى الـطفولى البعيد، حيث الخوف والرهبـة من الشياطين والأصوات

(١) الدرة الفاخرة: ج١، ص ٩١ .
(٢) نفسه: ج١، ص ٨٦.
(٣) مجمع الأمثال: ج٢، ص ١٧١ .

المنبعثة فى الليل، حتى إن الذى "يصفر" تأكله الجان ليلاً ، والجان الذين كانوا يخوضون البحار دون بلل، وكان لهم سلطان خرافى، غدوا يسكرون من كأس واحدة فى زمن الرذيلة الانتهازية:

هل أصفر الآن ؟ يأتى الجنّ أسلمهم — نفسى ، لكى يأكلونى مثل من أكلوا
يقال : كانوا شياطيناً لهم خطرٌ — تطرّفوا زمناً كالناس واعتدلوا
واليوم تغرقهم كأسٌ ، وفى زمنٍ — خاضوا بحوراً ، وما ندّاهم البلل (١)

وهو فى قوله "خاضوا بحورا وما نداهم البلل" يستلهم مثلاً عاميًا يجرى مجرى اللغز الشعبى عما يخوض البحار بلا بلل، ولم يأت اللغز عفو الخاطر، بل عن قوة وعى بعثت فى الشاعر بكارة الطفولة، "فاللغز نشأ منذ قديم الزمان، حينما كان العقل البدائى يمرن نفسه على التلاؤم مع الكون الذى يحيط به، ذلك أنه كلما كانت الرؤية أكثر نضارة ازدادت الرغبة فى إدراك ظواهر الطبيعة وظواهر الحياة وإدراك القوانين التى تحيط بالإنسان، ومن ثم، فإن الأطفال يحبون الألغاز، ومثلهم البدائيون، ولهذا، فإننا نجد الأنواع الأدبية الشعبية، مثل الأسطورة والحكايات الشعبية والحكايات الخرافية، تتضمن الألغاز، فاللغز يشير إلى غموض الحياة، وهو فى الوقت نفسه يمثل إدراك العقل البكر"(٢).

فيستخدم البردُّونى أسطورة يمنية اسمها "البِدَة" مشيرا إليها لتقوم عنه بنقل انفعاله النفسى باعث التجربة الفنية، فلكى يصور الناس والفقر ، ومثيرات الجنس المعلقة على الجدران إعلانا عن أفلام سينمائية ، يستوحى الأسطورة التى شحنت بتلك المعانى ، وتثير العواطف بعنف ، وهو يذيل القصيدة بتفسير هذه الأسطورة، ولم يشر إلى مصدرها ، يقول البردُّونى :

تعربد الأسواقُ ، تعدو بلا — شهيّة إغماءة العربده
تحبو الممرات على ظهرها — وتلبسُ الجدران وجهَ "البِدَه" (٣)

ويقول فى ذيل القصيدة عن "البدة": (وهو اصطلاح لعينات خرافية من النساء، يقال إنهن يحولن الرجال إلى حمير ، ويتحولن إلى أتان ، ويمارسن معهم الجنس كالحيوانات أمام الناس ، ثم تعود المرأة إلى صورتها البشرية بعد أن تتمرغ فى التراب ، حتى يمنع كثرة الغبار رؤية العيون

---

(١) «أمين سر الزوابع ١٩٧٩م، ترجمة رملية لأعراس الغبار».
(٢) د. نبيلة إبراهيم: أشكال التعبير فى الأدب الشعبى، ط٢، ص ١٧٨، دار النهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة ١٩٧٤م.
(٣) «استقالة الموت ١٩٧٨م، زمان بلا نوعية».

لها، على حين يعجز الرجل الممسوخ أن يستعيد صورته الآدمية إلا على يد رجل مشعوذ يسمى "المبدبد" ؛ لأنه يخلص الرجال من مسخ "البدات" وقد صار اسم "البدة" رمز البشاعة والخوف والمسخ ، ووراء هذه الخرافة حكاية ، يقال إن النساء اللواتى يصلن إلى هذه القدرة يتدربن على التعرى ثلاثين ليلة فى أماكن مكشوفة . ويبلن أربعين صباحا متواليا فى مواجهة الشمس عند بزوغها ، ويروى المخبرون عنهن أنهن فى منطقتين معينتين ، وأنهن يحرمن الزواج لغناء آبائهن وارتفاع مهورهن ؛ لما يتمتعن به من جمال) .

هذا ، ويأتى استخدامه لشخصيات الأساطير الشهيرة عابرا ، مجرد إشارات تستدعى الأحداث والصفات المتعلقة بالشخصية ، وقد يعدد هذه الشخصيات لحاجه فنية ارتآها تنوب عن استرسال التصوير ، فعن وقفة الشعب اليمنى فى وجه الإمام الظالم ، يصور الشعب أقوى من جبروته وأدهى من ذكائه وخداعه ، فاستطاع أن يهدم سطوته ويكشف زيفه :

فخلعنا عن صدره قلب "شمشون" وعن وجهه قناع "سجاح"[1]

فشمشون : من قضاة العبرانيين ، اشتهر بقوته ، فنزعتها عنه "دليلة" لما قصت شعره ، وهو بطل أسطورى فى الموروث الرومانى[2] وسجاح : رمز الخداع المضطرم بالشبق الجنسى ، فهى امرأة تميمية ادعت النبوة ، صاحبة مسيلمة الكذاب ، حيث وهبت نفسها له[3] .

إن البردُّونى استطاع أن يحقق قدرا من الصلة بين الأسطورة المستخدمة وتجربته الشعرية ، رغم استخدامه الجزئى العابر ، ذلك أن الشخصية الأسطورية " والأسطورة قد وجدا صدى خاصا فى نفسيته ، يتمثل فى بعض الومضات الغائمة فى لاوعيه ، فى بعض معطيات الأسطورة صورتها الرمزية التى تضيئها وتنقلها إلى الشعور"[4]، وخير مثال توظيفه لأسطورة " البده" معادلا لحالته النفسية أمام تعمد الحكومات إهاجة الغريزة والجنس فى شعوبها الفقيرة ، لتضليل عقول الناس عن مجريات السياسة ، وغرس الخواء الفكرى فى الشباب ، ولو كان استخدم الأسطورة بشىء من التوسع وحملها ماتطيقه من التكثيف ، ووزع أدوارها وأفكارها على أحداث وشخصيات مبتدعة، لكان وقعها أشد عمقا وتأصيلا من مجرد الإشارة إليها.

---

(١) «تحد ١٣٨١هـ فى طريق الفجر».
(٢) المنجد فى اللغة والأعلام، ط٢٣، ص ٣٩٢، دار المشرق، بيروت ، لبنان.
(٣) الدرة الفاخرة للأصبهانى ص ٣٢٥. وانظر: المعجم الوسيط: ص ٤٣٢، ج١.
(٤) استدعاء الشخصيات التراثية: ص ٢٢٢.

تعقيب : لقد استخدم البردُّونى الموروث بأنماط ثلاثة، الأول: أن يلتحم بالشخصية متحدثا بلسانها عن تجاربه المعاصرة التى تستولد فى تناقضها مع الماضى مفارقات تصويرية أثيرة، كالتحامه بأبى تمام من خلال معارضته فى قصيدته العظيمة " أبوتمام وعروبة اليوم ١٩٧١م، لعينى أم بلقيس"(١)، أو متحدثا بلسانها إلى شخصية أخرى هى التى يسقط عليها واقعه النفسى وتجربته الفنية ، كالتحامه بالمتنبى ليسقط على أبى نواس ؛ تحقيقًا لحاجة فنية تجمع بين محاكاة الشخصية والتحدث بها، ورغبة فى حرية التعبير خلف قناع الموروث(٢). والنمط الثانى: استلهام الشخصية من خلال قولها، كما استلهم شخصيتى حسان بن ثابت والنابغة الذبيانى من شعرهما(٣)، والنمط الثالث: الاستغناء بمجرد ذكر الشخصية عن الالتحام أو القول، وعلى هذا الاستخدام الأغلب للشخصية عند البردُّونى، "إذ يقنع بمجرد الإشارة إلى شخصيات لها مذخور روحى فى كيان المتلقى، فتفجر هذه الإشارة بقية الإشعاعات المرتبطة بالشخصية"(٤).

غير أنه فى إطار النمط الثالث، تجاوز المألوف فى الإحالة على الموروث، ففى قصيدته "مواطن بلا وطن ١٩٧٠م، من ديوانه: لعينى أم بلقيس"، يجنح إلى استيحاء كل موروث له أبعاد خاصة أو عامة فى تاريخ اليمن: شخصيات، قبائل، أحياء من قبائل، أسماء كتب لمؤلفين من اليمن، أسماء كتب عن اليمن، أقوال من الشعر عن اليمن، ملوك اليمن القدامى، أساطير تستثير واقعًا يمنيًا قديماً..، وذلك، ليحدث تأثيراً يدندن حوله كثيراً، إذ كيف استحال اليمن واليمنى إلى واقعين مرين؟ وقد كانا من عصارة الممالك والملوك الخالدة على مر التاريخ، وهو عندما يدفع المتلقى إلى استيلاد المفارقة، يكتفى بمجرد إثارة حالة من الأسى؛ بكثرة ما يطرق بالموروث على ذهن المتلقى وخياله، وإن كان يؤخذ على الشاعر هنا، افتخاره مثلاً بأحياء من قبائل، ليس لها عراقة الماضى وإشعاعاته، مما يُعَنِّى المتلقى، ولذلك، يذيل كل صفحة تقريبًا بهامش للتفسير، وهذه الإشارات التراثية، يستحضرها من مختلف المصادر: الدينية والتاريخية والأدبية والأسطورية والفولكورية:

بلادُهُ سطرٌ على كتاب "عبرة الزمن"(٥)

(١) انظر فى هذا الكتاب ص ٢٠١ .
(٢) انظر فى هذا الكتاب ص ٢٠٣ وما بعدها
(٣) انظر فى هذا الكتاب ص ٢٠٤.
(٤) د. محمد فتوح أحمد: واقع القصيدة العربية، ط١، ص ٥٩، مكتبة دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٤م.
(٥) عبرة الزمن: كتاب فى التاريخ اليمنى القديم، 'لعمارة اليمنى': قتله صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٩هـ بعد قيامه بحركة تمرد على صلاح الدين، واتهم بالكفر والزندقة، اشتهر بالفصاحة والشعر، وله مصنف فى الفرائض والوزراء الفاطميين، وهو شافعى المذهب، له ديوان شعر. - انظر : 'الحافظ بن كثير (٧٧٤)هـ : =

رواية عن "أسعد" ‏ ‏ ‏ ‏ أسطورة عن "ذي يزن" [١]

حكاية عن "هدهد" ‏ ‏ ‏ ‏ كان عميلاً مؤتمن [٢]

وعن ملوك استبوا ‏ ‏ ‏ ‏ أو سبأوا مليون "دن" [٣]

الملكُ كان ملكَهم ‏ ‏ ‏ ‏ سواه قعب من لبن [٤]

واليوم طفل "حِمْير" ‏ ‏ ‏ ‏ بلا أب، بلا صِبا [٥]

يغزوه ألف "هدهد" ‏ ‏ ‏ ‏ وتنثنى بلا نبا" [٦]

يكفيه أن أمه ‏ ‏ ‏ ‏ "ريا" وجده "سبا" [٧]

وأن عم خاله ‏ ‏ ‏ ‏ كان يزين "يحصبا" [٨]

وأن خال عمه ‏ ‏ ‏ ‏ كان يقود "أرحبا" [٩]

كانوا يضيئون الدجى ‏ ‏ ‏ ‏ "ويعبدون الكوكبا" [١٠]

يا ناسج "الإكليل" قل ‏ ‏ ‏ ‏ تلك الجباه من غبا [١١]

أو سمُّها كواكبا ‏ ‏ ‏ ‏ تمنّعت أن تغربا

اليوم أرض "مأرب" ‏ ‏ ‏ ‏ كأمها .. موجهه [١٢]

= البداية والنهاية، ج ١٢، ط ٢، ص ٢٧٦، مكتبة المعارف، بيروت: ١٩٧٧م"، وانظر: د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى، ج٥، ط٧، ص ١٩٣، مطبعة النهضة ١٩٨٦م.

(١) أسعد: أسعد بن مالك الحميرى، ملك يمنى حميرى، لقب بالكامل لبطولاته. وسيف بن ذى يزن: ملك يمنى قاتل الروم والفرس، وله أمجاد تاريخية بلغت حد الأساطير فى أذهان أهل اليمن.

(٢) عن هدهد "سيدنا سليمان عليه السلام:

(٣) يشرح اسم "سبأ"، فيقال، لكثرة ما استبوا أو سبوا من النساء، أو لكثرة ما سبأوا أى شربوا من الخمر،" والدن" وعاء الخمر الضخم.

(٤) إشارة إلى بيت "أمية بن أبى الصلت" الذى مدح به الملك سيف بن ذى يزن:

تلك المكارم، لا قعبان من لبن ‏ ‏ ‏ ‏ شيبًا بماء فعادا بعد أبوالا

انظر: ديوان أمية بن أبى الصلت ص ٥٢ الطبعة، الأولى جمعه وطبعه "بشير يموت": المكتبة الأهلية" بيروت ١٩٣٤م.

(٥) إشارة إلى الإنسان اليمنى المعاصر.

(٦) إشارة إلى الآية الكريمة: "فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين". النمل: ٢٢.

(٧) "ريا" بنت الحارث، فارسة حميرية شهيرة.

(٨) يحصب: حى من قبيلة باليمن.

(٩) أرحب: حى من قبيلة باليمن، ينسب إليها النجائب الأرحبية.

(١٠) إشارة الى معبد القمر فى "مأرب".

(١١) الإكليل: كتاب عن ملوك اليمن القدامى، لأبى محمد الهمدانى، من مؤرخى القرن العاشر الميلادى.

(١٢) إشارة الى اليمن.

يقـــودها كـــامـــهـــا "فـــار" وســـوط "أبرهـه"[1]
فـــمـــا أمـــرّ أمـــســـهـــا : ويومُـــهـــا ، مـــا أشـــبـــهـــه
"تمّوز" فى عـــيـــونـهـــا كـــالعـــانس المولّهـــه[2]
"والشـــمسُ فى جـــبـــينهـــا كـــاللوحـــة المشـــوّهـه[3]
فـــيـــا سُـــهَـــيلُ هـل ترى اســـئلةً مـــدلّـهـــه ؟[4]
مـــتى يفـــيقُ هـا هـنـا شـــعبٌ يعى تـنبّـــهـــه ؟

القصيدة تتكون من سبعة وثلاثين بيتاً، على مجزوء، الرجز، قسمت إلى ثلاث فقرات، بزيادة بيت فى الفقرة الثالثة، تنوعت قافيتها، الثلث الأول مقفى بالنون الساكنة، والثانى بالباء المشبعة بألف المد، فاضطر إلى تخفيف الهمزات كثيراً، مثل: نبأ، سبأ، غباء، الإباء، والثلث الأخير مقفى بهاء السكت، وقد اختار البحث عشرين بيتًا من القصيدة، لاشتمال هذه الأبيات على الموروث بأنواعه، مع محاولة الحفاظ على ترتيب المعانى فى القصيدة.

ولاشك أن البردونى فى هذه القصيدة قد بالغ فى الإحالة على الموروث باختلاف مصادره، فلا تعدو كونها حصراً لشتات الموروث والأحداث المتراكمة فى خياله من إلمامه بالتاريخ اليمنى، فالموروث هنا يتشكل فى كلمات وجمل لا تبنى صورة، ومع التزامه بالقالب التراثى، لجأ كثيراً إلى الضرورة، كتخفيف الهمزة، وقطع همزة الوصل، وقد أحدث فجوة عميقة بين المتلقى والقصيدة، تأتى من اضطراره إلى مراجعة كل إشارة تراثية، والوقوف أمام ضرورات التغيير وقطع المعانى فى مجزوء الرجز؛ لالتزام الشاعر بوحدة البيت، والقافية، "فاستغلال الموروث، ينبغى أن يخضع لجملة مقاييس منها: أن تكون ثمة علاقة عضوية بينه وبين القصيدة، بأن تكون الحاجة اليه نابعة من داخل الموقف الشعرى ذاته، ومنها: أن تكون ثمة صلة سابقة من نوع ما بين المتلقى والرمز التراثى؛ بألا يكون غريبًا عنه غربة مطلقة، حتى إذا ما ألمح إليه الشاعر، أيقظ فى وجدان المتلقى هالة من التداعيات والذكريات المرتبطة به"[5]، لقد اهتم البردونى باستعراض الماضى والتنويه إلى أحداثه

(١) الفار: رمز التخريب فى "مأرب". "أبرهة". أبرهة الأشرم، ملك اليمن الحبشى، حاول هدم الكعبة سنة ٥٧٠م مستخدمًا الفيلة فى القتال .. انظر: المنجد: ص٧، ط٢٣.
(٢) تموز: إله الخصب لدى سكان ما بين النهرين "البابليين والآشوريين" يقابله -"أدونس" لدى الفينيقيين. انظر "المنجد" ص ١٩٣، ط٢٣، دار المشرق، بيروت.
(٣) إشارة الى عبادة الشمس والكواكب زمن الملكة بلقيس.
(٤) سهيل: نجم يمانى يتفاءل به عند الفلكيين القدامى.
(٥) انظر: واقع القصيدة العربية: ط١، ص ٦٦ وما بعدها.

المضيئة فى تاريخ اليمن وإن كانت منبوذة فى التاريخ العربى والإسلامى، وذلك أكثر من اهتمامه ببناء القصيدة، فتحولت حالة الأسى والفراغ التى كان يحسها والمتلقى إلى نوع من الافتخار بالماضى وما يتعلق به، دون إحداث مفارقة تجذب الخيال وتمسك بطرفى الصراع فى البناء الفنى، ولذلك كان الصوت فى القصيدة واحداً رتيباً ويدعو إلى الملل ، على العكس تماماً مع روائعه التى تستعيد أمجاد التراث وحيًا أخاذًا وأسلوبًا أصيلاً.

د- المعارضات :

لم يقف البردُّونى صامتًا أمام عيون الشعر العربى، فقد تأثر تأثرًا عظيمًا بكثير من المبدعين العمالقة، كيزيد بن مفرغ الحميرى، الشاعر اليمنى المقيم فى ديار الأمويين، وأبى تمام والمتنبى وأبى العلاء، وغيرهم من القدامى والمخضرمين كامرئ القيس والنابغة الذبيانى وحسان بن ثابت رضى الله عنه، ومع اختلاف درجة التأثر بهؤلاء الشعراء، فإن التعرض لشعرهم بالمحاكاة أو التضمين أو الاقتباس الفكرى، غدا من خصائص شعره، وتأخذ معارضاته الشعرية وجه تلك الخصائص؛ لأنها تحمل أصالة الموروث الذى ينتمى إليه، وأصالة إبداعه الفنى المتفرد، فقد استطاع أن يفيض على ذلك الموروث بروحه وفنه وتفرده، فمزجه بمفهومه العميق لوحدة التجارب الإنسانية، حتى شعت الحداثة من معارضاته، كأنها لم تكن من قبل، فجدد فى لغته وأسلوبه وموسيقاه وصوره وقضاياه وأفكاره، فاندثر الموروث، إلا ظلالاً مشعة طيعة فى يده، أبقاها حيث أراد، تطوف خلال معارضاته ملتحمة بالجديد، وهذا العنصر الجديد «خاضع لشخصية المنشئ خضوعًا تاماً، كما أن العناصر القديمة هى أيضًا خاضعة لشخصية المنشئ فى عملية التأليف والخلق الفنى[1]، ولا يتنافى إطلاقًا وجود عناصر قديمة، ووجود أصالة فنية، وشخصية أدبية لها كيانها، ولها مميزاتها الفنية الخاصة بها[2]، وهذا ما يتعارض مع الحكم على التضمين والمعارضات بالتقليد، كما لا يتفق والتخمين بدافع إبداع المعارضة، كإثبات قدرة الشاعر على المحاكاة، أو جريًا على عادة الشعراء فى معارضة الأقدمين، أورد فعل لضعف الشاعر وعصره، فيستمد القوة الفنية من القديم[3]، فليست المعارضات العظيمة تقليداً ينفى قدرة المعارض على الإبداع ، بقدر ما هى نزوع إلى الموروث الغنى بتجاربه وأسلوبه، يستلهمه الشاعر مداداً فنيًا لتعميق تجربته الحديثة، وربطها بجذور إنسانية تقشعر

---

(١) د. محمد مصطفى هدارة: مقالات فى النقد الأدبى، ص ٤٩، دار القلم ١٩٦٥م.

(٢) نفسه: ص ٤٩

(٣) خصائص الشعر الحديث: ص ١٤٤.

باستدعائهـا الأحاسيس والمشاعر، فالنزوع إلى الموروث، وبالتـحديد القصائد العظيمة لمعـارضتها، «إنما هو تغلغل وتعمق فى التقاليد الفنية الموروثة، حـتى لا يضرب الشاعر فى متاهات الفن، وحتى لا يضل طريق الشعـراء النوابغ الذى سلكوه أمامه فى لغـته، فيـجرى فى نفس الدورب على هدى سابقيه، ثم يحاول أن يبتدع المثال النادر، بعد أن يكون قد تعرف تعرفًا تامًا كاملاً على كل ما صاغه أسـلافه؛ إذ رآه رؤية صـحيـحـة، فى أعظم ما يكـون من النور والضيـاء»[1]، وشـاعرنا عـبـد الله البردُّونى، لـديه القناعة الكافـية لمنهج المعـارضات، فمن حـيث إمكاناته الفنيـة، فهو مطـبوع على الإبداع التراثى، فلم ينشئ قـصيدة واحدة على نهج الشعـر الحر، ورصيده المعـجمى واسع ومتنوع ودقيق، وأسلوبه مـتمـيز التركـيب والأداء والاستخـدام، وصوره أصيلة، مـن ذات نفسه المبـدعة، وموسيقاه قـوية أثيرة، وميوله الفنية والنفسية تـنزع إلى تعظيم وإجلال الماضى المشرق، ولذلك تعد معارضاته أصيلة الإبداع؛ لتوافر عـاملى الصدق الفنى والصدق النفسى، «ويكفى أن يكون الشاعر ماهرًا فى تصوير ما يقـوله، بارعًا فيما يستمده مـن غيره، فيجرى على لسانه بلاغة وكلمـة جامعة، تذيع وتدور على ألسنة الناس»[2]

وهناك أوجه للتـشابه أو التضاد تدفع شـاعرنا إلى المعارضـة، فحين عارض أبا تمام فى رائعـته التى يمدح فيها المعتصم لفتح عمورية، كانت المفـارقة قد أمتلكته لينفجر بمعارضاته الرائعة أيضًا «أبو تمام وعـروبة اليـوم ١٩٧١م»، فالعـرب الذين هبـوا لنجـدة امـرأة عربيـة فى بلاد الروم، غـدوا مسلوبى الإرادة والبلاد، واحـتفوا بالغاصب المحتل، سـلاحهم الخطب العقيمـة، لم ينضجوا رغم بشاعـة خضـوعهم للعدو، بل انقلـبت الحكومات العربيـة على رعاياها، هذه المفـارقة التـصويرية المستولدة من اختلاف الزمن، انبعثت فى أحاسـيس الشاعر بعد هزيمة العرب المنكرة أمام إسرائيل فى ٥ يونيـو ١٩٦٧م، ولم يحـدث العرب ردة فـعل تدل على غـضبـهم، فـالمعارضـة أبدعت فى ١٩٧١م، حيث كـان العرب فى وحل الانكسار، فـأحدثت فى النفس تأثير الأسطورة، واسـتدعت سحر التاريخ ليخفـفا من هول الصدمة، وليبعثا الأمل فى قوة الانتصـار القادم الجديد، وهو حينما استلهم "أباتمـام" وزمنه المشرق فى قصـيدته «فإنمـا هو وجه من وجوه التـسلح بأكثـر ما يمكن من طاقات إطالة النفـس فى القصيـدة من ناحية، وهو من ناحـية أخرى وجـه من وجوه تطعيم شـعره بعض الأساليب الموروثة»[3]، التى أخذت صفة الخلود بكمالها الفنى والموضوعى.

---

(١) د. شوقى ضيف: شوقى شاعر العصر الحديث، ط٦، ص ٨١، دار المعارف بمصر ١٩٧٥م.

(٢) شوقى ، شاعر العصر الحديث: ص ٨٣.

(٣) خصائص الأسلوب فى الشوقيات «رسالة دكتوراه» د. محـمد الهادى الطرابلسى، منشورات الجامعة التونسية ص ٢٤٩، سنة ١٩٨١م.

لم يقف البردُّونى بالمعارضات حيث وقف أمير الشعراء أحمد شوقى، الذى التزم فى معارضاته بما يجب التقيد به، فكان «دقيق المحاكاة التى دلت على براعته ومهارته»(1) فى الأسلوب والرصيد اللغوى الكبير، فكأن شوقى ومن يعارضه ينهلان من نبع واحد، فشوقى فى بناء قصائده ينتهج نهج أساتذته الشعراء فى العصر العباسى، ثم البارودى رائد نهضة الشعر فى العصر الحديث»(2)، ولم يحل جانب التقليد بين شوقى والتجديد فى شعره، فمعارضاته ذاتها دليل على تطور فكر قصيدته، اتضحت فيها شخصيته الفريدة، و أشرق فيها حسه الوطنى ووجدانه القومى"(3)، فكانت معارضاته "استجابة للعنصر النفسى الذى عمق أثره فى نفس الشاعر لشعوره بالغربة و حنينه إلى الوطن"(4).

التزم أمير الشعراء الوزن و القافية، حرفا وحركة إعرابية، و الأسلوب - غالبا - ، والمقاطع الشعرية التى تمهد لقافية البيت الشعرى، و كأنه التزم أيضا باللغة و الجرس الموسيقى، و كان تجديده فى حدود "قانون المعارضات"، فى حرية الانتقال بين الأفكار و الموضوعات و ترتيبها حسب حالته النفسية، و فى تراسل الألفاظ موقعها حسب الجملة التعبيرية التى اختارها لمعانيه(5).

أما البردُّونى، فإنه يلتحم بالشخصية من خلال المعارضة، و يرتكز على نهج المعارضة للانطلاق إلى آفاق الحداثة المطلقة فى كل جوانب القصيدة، ففى معارضته " أبا تمام" التزم الوزن الشعرى والتصريع و حرف القافية، و لكنه غير حركة القافية الإعرابية، من الكسر فى قصيدة أبى تمام إلى الضم، وهذا التغيير يوافق حالته النفسية الهائجة، فالغضب يلائم الرفع والضم، فقوة الاندفاع والضيق يناسبها التفاف الشفتين حول أنفاس الباء، هذا الحرف الانفجارى الشفوى، وتتولد مواءمة أخرى من حالة الرفع بين الأفكار و الموضوع، فقافية الباء المضمومة وافقت الفعل المضارع الدال على استمرارية الحدث و أنه لم ينته بعد، و لذا جاء الفعل المضارع مقطعا موسيقيا فى القافية ست عشرة مرة، و كلها تحمل الدلالة الزمنية ومأساة الاستمرار، ليكتمل مع القافية عنصرا الغضب و الزمن، كما أفاد الضم أيضا فى التحدث عن الغائب أو الغائبين بواو الجماعة، مرة بعد الفعل

---

(1) معجم مصطلحات الأدب: ص ٣٨٩.
(2) خصائص الأسلوب فى الشوقيات:ص ٢٤٩.
(3) د. سالم المحمدانى ود. فائق مصطفى: الأدب العربى الحديث، ص ١١١، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل بالعراق ١٩٨٧م.
(4) نفسه: ص ١١٠
(5) انظر:د محمد الهادى الطرابلسى: خصائص الأسلوب فى الشوقيات: ص ٢٥٠ وما بعدها. وانظر: «الشوقيات» .

المضارع، وثماني مرات مسندة إلى الفعل الماضى الذى أفاد بدوره فى تحقق وقوع ما يغضب الشاعر و يبكيه:

حكامنا، إن تصدوا للحمي اقتحموا … وإن تصدي له المستعمر انسحبوا
هم يفرشون لجيش الغزو أعينهم … و يدعون وثوبا، قبل أن يثبوا
الحاكمون "وواشنطن" حكومتهم … واللامعون ، وما شعوا ولا غربوا
القاتلون نبوغ الشعب ترضية … للمعتدين ، وما أجدتهم القرب (١)

قد بدأ "أبو تمام" قصيدتة بأسلوب التفضيل الذى قطع الحكم للسيف على كتب العرافين وجعل فى حده حسم الأمور العظيمة:

السيف أصدق أنباء من الكتب … فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف، فى … متونهن جلاء الشك والريب (٢)

أما البردُّونى، فقد استهل بالتعجب المشروط: وكأنه يعضد أبا تمام، فوافقه فى مقدرة القوة على الحسم، وخالفه فى إمكان استعمال القوة فى غير الحق، أى أن البردُّونى انتهج أسلوب الترجيح والشرح والتخصيص وهو يعقب على عموم "أبى تمام"، ومما ساعد شاعرنا على ذلك، تميزه باستخدام أساليب الحوار والإقناع، ولقد استخدم "السيف" ليس للتقليد، ولكن لإحداث مفارقة مبدئية مع عصرنا الحاضر الذى غدا فيه السيف رمزاً، ليحل محله وسائل حربية أخرى أشد فتكاً، وبذلك ينقد بطرف خفى هذا الواقع المتخلف، والذى ساندت فيه القوة الباطل، وتباطأت عن نصرة الحق:

ما أصدق السيف ! إن لم ينضه الكذب … وأكذب السيف ! إن لم يصدق الغضب
بيض الصفائح أهدى، حين تحملها … أيد إذا غلبت ، يعلو بها الغلب
وأقبح النصر ، نصر الأقوياء بلا … فهم، سوى فهم كم باعوا وكم كسبوا

ويتصف البردُّونى بحدة فى ترتيب الأفكار، ويتحلى بالتسلسل المنطقى فى تصويرها وتجسيدها وتتبعها فى ذهنه، والإلمام بما تفرزه فى ذهن المتلقى من توليد التناقض؛ فبعد أن ساند القوة استدرك

(١) أبو تمام وعروبة اليوم ١٩٧١م، لعينى أم بلقيس».
(٢) د. طه حسين: من حديث الشعر والنثر، ص ١٠٧، دار المعارف بمصر ١٩٧٥م.

عليها نصر الجاهلين الذى يضر الأمم المنتصرة، ويتبع خيوط الجهل، حتى استولد منها نقيضها، إنه "علم أنصاف بشر"، يجدون فى كل مسلك قذر فكراً يؤازرهم ، وإن تاجروا فى البشر أو دمروا الإنسان باسم العلم وفى باطنه قوة الجهل:

قالوا : هم البشر الأرقى ، وما أكلوا   شيئاً .. كما أكلوا الإنسان أو شربوا
أدهى من الجهل ، علم يطمئن إلى   أنصاف ناس ، طغوا بالعلم واغتصبوا

ولم يلتزم البردُّونى بعدد الأبيات فى قصيدة "أبى تمام" أو بكل القضايا والأفكار التى تناولها، فقصيدة أبى تمام بلغت واحداً وسبعين بيتاً، بينما جاءت قصيدة البردُّونى فى خمسين بيتاً، عالج فيها قضايا معاصرة من خلال إحداث عنصر المفارقة التصويرية بين العرب فى زمنين مختلفين، ويصدع فى بعض أبياته بخلاصة إداركه لتلك المفارقة البعيدة، كقوله:

ماذا ترى يا أ"با تمام" ؟ هل كذبت   أحسابنا ؟ أو تناسى عرقه الذهب ؟
عروبة اليوم أخرى ، لا ينمّ على   وجودها اسم ولا لونٌ .. ولا لقب

ومن تلك القضايا المعاصرة، السلبية العربية فى مواجهة الغازى القديم الجديد، وظهور نبرات الشجب والإعجاب بالخطب الجوفاء، ومن خلال ذلك وصفه اللاذع لحكام العرب الذين دانوا بالتبعية للغرب، كما جسد وطنه اليمن، وكيف يعانى من الفقر والجهل والمرض، واستمرارية امتداح القديم وهو فى واقع أليم يضرب فى الخرافات، ويتناول بعض القضايا الإنسانية الخاصة بينه وبين أبى تمام كشاعرين، كقضية المدح للارتزاق، وتعمد الحكومات تجويع النبغاء من الشعب لإطفاء جذوة الثورة التى تنشأ من الكفاية الغذائية والاستقرار الاجتماعى والصفاء الذهنى للنابغين، وهو فى كل مرة يستولد الأمل لتغيير الواقع، ويحمد له تفاؤله ومشاركته الصادقة لآلام شعبه اليمنى وقومه العرب؛ ويسيطر على القصيدة نوع من الوحدة النفسية العميقة التى تربط بين جميع أفكاره وقضاياه، ويمتزج فيها عنصرا الألم المتفجر بالحزن واستيلاد الأمل، وذلك لكونه من عامة الشعب الذى عانى آلام الحياة وتخلف الوطن والأمة، مما أضفى على القصيدة صدقًا نفسيًا عالياً، على العكس من أمير الشعراء شوقى الذى لم يشعر بالفقر وتبعاته، "إن شوقى لم يعرف الحب، وأغلب الظن أنه لم يعرف الألم، والألم هو ذلك الزاد الإلهى، الذى يفجر عواطف الفنان، وبدونه يصبح الفن، بل تصبح الحياة كلها متعة رخية توحى باللطف والرقة، ولكنها لا توحى

بالعمق والصدق، وما الحب؟ وما الحياة؟ بدون الألم الصادق العميق؟"[1]، فالبردُّونى أكثر التصاقًا بآلام أمته وأصدق حزنًا وإنسانية.

ومن حيث اللغة، استخدم البردُّونى الفصحى الدراجة، تخترق الأحاسيس بعمق دلالتها وسهولة استخدامها، ظللها بجرس موسيقى أقام فيها الأصالة، تهدر بالمعانى الصريحة والمستوحاة فى جرأة شاعرة، فلا مكان للهمس والخفوت، وتلك أصالة انتماء صدقت مع تجربته الشعرية فى هذه القصيدة، "فالأدب العربى قد عرف الأصالة والقوة والوضوح كطابع عام. وليس المزاج العربى موكلاً بالأحاسيس الصغيرة الهامسة، والأطياف الباهتة، والهمسات الخافتة، والحياة ليست مطالبة بأن تحيل الفنون جميعها همساً، لأنها لا تستطيع أن تحيل الطبيعة كلها إلى همسات خافتة، أو حشرجات لاهثة، فالحياة أكبر من ذلك وأعرف بقيمة الأنماط المختلفات، وإن طبيعة الأدب العربى تتعارض مع الشخصيات المهموسة التى لا تجهر، والتى تتردى دائمًا وتتضاءل وتتفانى وتخنس، والتى يتوافر فيها الحنان والحنين فى همس واستخفاء، ولا شك أن الدعوة إلى الهمس وإذاعتها هى جزء من خطة تغيير طوابع الأدب العربى عن أصولها وقيمتها، أما هذا الهمس، فهو مستمد من الآداب الغربية ذات الأصول الإغريقية والوثنية"[2]، لذا نجد شاعرنا يجلجل بلغته القوية المصحوبة بهدير الموسيقى، ليزلزل الضمير العربى الإسلامى الخامل من رقدته، ولا تتفق تلك الجلجلة اللغوية، وهذه الزلزلة الإنسانية، مع الهمس فى إطار الشعر الحر مثلاً، ولكن تتفقان مع استدعاء الشعر العظيم من الأحداث العظيمة، لتفجير كوا من الناس وتغيير مجالات التفكير فى حياتهم، والنهوض بها إلى وصل الماضى العريق.

اختار البردُّونى لغته من مدركات الناس، فاستخدم أسماء التفضيل للمبالغة: أصدق، أكذب، أهوى، أقبح، أدهى، الأرقى، أخزى، أضنى، كما استخدم أسماء الشخوص: أبو تمام، حبيب، الإفشين، المعتصم، قحطان، كرب، وضاح، وأسماء كتب ومدن: الحماسة، وهو الديوان الذى اختار قصائده أبو تمام، صنعاء، اليمن، الموصل، عمورية، حيفا، النقب، وأسماء أجنبية: واشنطن، الميراج، كما مال إلى استخدام أفعال المطاوعة، التى تعتمل فى ذهنه صوراً مستقلة: ينتسب، ترتقب، يقترب، تنتحب ، ينسكب، أغترب، تكتئب، تعتجب، تلتهب، وقد لا يحتاج القارئ إلى المعجم لسهولة معانى كلماته، غير اليسير مثل: ينضه بمعنى يخرجه.

---

(1) كتب وشخصيات: ص ١٤٣، من مقارنة الأستاذ سيد قطب رحمه الله بين شوقى وعزيز أباظة.
(2) أنور الجندى: خصائص الأدب العربى،، فى مواجهه نظريات النقد الأدبى الحديث،ط١،ص ٣٥٠، ٣٥١، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٧٥م.

ومن حيث الأسلوب، فقد مزج بين السرد والحوار وتفجير "المونولوج الداخلى" وعمد إلى الأساليب الإنشائية، كالنداء والاستفهام والتعجب والنفى من خلال الحوار، ويستولد من الأحداث أسلوب الطباق والمقابلة والمفارقة، وهو فى عرضه لشعره كأنه يجيب على أبى تمام بالنفى من خلال معارضته، ليحدث المفارقة والتحول فى العلاقة التصويرية، يقول أبو تمام:

إن الأسود ، أسود الغاب هِمّتها ... يومَ الكريهة فى المسلوب لا السلب

يرد البردُّونى نافيا وموضحا:

ماذا جرى ؟ .. يا أبا "تمام" تسألنى ... عفواً ساروى ، ولا تسأل ، وما السببُ
يدمى السؤال حياءً حين نسأله ... كيف احتفت بالعدى "حيفا" أو "النقب"
من ذا يلبى ؟ أما إصرار "معتصمٍ"؟ ... كلا ، وأخزى من "الإفشين" ما صلبوا
اليوم عادت علوج الروم فاتحة ... وموطن العرب المسلوبُ والسلب
"تسعون ألفاً "لعمورية" اتقدوا ... وللمنجّم قالوا : إننا الشهب
قيل انتظارُ قطاف الكرم ما انتظروا ... نضج العناقيد ، لكن قبلها التهبوا
واليوم تسعون مليوناً وما بلغوا ... نضجاً ، وقد عصر الزيتون والعنب

ويستخدم الموروث لتأصيل قصيدته ولتخدم الشخصية الموروثة طرفى المفارقة التصويرية، مثل: المثنى بن حارثة الشيبانى قائد معركة القادسية، والمعتصم الخليفة العباسى ٢١٦هـ : ٢٣٢هـ، والإفشين: حيدر بن كاوس الإفشينى، قائد جيش المعتصم، خانه وغدر به، فأحرقه الخليفة المعتصم، وبابك الخرمى، صاحب مذهب إباحى سنة ٢٠١ هـ، يستبيح فى جوهره كل محظور، قضى عليه وعلى أتباعه "حيدر الإفشينى" قائد المعتصم(١)، ويجرى الحوار مع أبى تمام، مناديه باسمه، أو بكنيته.

لقد استطاع البردُّونى من خلال هذه المعارضة أن ينقل الواقع المر إلى عالم أبى تمام على سبيل الشكوى واستنطاق الماضى المشرق واستيلاد الأمل من خبرة الماضى، وذلك فى آخر بيت من القصيدة حيث عجزه من بيت لأبى تمام "إن السماء ترجى حين تحتجب" فهذا التضمين ساعد بقية الوسائل على تحقيق أهداف الشاعر، ومنها: اختيار العنوان "أبو تمام وعروبة اليوم ١٩٧١م". حيث مهد لجو المفارقة الزمانية والمكانية والتصويرية، كما جاءت القصيدة نفسها استلهامًا للتراث الأدبى

---

(١) الأستاذ العقاد: أبو نواس،ص ١١٤.

المشع بعوالم زاهية في الفنون والحروب والسياسة والعلوم، فهي من المعارضات الإبداعية المتميزة، كما استخدم البردوني عدة أشكال وأساليب خلقت امتزاجًا روحيًا ونفسيًا بينه وبين أبي تمام، ثم بينهما وبين المتلقي: التصريع والوزن والموسيقى والقافية والحوار والسرد والتضمين، ومشاركة الشاعر لأبي تمام قضايا إنسانية خاصة، كقضية المدح والارتحال والعلاقة بالوطن والعبقرية المبكرة قبل الأربعين، فقد توفي أبو تمام وعمره ثمانية وثلاثون عامًا بعد عمر مفعم بالإنجازات العظيمة، بينما يرى شاعرنا البردوني تواضعًا أنه في نهاية فنه لم ينجز مثله وقد تجاوز الأربعين بقليل.

ويعارض المتنبي في نونيته الشهيرة:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا

وتولوا بغصة كلهم منه ، وإن سر بعضهم أحيانا (١)

هذه القصيدة التي ترث عن المتنبي العظيم تأملاته الكونية في الحياة والإنسان، عن تجربة ومعاناة ومراس، وهي صوت فريد جاء خلاصة لا متزاج المتنبي بالفكر الإسلامي المستنير، الذي تغلغل فيه قناعة بعد خبرة، وهي أيضا خلاصة إدراكه لموكب البشر في ديمومة الزمن، مما يوحي برهافة حسه تجاه التاريخ والأحداث العظيمة، فالمتنبي يرى في هذه القصيدة، "أن الثروة عابرة، ككل شيء إنساني، ومهما تشبثت أيدينا بالحياة، فإن الحياة سوف تفلت من بينها، فالموت ينتظرنا لا يرحم، ويأتي في اللحظة المحتومة، طال العمر أم قصر، مالنا حقًا هو الشرف، وبوسعنا أن نبقى عليه"(٢)، من هنا يعارضها البردوني، التماسًا لدفء المتنبي خلالها، فقد عانى البردوني تقلبات الإمام وسلبيات الشعب إزاء جبروته، ويرجع ذلك إلى الهوى الذي غلب على عقول الناس ومنطقهم، ويتمثل هذا الهوى في استحلال الخطايا وركوب الغرور، فبينما يرجع المتنبي إلى الزمان كدر الحياة والشرور، في إطار شمولية الزمان، يفصل البردوني ويرجح ويختار السبب المباشر وهو "الهوى"، ويرى أن العلاج في تغليب العقل والهدى على اتباع الهوى:

لو تسامت عقولنا عن هوانا لهدينا الهدى وقدنا الزمانا

لو كبحنا غرورنا لملأنا من عطايا الوجود وسع منانا

فعطايا الحياة أوسع من آمال أبنائها وأسخى حنانا

لو ملكنا الهدى لما سلّ كفٌّ خنجراً راعفاً وأدمى سنانا

نحن لولم نكن أصولَ الخطايا ما رأينا ظلالَها في سوانا

---

(١) ديوان المتنبي، ص ٤٧٤، دار صادر، بيروت ١٩٦٤م.

(٢) إميليوغرسيه غومث: مع شعراء الأندلس والمتنبي، سير و دراسات، ص٤، ص ٢٦، تعريب الأستاذ الدكتور: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٥م.

فهذه الأبيات رد وتفسير لإجمال المتنبى:

ربما تُحسنُ الصنيعَ لياليهِ ولكن تكدر الإحسانا
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى

وكون البردُّونى ينطلق من إطار المعارضة الأسلوبية إلى عالمه الحر المستقل، فيفصل ويرجح ويفسر ويجدد فى تناول الأفكار والموضوعات، فإنه يسلك بالمعارضات مجالات الحداثة الأسلوبية والموضوعية، وينأى بالموروث عن مجاهل التقليد والتبعية؛ لأن المعارضة هنا تستشرف عالمًا جديداً، هو أقرب إلى توظيف عيون الموروث الأدبى فى قضايا معاصرة، استلهامًا وكشفًا للرؤى ضمن وحدة إنسانية راقية، منه إلى التقليد والتقيد بالقديم، والمعارضة بذلك تفتح بأبا من الإبداع للإبداع والالتحام فى ركب الإنسانية العميق، الذى يتجاوب فيه ملكات الشعراء تصويراً لجوانب حياتهم، حتى يستضىء بها جيل بعد جيل، فإذا كان شوقى فى معارضاته «بعيدًا عن التقليد الخالص والتقليد الأعمى بمعانى القدماء وأخيلتهم»[1] فإنه التزم بكثير من مقاطعهم التى تمهد للتصوير والقافية، رغبة فى المحاكاة وإثبات المقدرة،[2] أما البردونى، فقد ارتكز على بنية المعارضة كمدخل إلى توظيف الشخصية الأدبية الموروثة والقول الأدبى فى تجربة معاصرة، وجاءت لغته وأساليبه وصوره جديدة تماماً، لا يدل على المعارضة إلا الإطار الموسيقى وطيوف يحركها الشاعر فى خيال المتلقى من خلال الحوار والمفارقة والتناقض والطباق، من خلال الشرح والترجيح والتفصيل.

وقد يدفع البردُّونى إلى المعارضة، أساه الدفين على وطنه اليمن من خلال شخصيات اليمن التى ذابت فى ديار الخلافة الأموية مغتربة عن جذورها اليمنية، كمعارضته أربعة أبيات للشاعر اليمنى «يزيد بن مفرغ الحميرى (ت ٦٩هـ).. فى هجاء البيتين "السفيانى والزيادى":

الا أبلغ "معاوية بن صخر" مُغَلغلةً من الرجل اليمانى
أتغضبُ أن يقال : أبوك عفٌّ وترضي أن يقال : أبوك زانى
وأُقسم أن رحْمَك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت "زياداً" و"صخر" من "سمية" غيرُ دانى[3]

---

(١) حنا الفاخورى: تاريخ الأدب العربى،ص ٩٨٦

(٢) انظر: خصائص الأسلوب فى الشوقيات:ص ٢٤٩.

(٣) عبد الله البردونى: رحلة فى الشعر اليمنى،ط٤، ص ٢٦، دار العودة، بيروت ١٩٨٢م / وانظر: لسان العرب: ص ٢٨٣٧ وما بعدها مادة «عدس» وانظر الأدب العربى للدكتور: عمر فروخ، ص ٤٢٨.

اعتمد البردُّونى فى معارضته الأبيات الأربعة على سيرة الشاعر يزيد كما صورها - بكثير من المبالغة والتهويم - الأصفهانى فى "الأغانى "، فقد ذكر أنه سقى "المسهل" وحمل على بعير يطوف به أسواق البصرة، بأمر من عبيد الله بن زياد والى البصرة لمعاوية بن أبى سفيان، فجعل عبيد الله خلفه خنزيرا وكلبًا ينهشانه كلما أسهل، وواضح أن التصوير يثير الشفقة والاستعطاف، كما يثير السخط على بنى أمية، وهو مراد الأصفهانى، وقد نفى الأستاذ "عمر فروخ" هذه الرواية التى جنحت عن الحق[1]، بل رأى أن الأبيات الأربعة ليست ليزيد بن مفرغ"، بل "لعبد الرحمن بن الحكم". استناداً إلى ما جاء فى لسان العرب[2] وتاريخ الطبرى[3] والبداية والنهاية لابن كثير[4]، وقد جاء فى اللسان أن "معاوية" لما استقدم إليه الشاعر "يزيد" بعد طلب "يزيد" العفو من "معاوية" عن قوله فى عباد بن زياد والى سجستان من قبل معاوية:

ألاليت اللحى كانت حشيشا فنعلفها خيول المسلمينا

استبرأه معاوية من الأبيات الأربعة السابقة، وبرأ يزيد ساحته منها، وأخبره بأنها لعبد الرحمن بن الحكم أخى مروان، فقطع عطاءه عنه، وليس لشاعر مثل يزيد مقطوع العصبية والوطن أن يستعدى الخليفة عليه.

لقد تأثر البردُّونى بمشهد تعذيب "يزيد" كما جاء فى الأغانى، وجاءت معارضته المطولة والتى بلغت تسعة وثمانين بيتًا مفعمة بالحزن والحنق على بنى أمية، ويحول المشهد المفجع إلى مشهد لسقوط بنى أمية:

وأسمع زفة ، هل ذاك عُرسى ؟ أدفنى؟ أم سقوط من ازدرانى؟
أتمشى فى جنازتها قريش ونزعم أنها قصدت هوانى؟
أألخزانى الخليفة أم تدنى لكى يفنى ، وأعتنق التفانى ؟ [5]

والبردُّونى فى هذه القصيدة المطولة خرج لغة وأسلوبًا وتصويراً عن مضمون المعارضة، فوظف شخصية الشاعر "يزيد بن مفرغ الحميرى" فى قضايا معاصرة، يواجه من خلال شجاعته المميتة

(١) انظر: د. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربى، ج١. ط٣، ص ٤٢٧، وما بعدها، لبنان، بيروت.
(٢) لسان العرب: مادة «هدس»، ص ٢٨٣٧، دار المعارف بالقاهرة.
(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى (٢٢٤ - ٣١٠)هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، ج٥، ص ٣٦٧: ٣٢١، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.
(٤) الجزء الثامن، ص ٩٥، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٧٧م.
(٥) «تحولات يزيد بن مفرغ الحميرى، بلا تاريخ، ترجمة رملية لأعراس الغبار ١٩٨٣م».

صعاباً، ولكنها بالنسبة لما واجه مع بنى أمية تعتبر ضئيلة تافهة، هى أخطر بتهافتها من تلك الشجاعة، وذلك لتحولات الزمن والأحداث وتغير الناس ومفاهيمها تجاه معنى الشجاعة والمواجهة.

هـ - التضمين :

والتضمين أيضًا من خصائص الأسلوب التى تتيح للبردونى أن يتحد مع الشخصيات التراثية بصفة غير حلولية؛ لأنها تكون كالضيف الحكيم، يقتبس منه شعراً بلفظه ومعناه[1]، مع شىء من التقديم والتأخير الذى يبرز مدى تأثر الشاعر بالمقتبس، وهنا يختلف التضمين عن استخدام الموروث، وإن كان التضمين جزءاً من الموروث فى بعض حالاته، فشاعرنا حينما يضمن شعره شيئًا من شعر السابقين، فإنه لابد "يمعن فى التأمل بمصير الإنسان، ويقف طويلاً أمام الموت الذى يودى بكل شىء"[2]، فينسج من التضمين خيوطًا روحية موصولة بالماضى، تشف عن نزعة تأملية ووحدة نفسية، ويكون قد اتحد مع سابقيه فى تجربته الفنية. إيماء بوحدة التجارب وتلاحم المبدعين فى صيرورة الحياة، ويكون قد زاوج أسلوبين للتعبير عن التجربة، السياق الذى اندفع فيه التضمين، والتضمين نفسه بلفظه ومعناه "فما دامت التجربة ليست ألفاظًا وجملاً، بل هى شىء خارج عن الألفاظ والجمل، فإن الألفاظ إشارات ورموز، وقدرتها على الرمز تتوقف على تنبيه ملكة الخيال فى الناس، ولذلك يلجأ الأدب إلى استخدام مختلف القوى التى تستطيع بها الألفاظ التأثير فى الأفهام"[3]، فالتضمين قوة لفظية تصويرية مركزة، ينفذ بها البردونى إلى مشاعر المتلقى فى سرعة خاطر وحضور بديهة، لأنه استخدم التضمين فى أسلوب الحوار الذى يحتاج إلى قدرة على الرد فى مهارة ولياقة وإفحام، إذا فوجئ المحاور بسؤال، وهذه صفات يتمتع بها الخطيب السياسى"[4] والشاعر المثقف كشاعرنا الذى ازدان بها فى مشاداته الجدلية السياسية مع السلطة الحاكمة التى تترصد له الأخطاء، ففى حواره مع "المحقق" يلقى بخلفية صوتية غنائية، هى من صميم الموقف، تلخصه وتنذر منه، رغم مسالمته الساخرة الهازئة :

ومـاذا عن الثوار ؟ حتمـاً عرفتـهم	نعم ، حـاسـبوا عنى ، تغـدّوا بجـانبى
ومـاذا تحـدثتم ؟ طـلبتُ "سـيجـارة"	أظنّ "وكـبـرتيـا" بـدوا من أقـاربى
ومــاذا ؟ وأنســانـا الحكايات منشـد	"إذا لم يسـالمك الـزمـان فـحـارب" [5]

---

(١) معجم: مصطلحات الأدب: ص ٦٥١.

(٢) انظر: حنا الفاخورى: الحكم والأمثال، ط٢، ص٦٨، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٩م.

(٣) انظر: محمد أحمد عنبر: قضية الأدب بين اللفظ والمعنى،ص ١٩ وما بعدها، دار الكتاب بمصر١٩٥٤م.

(٤) انظر: د. أحمد محمد الحوفى: فن الخطابة،ط٤، ص ٦٩، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة ١٩٧٢م.

(٥) «سندباد يمنى فى مقعد التحقيق ١٩٧٥م، وجوه دخانية..»

فعجز البيت الثالث من قصيدة تغنى فى اليمن، تتمثل بيت أبى تمام فى مدح الحسن بن سهل:

وكنت امرءا ألقى الزمان مسالمًا فآليت لا ألقاه إلا محاربا[1]

فالشاعر يقتبس الشعر؛ لقدرته على اختراقه الحواس البشرية بإشعاعاته العميقة المكثفة؛ فالشعر "من أصول الثقافة، وكان ولا يزال تأثيره فى نفوس الناس بعيد المدى، وكانت هناك عوامل عدة قد اجتمعت، فنهضت بالشعر نهضة عظيمة"[2]، حتى غدا مصدراً للعلوم، كالتاريخ والحضارة والاجتماع، ومساراً لرصد تحولات الأمم، من تفجر النفس الإنسانية بطبائعها المختلفة، وشاعرنا يلجأ إلى التضمين. عندما يشتد غضبه من كبت الحريات، ويتيقن من حتمية الموت إذا واجه الظلم، ليزدوج تناول التجربة، ويأنس بصوت آخر، له سبق الزمن ، وريادة المصير نفسه،:

"الا ليت اللحى كانت حشيشًا فأعلفها تناوير اضطغانى[3]

فهو يصدع بهذا الصدر متمثلاً صاحبه اليمانى "يزيد بن مفرغ الحميرى" (ت ٦٩ هـ)، والذى فقد حياته ثمنا لهذا البيت:

ألا ليت اللحى كانت حشيشًا فنعلفها خيول المسلمينا

فقد قاله لما نفشت الريح لحية "عباد بن زياد بن أبيه "وهما فى طريقهما إلى "سجستان"؛ ولاية من معاوية إلى عباد[4]

وفى القصيدة ذاتها يستخدم التضمين. بقصد إثارة الاستنكار والرفض لاعتلاء الماجنين المبغضين سلطة الحكم. إنكاراً لفضل من يستحقها، وإعمالاً لقتل الشرفاء وتشريد المجتمع:

فتى "مرجانة" أضحى أميرًا "دعوا جر الذيول على الغوانى"[5]

ففتى مرجانة هو عباد بن زياد السابق، وأخوه عبيد الله بن زياد والى العراق ليزيد بن معاوية، والذى أمر بقتل الحسين رضى الله عنه وآل البيت وإرسال رؤوسهم إلى يزيد الخليفة بدمشق، والبردونى بذلك التضمين يستلهم مأساة نساء آل البيت وأطفالهن بعد فظاعة "كربلاء" حيث

---

(١) ديوان أبى تمام: شرح وتعليق د. شاهين عطية: ط١،ص٢٢، بمكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبنانى ١٩٦٨م.
(٢) فن الخطابة: ص ٢٤٨.
(٣) «تحولات يزيد بن مفرغ الحميرى، ترجمة رملية لأعراس الغبار».
(٤) انظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربى، ج١،ط٣،ص٤٢٧، بيروت ١٩٧٨م. وانظر :لسان العرب لابن منظور: ص ٢٨٣٧ مادة «عدس»
(٥) تحولات يزيد ،، ترجمة رملية».

اقتدن إلى الوالى عبيد الله (فتى مرجانة) بالعراق، ثم إلى الخليفة بدمشق فى ثياب بالية، خضبت بدم الحسين وأولاده وشباب آل البيت الشهداء[1]. فعجز البيت من بيت لعمر بن أبى ربيعة، من ثلاثة أبيات فى قتل مصعب بن الزبير "عمرة" زوجة المختار بن أبى عبيد":

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول [2]

ويأخذ التضمين شكلاً آخر فى شعر البردُّونى، فقد يضمن شعره أسماء شخوص كاملة، وأسماء كتب، ليحاكى واقعية الحوار، وليبث المتلقى الحالة النفسية التى تنتاب العامة عندما يتحدثون عن شخصيات تثير الحكومات:

قيل عن "م.ن" اضحى مهيلا هل تحرّيتَ أنت ؟ ما نفع قيلاً ؟
اشترى مرةً أمامى كتاباً اسمه "كيف تقهرُ المستحيلا" [3]

وفى حواره مع المحقق يذكر العمر والاسم:

أجب، لا تحاول، عمرك، الاسم كاملا ثلاثون تقريبا، "مثنى الشواجبى"[4]

ففى البيت إسقاط للفواصل ومحاكاة للحوار بدقة، مع اختلاف أساليبه بين الأمر والنهى والاستفهام والتقرير، ويزيد المحاكاة بتضمين الأسماء.

وفى قصيدته ذائعة الصيت "أبو تمام وعروبة اليوم ١٩٧١م، من ديوانه: لعينى أم بلقيس"، يضمن معارضته لأبى تمام بشطر بيت لأبى تمام من قصيدة أخرى غير التى يعارضها، هذا الشطر المضمن هو مبعث الإبداع فى القصيدة؛ لأنه مبعث الأمل فى ضمير الشاعر، ومسار تفاؤل يخفف من آلامه لظلام حاضر الأمة الذى ينبئ عن مستقبلها:

الا ترى يا "أبا تمام" بارقنا "إن السماء ترجَّى حين تحتجب"

فعجز البيت من بيت لأبى تمام فى مدح وعتاب عبد الله بن طاهر:

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملاً إن السماء تُرجَّى حين تحتجب[5]

---

(١) انظر: محمد رضا: الحسن والحسين، سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ط٢،ص ٤٢، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، القاهرة ١٩٦٤م.
(٢) ديوان عمر بن أبى ربيعة: ص ٣٣٨، دار صادر، بيروت ١٩٦٦م.
(٣) «المحكوم عليه ١٩٧٥م، وجوه دخانية ..».
(٤) «اسندباد يمنى فى مقعد التحقيق ١٩٧٥م، وجوه دخانية ..».
(٥) ديوان أبى تمام: شرح وتعليق د. شاهين عطية،ط١ ،ص ١٨ ، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٦٨م.

و- الوحدة العضوية :

وهى أهم خصائص البردُّونى الأسلوبية فى بناء قصيدته على الإطلاق؛ لأنها وجه الحداثة والتجديد الذى تتجلى فيه إبداعاته فى مجالى اللغة والأسلوب، والوحدة العضوية قرينة نتاجه الفنى على اختلاف مراحله، إن توفيقًا وإن إخفاقاً، ويأتى حرصه على الوحدة من عمق إدراكه لماهية الشعر الحديث، وإن أبقى على الشكل الموروث فى كل نتاجه الشعرى، وإيمانًا منه باستيعاب ذلك الشكل التراثى أبعاد التجربة الفنية المعاصرة، وعنصر الوحدة أيضا دليله وسيفه فى مواجهة اتهامه بالتقليد، ليجمع إلى الأصالة التراثية المقتدرة أصالة الحداثة المتفردة، فكأنه كان يعلم أن من النقاد المحدثين من سيحكم على كل شكل شعرى موروث بالتقليد، أو بالوحدة الفارغة، أو بالوحدة الشكلية الخارجية، يقول الأستاذ الدكتور محمد النويهى: "فإن كنا نسامح القدامى على خلو إنتاجهم من الوحدة العضوية، فإننا لا نسامح شعراءنا المقلدين فيما يجترمون من شناعات التبدد والتشتيت، ولكن ماداموا يتخذون الشكل القديم فإنهم يكتفون بما تكسبه القصيدة من وحدة شكلية خارجية، ولا يلتفتون إلى تنمية الوحدة العضوية، أما الشعراء الجدد فإنهم حين طرحوا تلك الوحدة السطحية، انتبهوا إلى وجوب تنمية الوحدة العضوية"(١)، ويستجلى طبيعة هذه الوحدة "لا تحجز الشاعر عن تعدد التجارب والعواطف فى قصيدته، إنما يشترط أن تكون جميعها متجانسة المغزى، هادفة بتعددها إلى استجلاء وحدة فى الوجود أو فى موقف النفس البشرية منه"(٢).

والحق أن هناك موقفًا مسبقًا يسيطر على بعض النقاد عند تعرضه لشاعر يؤثر الشكل الموروث، ويكفى الحكم عليه بأنه شاعر تقليدى، وقد يرون أن عناصر التقليد أكثر بروزًا فى شعره من الوثبات الإبداعية الحديثة، وحينماينصف ذلك الشاعر، توسم عمليته الفنية المبدعة، وتجربته النفسيةالدافعة بالجمود، إذ يطلق عليها "الصب فى قوالب جاهزة"، مجرد عمل ديناميكى ينأى عن الخلق والتكوين والتشكيل والإقناع، يقول الدكتور محمدمندور فى استعراضه الصراع بين الجديد والقديم ناصحا "التقليديين": إن صب أفكار جديدة فى قوالب قديمة، يتطلب بالضرورة الايستمد الشاعرالتقليدى أو الكلاسيكى الجديد هذه المعانى والأحاسيس من ذاكرته ومحفوظه، بل يستمدها من نفسه، ومن واقع حياته الاجتماعية، على تغليب فى هذا المصدر أو ذاك، وفقا لمحاور

---

(١) د. محمد النويهى: قضية الشعر الجديد، ط٢، ص ١٠٨، دار الفكر ١٩٧١م.
(٢) نفسه: ص ١٠٩

اهتمام هـذا الشاعر أو ذاك"[1]، وجمـيل هذا الاستمـداد، ولكن عملية صب المعـانى فى القوالب القديمـة، تصيب نظريات الأسلوب الحديثـة بالشلل، باعتبـار أن الاسلوب "اختيـار المؤلف لبعث إمكانات الصيـاغة اللغوية"[2]،فالاخـتيـار عالم رحيب، تـتجاوب فـيه ملكات الشـاعر العظيـمة وثقافتـه،وهومايتعارض وعـملية الصب، التى تعنى اختـيار الشاعر لقـالب من قوالـب قليلة،يلائم دوافعه الفنية ومعانيه وأهدافه، وهنا يتفـوق الشعر الحر المرسل لأنه لايقوم على قالب جامد، والحق أن الإبداع لاينقصه حرية، بقدر ماينقصه ملكات عظيـمة، تؤمن بضخامة الجوانب الفنية فى شعرنا العربى، وبالحرية المتاحة فى شعرنا الموروث، لأن الشعر الحر أيضا ،له ضوابط وقيود، ولو استولد منه شكل آخر، لكان له قـيود أخرى، فالتـمايز يأتى من القدرة على تطويع الموروث العظيم لـيأخذ وجه الحـداثة، وليس استـخدامه صبـاً، لأن هذه الصفـة ينتفى مـعها النطق بشـاعرية شـاعر متـفرد الأسلوب؛ لأن الأسلوب أيضـا "محصلة مـجمـوعة من الاختـيارات المقـصودة بين عناصـر اللغة القابلة للتبادل"[3]، والشاعر يتيه بين تلك الاختيـارات فى عالميه النفسى والأسلوبى، حتى يستطيع أن يختار مجـالا يتيح له توصيل المقاصد الجمـالية على بواعث خاصة، "واختـيار موضوع الكلام، والشفرة اللغويـة: اللهجة أو اللغة، واختيار مـادة البناء النحوية والصيغ المختلفة، واخـتيار إمكانية تعبير متـعادلة دلالياً، فيتجاوز الأسلوب بذلك كونـه من مظاهر الكلام إلى كونه انطلاقًا من نشاط المؤلف الخلاق"[4] الذى استخدم بدائل معينة يراعى فيـها "البنية الصوتية والإيحاء الخاص[5]، كما أن عملية الصب تتعارض أيضا مع مفهـوم الدور النفسى فى الإبداع، "فكل عمل فنى، فعل وتعبير لإرادة مبدعة"[6]، هذه الإرادة، هى التى تتخير شكلاً دون آخر، وترتقى للكمـال من التخير، وكمال التخـير يناقض التقليـد،والشكل الموروث له سابق خبرة مـع شعراء عظماء فى الماضى والحـاضر، وماكان دليـلاً على ضعف إبداعهم أو تقليدهم، بـل كان قمة إبداعيـة تعبيرية استـوحوها، تنهض معادلاً للأبعاد النفسية والفنية والإنسانية التى اعتملت فى صدورهم وأذهانهم.

والبردُّونى ممن آثر الأصيل الموروث، فجاءت كل قصائده على أبحر الخليل؛ وإن عدد القوافى فى بعض قصائده تبعا لتعدد المقاطع ؛ وشغف بالتصريع، ولكن فى كل قصيدة غير وجدانية وحدة

---

(١) د. محمد مندور: الشعر المصرى بعد شوقى، ج٣ روافد أبو للو، ص ١٠٦، دار النهضة مصر، الفجالة بالقاهرة.
(٢) د. صلاح فضل: علم الأسلوب،ص ٨٧.
(٣) نفسه: ص ٨٩.
(٤) نفسه: ص ٩٠.
(٥) نفسه: ص ٩٠.
(٦) د. مصطفى سويف: الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة،ط٣، ص ٢٦، دار المعارف ١٩٧٠م.

يرعاها؛ تجانس بين اللغة والتراكيب والمعنى والإيقاع، بل إن له قصائد تحققت فيها الوحدة العضوية بمعناها الرمزى العميق؛ "فالرمزيون ينتقلون أحيانا فى قصائدهم من فكرة إلى فكرة على أساس الإحساس والشعور النفسى، مع ضعف الرابطة المنطقية بين الفكرتين ، على حرصهم مع ذلك على الوحدة العضوية فى مجموع القصيدة "[1] واختار البحث قصيدة الشاعر" شعب على سفينة ١٩٦٦ م، من ديوانه : مدينة الغد" للاستدلال على مدى تحقق الوحدة العضوية :

كـهـودج من الضـبـاب — من الطيـوف والسـراب
تزفـه سـفـيـنة — من الضـيـاع والتـراب
ومن تـخـيـل الـغـنى — ومن تـلهف الرغـاب
ومـن حـكـايـا العائـدين بالحـقـائب العـجـاب
المتـخـمـات بالحلى — وبالعطور والثـيـاب
وبالجـيـوب تحـتـوى — دراهـمـاً بلا حـسـاب
لما أتوا، تـلـفـتـت — حـتى القـصـور والقـبـاب
حـتى السـهـوب والقـرى — حـتى الكهـوف والشـعـاب
وكل صـخـر عندنا — وكـل شـارع وبـاب
ورغـم خـوفـه مـضـى — من غـربة إلى اغـتـراب
حـشـاه ملجـأ الطـوى — عـيناه مـرفـأ الذبـاب
عـلى الفـراغ يـنـتـدى — وينتـهـى دجى العـذاب
ومـأرب تـسـاؤل — مـتى يـعـود؟ وارتـقـاب
"وحـدة" مـخـاوف — ومـوعـد عـلى ارتـيـاب [2]
" أينـثـنـى" ؟ فـيـنـثـنى — إلى المزارع الشـبـاب؟
ومـقـلـتـا " سـمـارة" — جـوى و"مـيـتم" عـتـاب
يـعى لـهـاث ربـوة — تعـد أشـهـر الغـيـاب
وتـشـرئـب ربـوة — إلى مـحـاجـر الشـهـاب
تـهـز نـهـدها إلى — مـسـافـر بلا إيـاب

---

(١) د. محمد غنيمى هلال: النقد الأدبى الحديث، ص ٤٠١، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٣م.

(٢) حدة، ومأرب، سمارة، وميتم: مصيف فى صنعاء، وحقول واسعة، وجبل فى «إب» ونهر فى «إب».

تحطه جـــزيـرة — ويـرتمى بـه عــبــاب
مــســافــر أضنى الـســرى — وراع غــيــهب الـذئـاب
وأقـلـق الـحـصـى بـلا — مـدى، وأجـهـد الهـضـاب
من قــارة لـقــارة — يـجـوب أرحب الرحـاب
وهـو على عـيـونـهـا — تـسـاؤل بـلا جـواب
فـيـنـحنى ، ويـبـتـنى — لـهـا نواطح الـسـحـاب
يـضـيـئـهـا ولا يـرى — يـشـيـدها، وهـو الخـراب
يـعـيش عـمـره على — أرجـوحـة من الحـراب
أيـامـه سـفـيـنـة — جـنـائـزيـة الـذهـاب
تـزفـه إلـى الـنـوى — كـهـودج من الضـبـاب

يلمس البردُّونى مسألة الاغتراب عن الوطن لضيق الرزق، وهى مسألة ذات أبعاد إنسانية اجتماعية، وأبعاد سياسية عامة ، وأبعاد نفسية سحيقة، ولدت فى عالمنا العربى يوم ضخ النفط فى أوائل الستينات، حينها فرض على الإنسان العربى خارج النطاق النفطى نوع من العنصرية ، المتمثلة فى فكرة الوطنية المستقلة، وهى سلم أدنى من فكرة القومية العربية، وهذه أدنى من الوحدة الإسلاميةالتى تهاوت على إثر الضغوط الاستعمارية والتحررية، وقد لا يجانب هذاالإنسان الصواب، عندما ينظر إلى مسألة الاغتراب داخل العالم العربى بوصفها عنصرية خلفها الاستعمار وأبقت عليها خيبة العرب، وسيتوالد منها حتمية الصراع العربى، وحتمية الفقر والجهل والتخلف لدى بعض الشعوب أو معظمها، ولا شك أن هذا الموضوع حديث الوجود؛ لأنه يحمل « مضامين بشرية صادقة مستمدة من الحياة.. وماالموضوعات والأغراض إلا أوعية تصب فيها تلك المضامين التى يجب أن تكون هى محك حكمنا على التقليد أو الأصالة»[1] ولا شك أيضا أن هذه المسألة متعددة التجارب والعواطف، قد حاول الشاعر بثها فى قصيدته «متجانسة المغزى، هادفة بتعددها إلى استجلاء وحدة فى الوجود، أو فى موقف النفس البشرية منه»[2] إنها وحدة الإنسان مع جنسه البشرى، ومع ذاته المعقدة، ومع الطبيعة الصامتة التى يتفاعل معها فى وطنه، والطبيعة المتحركة التى تضفى عليه من صفاتها، طبقا لقوانين الحياة، وإيغال العقيدة أو المبدأ أو التقاليد فى كيانه، فقد

---

(١) الشعر المصرى بعد شوقى:ص ١٠٦

(٢) قضية الشعر الجديد: ص ١٠٩.

ينساق إلى الاغتراب بوخز الضمير، أو يظل يصارع آلام الوطن الحبيب ، ولاشك أيضا ، أن البردُّونى استطاع أن يجعلنا نؤمن معه بوحدة الموضوع رغم تعدد صوره، وبوحدة القصيدة لا بوحدة البيت، بل أصبحنا نؤمن معه بمذهب علم النفس الذى يرى «أن القصيدة تتألف من وثبات لا من أبيات»[1] .

والقصيدة صور ثلاث: الأولى تسعة أبيات، بدايتها عنوان القصيدة" شعب على سفينة"حيث يحتشد فى الذهن تداعيات الرحيل والإبحار والقلق والتوتر لكثرة الراحلين، وتتحرك الرحلة فى عالم التجريد؛ لأنه الأقرب إلى حلم الشراء فى أحلام اليقظة المتاحة لهؤلاء الراحلين ، فالرحلة ضباب لأنها مجهوله النهاية، وطيوف لأنها موصولة بحلم أثير، وسراب لأن هدفها صعب التحقق، يقلع بها مصير الإنسان الهارب مخلفا إحساسه بالضياع وماضيه الفقير فى موطنه "التراب" والشاعر بهذه المقدمة الغائمة قد بث إحساس الرهبة الذى يعتمل فى ذهن الراحل ، ثم يلتحم فى هذا الذهن المستقبل المنشود والرحلة التى بدأت مخيفة ، فمن البيت الثالث إلى البيت التاسع، يخلط الأمل بمادة الواقع، ويستمد منهما لغته : الغنى، الرغاب، حكايا العائدين بالحقائب، الحلى والعطور والثياب، الجيوب والدراهم، وفى بيته السابع يظلل البردُّونى هذه الصورة المرئية " بالمونولوج الداخلى"، الذى يرتد بالذاكرة إلى الحكايا عن العائدين ؛ لقد لفتوا الأنظار، ودهشت بهم الأشياء العظيمة وغيرها: القصور والكهوف والشوارع والأبواب، وبنهاية هذه الصورة ، يكون الشاعر قد جسّد المجاهل المستسّرة فى خيال المسافر، الخوف من المستقبل، والضيق بالحاضر ، والطموح المتواضع لتغييره، والتأثر بثرثرات المجتمع عن الغربة الساحرة، وكانت عدته فى الرصد والتصوير : التجريد، واللغة الفصحى الدارجة، وأخيرا المونولوج الداخلى .

والصورة الثانية: تتألف من عشرة أبيات ، يستهلها الشاعر بإثارة شعور الخوف الذى بثه ببداية الصورة الأولى، والذى يسبق اتخاذ القرار، ولم يحل الخوف دونه " ورغم خوفه مضى" استقل المسافر سفينة الاغتراب، هاربا من غربته فى وطنه، فهى الدافع؛ لقد كان جائعا، ومذموما منعزلا؛ لفقره ومرضه " حشاه ملجأ الطوى، عيناه مرنأ الذباب" نهاره فراغ مقيت، وليله عذاب، والشاعر فى البيتين الثانى والثالث من هذه الصورة " حشاه " و" على الفراغ .." يستخدم أسلوب السينما " الارتجاع الفنى أو الخطف خلفا" تفسيرا لمعنى الغربة الداخلية فى الوطن، وكأننا نلمح هذا الراحل يشيح بيمناه فى حركة عصبية حزينة ، حينما حنّ إلى وطنه وساورته نفسه البقاء ، وفكرة الفقر

---

(١) د. نعمات أحمد فؤاد: خصائص الشعر الحديث، ص ٢٨.

التى تولد الغربة مستوحاة من القرآن الكريم، الذى حث على السعى هروبا من الذل والفقر، وذلك فى قوله تعالى "إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟"(1) وينتقل الشاعر من تصوير المسافر إلى رد الفعل الذى خلفه، باستخدام أسلوب المونتاج السينمائى، حيث يتنقل بين المناظر لدواع فنية، منها التفصيل والتفسير ، فلأن الراحلين فلاح وعامل وحجار وصاحب صنعة، تفتقده "أرض مأرب" وحقولها، ومصيف صنعاء "حدة" مستقر السياحة والنقاهة والجمال الطبيعى فى اليمن، يديره العامل اليمنى باقتدار، ويسأل عنه جبل "سمارة" الذى أمده بالحجارة ليبتنى بيوت صنعاء الفريدة المميزة، ويفتقده "ميتم" النهر الذى بسطه ذلك الفلاح وفرشه خضرة ونضارا تحت سيقان الزروع ، ومازالت الربى تشرئب عطشى بعد رحيله ، تتنهد كمدا ؛ لأنها تستشعر أنه لن يعود، وكما جفت هى بدونه، سيجف هو بدونها، وفى هذا الحنين بين الأرض والإنسان تأصيل للعلاقة بينهما، وإيحاء عميق عفوى بضرورة البقاء فى الوطن ، وبنهاية هذه الصورة، يكون الشاعر قد رصد حالة التوتر والاضطراب التى تعترى المسافر ، وكيف يرجح الاغتراب البعيد عن الغربة القريبة، ويكون قد شخص من الطبيعة الصامتة أصواتا ومشاهد بديعة تحركت لتبنى خلفية مسرحية لرحيل المواطن، وكانت عدته فى الاستبطان والتنقل والتشخيص " الارتجاع الفنى، والمونتاج والحوار المنبعث من أسلوب الاستفهام، وأضفى واقعية على صدقه النفسى والفنى ، بذكر الأسماء المتنوعة، للحقول والمصيف والجبل والنهر.

والصورة الأخيرة : تضم عشرة أبيات ، تبدأ عنيفة فى تصوير وتتبع ذلك المسافر، ترتمى به الأمواج المصطخبة إلى بلاد وجزر ، لقد أضنى الليالى وصارع الحياة واقتحم الصعاب، يصمت وتخبر عنه إنجازاته العظيمة ، يبنى ويشيد، ويضىء ولا يملأ عينيه إلا نور بلاده المشع من خياله ، ولا يقنع إلا بيبته الفقير فى وطنه، وذلك المفهوم من وحى قوله" وهو على عيونها تساؤل بلا جواب" فهو فى تلك البلاد يعرف هدفه، لن يذوب فيها هانئا بعيشه، بل هو منعزل صامت ، على أمل العودة إلى بلاده غانما ، ويوحى الشاعر فى البيت السادس من هذه الصورة " فينحنى.."والسابع" يضيئها.. "بأنه لم يجز عن عمله الضخم بما يستحق، فيحمل حزنا دفينا على حزن الرحيل والشوق ، ليتحول هذا الاغتراب إلى " أرجوحة من الخراب" والسفينة التى أقلته بدءا

---

(1) النساء: ٩٦، وانظر فى تفسيرى الحافظ بن كثير والنسفى للآية الكريمة، (ابن كثير ٧٤٤هـ) مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، ص ٥٤٣، مصر، (النسفى: عبد الله بن أحمد) ج١، ص ٢٤٦، دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٨٢م.

فى رحلة الثراء "المتوهمة "، هى السفينه التى أقلته إلى حتفه، لقد مات من البدء بمجرد اتخاذ قرار الرحيل، والشاعر قد أوحى بنهايته من قبل، التى دلت عليها أفكاره فى البداية "الضباب والضياع والسراب" كما دلت "الربوة " فى الصورة الثانية على موته "مسافر بلا إياب" فربما شهدت من قبل نهاية الغرباء عليها، والآن مات هناك؛ لأن السفينة تحولت إلى " زمن وأيام" والزمن والأيام يعدان حيث يكون الإنسان آمنا فى وطنه، وهنا مزج الشاعر باقتدار ومنطقية بين الاغتراب والموت، فجعلهما شيئا واحدا، وكانت عدته فى تشكيل هذه الصوره: السرد وبناء صور جزئية تقوم على الحركة والصوت ؛ ليتابع أهوال الرحلة "تحطه جزيرة، ويرتمى به عباب ، أضنى السرى وراع غيهب الذئاب ، أقلق الحصى..."، كما استخدم التكرار والتكرار بالإضافة، ليوحى بمدى اتساع الحركة والتنقل : من قارة لقارة، أرحب الرحاب، كما استخدم التضاد والمقابلة: تساؤل بلا جواب،يضيئها ولا يرى ، يشيدها وهو الخراب، ليخلق المفارقه التصويرية بين الأشياء العظيمة التى يبنيها المغترب وانزوائه فى نفسه وحرمانه من حقه؛ ليثير مشاعر الإشفاق والعطف .

وإذا رجعنا إلى القصيدة مرة أخرى، وجدنا الشاعر ينتقل أحيانا من فكرة إلى فكرة دون رابطة منطقية بينهما، مع حرصه على الوحدة العضوية فى مجموع القصيدة، كوثبته السريعة من البيت الثانى إلى الثالث فى الصورة الأولى: من مشاعر الضياع وواقع الفقر (التراب) إلى تخيل (الغنى) وكلا الشيئين عنصران فى شخص المسافر، وكذلك انتقاله فى الصورة الثانية من اتخاذ المسافر لقرار الرحيل فى البيت الأول إلى الارتجاع السريع والتصوير البشع لماضيه فى البيت الثانى "حشاه..، عيناه .. الذباب"، وإنما يقصد بهذا الانتقال تحقيق بعض المقاصد الرمزية من "إثارة عنصر المفاجأة، رغبة فى تقوية جانب الإيحاء، إذ إن إثارة صور مختلفة، وتقريبها للذهن فى وقت معاً، من أسباب خلق حالة نفسية خاصة، تتولد من تراسل المشاعر المختلفة"[1]، ولقد عمد الشاعر أيضًا إلى خلق فكرة جديدة أوحى بها من خلال المفارقة التصويرية بين واقع الإنسان وغربته فى وطنه، واغترابه فى بلاد الآخرين، ففى الصورة الثانية يصف واقعه بطريقة عصبية حزينة، من "حشاه ملجأ الطوى، عيناه مرفأ الذباب، على الفراغ يبتدى، وينتهى دجى العذاب؛. وفى الصورة الثالثة نراه يخوض البحار والصعاب، ويخترق المخاوف والليالى عاملاً فى كل قارة يبنى ويشيد ويضيء، فالإنسان فى وطنه، من الدول الفقيرة المحتكرة من العالم الثالث، لا يجد الحافز للحياة والبناء، أسير الكبت والحكومات التى تقتل فيه الطموح بقتل حريته، فهو فيها أسير الفراغ والعذاب والجوع والذباب، وعندما يغادرها يتجدد فيه النشاط والملكات العظيمة، لمجرد بعض الإيحاء

(١) انظر: د. محمد غنيمى هلال: النقد الأدبى الحديث، ص ٤٠١، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٣م.

بإمكانية الحصول على الحافز وشيء من عرقه، وشيء من حريته، بهروبه من وطأة الظلم وبلاده الجامدة المتحجرة القلب، وقد عمد إلى لون من الحداثة الأسلوبية في بناء القصيدة، حيث جعل المطلع هو الختام "كهودج من الضباب"، "والانتهاء بالبداية من خصائص الشعر الحديث"[1]، باعتبار أن القصيدة وحدة نفسية دائرية، مكتملة الروح والعناصر التي يشد بعضها بعضًا كالجسد البشري.

ويتجاوز البردُّوني وحدة القصيدة إلى تحقيق نوع من الوحدة النفسية ووحدة الموضوع في ديوانه "لعيني أم بلقيس ١٩٧٣م"، قصداً إلى الوحدة الديوانية" وهي من خصائص الشعر الحديث[2]، الذي يرى أن دفقات التجربة الشعرية الحديثة لاتصورها قصيدة أو أكثر، بل ديوان أو أكثر، فقصائد هذا الديوان تشكل بحيرة واحدة، تمتزج فيها معاني، الموت والميلاد، والحزن والضياع، والغربة والاغتراب، وكلها تصب في معنى الحزن، وتتفجر منه بدافع الحزن الشديد الذي يسيطر عليه طيلة الديوان، فيبدو الحزن قبل وبعد كل فكرة، وينسحب على كل قصيدة، وإن حاول الخروج من هذا الحزن الدفين المنبعث من حالة الأسى العامة، التي سرت في جسم العرب بعد هزيمتهم في يونيو ١٩٦٧، فقد كان الشاعر ينتظر رد فعل قوي على الهزيمة النكراء والاستسلام المر، فلم يحدث، وصاحب هذه الأحداث الكسيرة الاضطرابات التي حدثت في اليمن بعد خروج الجيش المصري منه في نفس العام؛ وهو مما شغل الشاعر عن التفاعل الواقعي مع الهزيمة؛ إذ تآمرت قوى استعمارية وعربية وداخلية عميلة لترد اليمن إلى حكم الأئمة ومن والاهم.. المنصرم بعد ثورة سبتمبر ١٩٦٢م، فصب الشاعر جام غضبه على تلك القوى، واستثار الشعب وآزر الثوار الأحرار في ديوانه "مدينة الغد ١٩٧٠م" مع معالجة القضايا الاجتماعية الشائكة، والتي تتسرب بعد كل انتكاسة وطنية أو قومية، ولما استبطأ انتقام المارد العربي من اليهود، أكب على ذاته يستشف الحزن الأسود كبقية العرب، فصبغت رؤيته الشعرية وتجاربه والأشياء حوله بالأسى والانكسار، هنا جاءت قصائده الخمس والعشرون في ديوانه "لعيني أن بلقيس" من سنة ١٩٧٠ : ١٩٧٣م. لتحمل تلك التجربة القاسية.

وقد عمد الشاعر إلى إضافة بعض القصائد التي تنأى - في اعتقاده - عن الحزن زمانًا وموضوعاً، كقصيدته "اعتراف بلا توبة ١٩٤٧م"، حيث كان كتبها فتى مراهقًا لأستاذه أيام الدرس و التحصيل رافضًا نصائحه بتجنب النساء، واستوعده أستاذه ألا ينشرها، والآن نشرها سنة

---

(١) انظر:د. نعمات أحمد فؤاد: خصائص الشعر الحديث، ص ٢٨، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧١م.
(٢) خصائص الشعر الحديث: ص ٢٨.

١٩٧٣م، وغاب عن البردُّونى أنه نشرها بعد موته لما اشتد به الحزن، وضمها إلى ديوان حزين، وحينها كان شاعرنا أستاذاً فى مدرسة دار العلوم بصنعاء، ولابد أنه آنس من بعض التلامذة شبيهًا فى التصابى، ذكره بما كان منه مع أستاذه، فلم يجد رثاء لنفسه ولأستاذه أحلى وأصدق من هذه القصيدة، فأستاذه فيها حى يرى، يتكلم ويجاريه شاعرنا التلميذ فيغضب الأستاذ ليتمرد التلميذ، فالقصيدة تحية لراحل أيام أن كان حيًا قوياً، من هنا لا تعد خروجًا عن وحدة الحزن المخيمة على الديوان.

وفى الديوان قصائد عاطفية "امرأة وشاعر ١٩٧١م، صبوة ١٩٧٠م، اعتيادان ١٩٧٠، بعد الحنين ١٩٦٩م"، وكلها تموت فيها العلاقة العاطفية؛ ليتجانس الأسى العاطفى وهجر الحبيبة مع الأسى القومى والوطنى، وفى الديوان قصيدته الشهيرة "أبو تمام وعروبة اليوم ١٩٧١م" يتلازم فيها الموت والحزن، فالقصيدة معارضة، والمعارضة نوع من الوحدة مع الميت؛ لأنها استنهاض لرد فعله فى قضايا معاصرة ليس لها رد فعل، وتتولد من هذا التناقض المفارقة، وإذا قرأنا فهرس الديوان راعتنا العناوين التى تواكب الحزن:

"أنسى أن أموت، صنعاء والموت والميلاد، من منفى إلى منفى، إلا أنا وبلادى، صنعاء والحلم والزمان ، بلاد فى المنفى، عينة جديدة من الحزن، مدينة بلا وجه، يمنى فى بلاد الآخرين، صنعانى يبحث عن صنعاء ، مواطن بلا وطن .. فكلها توحى بالحزن وهى كذلك حزينة، وفى قصيدته "الفاتح الأعزل ١٩٧٢م" والتى قد يظن القارئ فيها الابتعاد عن الحزن، فالشاعر قد أعطى للحزن فيها قوة خارقة تستطيع قهر الموت وتشكيل الحياة والأشياء، حينما مزج الحزن بالزمن القاهر، وتعتبر القصيدة قمة حزنه وتشاؤمه فى الديوان، حيث يجعل منها ما يشبه اللغز خلال سبعة وثلاثين بيتاً.

٢ - وسائل الإيحاء الأسلوبية:

أ- المفارقة التصويرية :

وهى من سمات الحداثة فى الشعر المعاصر، إذ إنها وسيلة أسلوبية لتكثيف الإيحاء وتعميق الصورة، تقوم على "إبراز التناقض بين وضعين متقابلين هما طرفا المفارقة"[1] التى يستلهم بها خيال الشاعر معادلاً نفسيًا وموضوعيًا لتجربته الفنية، حيث تستقطب المفارقة تركيز الذهن فى

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة: ص ١٣٨.

المواقف الحادة، ومعادلا أسلوبيًا يتشكل فى بناء القصيدة جملاً وكلمات مختارة، تبرز مدى انفعال الشاعر بالحدث، ومدى علاقة الحدث بالشاعر وطرف المفارقة الآخر معاً، وتأتى المفارقة التصويرية عند البردُّونى فى شكلين اثنين: الأول: مستوحى من المفارقة الزمنية، والثانى: مستوحى من المفارقة المكانية.

ففى الشكل الأول، تهدر المفارقة التصويرية بعنصرى الاندهاش والتحول، مما يولد شعوراً بالأسى، ويستولد رؤى خاصة للشاعر فى طبيعة الحياة والناس، ويبرز جنوحًا إلى الضعف والاستسلام لسطوة الزمن، ففى قصيدته "صنعانى يبحث عن صنعاء ١٩٧٢م" يوحى لنا بحزنه العميق، وافتقاده العاطفة مع الأشياء التى كان يألفها، وذلك من خلال بناء المفارقة بين "صنعاء" الماضى القريب "وصنعاء" الحاضر، فهى الآن مجرد عمارات جامدة لا تألف الناس، تنتشر كالقبور المزخرفة، طوابق من الإسمنت خرساء خاوية، غدا سكانها مثلها يتسمون بالجمود الروحى والقسوة الاجتماعية المتمثلة فى جهل الجيران، والتغابى عن تأليف القلوب والعلاقات، وهو بذلك يستوحى فى المتلقى معانى الأمان والوداعة والإلفة، من خلال عرضه لجانب المفارقة المظلم الذى يستولد ضداً له:

هذى العماراتُ العوالى ضيّعن تجوالى، مجالى
حولى كأضرحة مزورة بألوان اللآلى
يلمحننى بنواظر الإسمنت من خلف التّعالى
هذى العماراتُ الكبارُ الخرسُ ملأى بالخوالى
أدنو ولا يعرفننى أبكى ولا يسألن مالى
وأقولُ من أين الطريق ؟ وهنّ أغبى من سؤالى [1]

فالشاعر حزين، يستنكر الاختلاف والتفاوت بين أوضاع كان من شأنها أن تتفق وتتماثل[2]، فصنعاء لم يبعد بها الزمن حتى تلتهمها رياح التغيير إلى هذا الحد، ويندهش من سرعة التحول فى طباع أهل "صنعاء"، فمنبع المفارقة نفسه النقية الشفافة التى راعتها مشاهد الجمود وآذاها تغير سجايا الناس، وأحاسيسه المرهفة التى اصطدمت بواقع مخز يتمثل فى اقتلاع مجتمع "صنعاء" النقى بحجة الاتساع والعالمية والتطور الاقتصادى:

(١) صنعانى يبحث عن صنعاء ١٩٧٢م، لعينى أم بلقيس".
(٢) بناء القصيدة العربية الحديثة: ص ١٣٧.

كـــــانت لـعــــــمى هاهـنا | دار تحـــــيط بهـــــا الـدوالـى
فـــغــدت عـــمــــارة تاجـــر | "هـنـدى" أبـوه "بـرتـغـــــالـى"
وهـنـاك حــــصـن تـآمــــــر | كـــان اســـمــه "دارالشـــلالى"
وهـنـاك دار عـــــمـــــــالـة | كـان اسـمــهـا "بيـت العـبـــالى"
وهـنا قـــصـــــور أجـــانـب | غـلف كـــتــــجـــار الموالـى

فالأبيات تشع بالصدق المنبعث من صدق التجربة وبكارة التفاعل معها ورصد آثارها، وتجيء المفارقة لتبرز هذا الصدق الفنى فى أسلوب يقوم على التناقض، وقد استخدم أيضًا إحدى خصائصه اللغوية وهى ذكر الأسماء، ليضفى واقعية ذات روح، وكأنه يقف أمام تلك المنازل يشير إليها: كانت لعمى، تاجر هندى، أبوه برتغالى، دار الشلالى (أهل دين وتقوى)، بيت العبالى (أهل مال وأدب).

وينهى الشاعر هذه المفارقة بحقيقة أليمة فرضت على "صنعاء" والمدن العربية التى كانت زاهرة، إنها مدن خاوية من أهلها الأصليين الذين تحلت بهم زمناً، فكان اسم المدينة يبعث على راحة النفس واستلهام المعانى المثالية، فهو لم يصرح بالماضى القريب المشرق بالرحابة والنقاء، طرف المفارقة الذى تركنا نستلهمه، أما اليوم:

اليـــوم "صـنعـــا" وهى مــــنـــــخـــمـــةُ الديـار بلا أهـالى
يحـــتلّهـــا الـســـمـــــسـار والـغـازى ، ونصـفُ الراســمـــالى
والـســـائح المشــــبـــــوهُ والدّاعـى وأصنـافُ الجـــوالـى
من ذا هنا ؟ "صنـعـا" مـضت واحـتلّـهـا كـلُّ انحــــلالى

إن عامل الزمن فى هذه المفارقة قوى ومؤثر، رغم أنها "مفارقة بين طرفين كليين معاصرين"[(١)]، وهو ما أراد أن يوحى به الشاعر من سرعة تغير الحياة والأشياء والناس فى هذا الحاضر.

وقد تأتى عند البردُّونى المفارقة التصويرية ذات الطرف التراثى، فيضع "الحادثة الحاضرة فى غير مكانها التاريخى"[(٢)]، بهدف نقد الواقع وإبراز مساوئه، وذلك بإسقاط الحاضر على الماضى،

(١) السابق: ص ١٣٨.
(٢) معجم مصطلحات الأدب: ص١٤.

كإسقاط نمط حياة الإمام أحمد وولى عهده البدر وعلاقته بهما على زمن حياة الرشيد والأمين وعلاقة أبى نواس بهما، جنوحًا عن المساءلة والضغوط المتوقعة عليه، ودافع الإثارة لهذه المفارقة، إصدار الإمام مرسومًا بجلد باعة الخمور وشاربيها سنة ١٣٧٩ هـ[١]، فيرتد البردُّونى يستميح التراث العذر، ويبنى مفارقة جزئية أخرى، بين ثراء الرشيد وولده واستباحتهما الخمور والقيان والمغانى، وفقر أبى نواس وحرمانه ثم جلده على شرب الخمر، وهو ما كان يحدث تمامًا فى عهد الإمام أحمد، فمعروف لدى مثقفى اليمن آنذاك، أنه كان مدمنًا للمورفين، يتعاطاه كلما تذكر قتله إخوته من أبيه للحفاظ على عرشه، أو تذكر قتله الإبادى لفئات الشعب المستنيرة التى حاولت تصحيح الأوضاع بمنعه من سفك الدماء، وقد نصحه أطباؤه بضرورة العلاج فى إيطاليا[٢]، يقول البردُّونى فى قصيدته "شاعر الكأس والرشيد ١٣٧٩ هـ من ديوانه فى طريق الفجر":

ما ترى يا أبا نواس ؟ ترى الأكواب ملأى ، وتحتسى الحرمانا
تتشهّى مُدامةً لم تجدها   فتغنّى خيالها الفتّانا
ملكٌ، يرضع الدِّنان كما يهوى   وأنت الذى تغنّى الدِّنانا
"والأمين" النديمُ يمنعك الخمرَ ، ويحسو ، وتنحنى ظمآنا

ولما ندم البردُّونى على مدحه الإمام وولده ولى العهد، أسقط حالته النفسية وأساه على أبى نواس، فى سلسلة المفارقة الكلية التى استدعى لها الشخصية التراثية:

كيف ألقاكَ يا أخا الكأس فى المدح ذليلاً ، ومطرقاً خجلانا
تسأل الصمتَ كيف حلّت قوافيك من الذل والنفاق مكانا
أفترضى للفنّ أخزى مكانٍ؟   إن للفن حرمةً وصِيانا [٣]

وفى قصيدته ذائعة الصيت "أبو تمام وعروبة اليوم ١٩٧١م"[٤]، يصرح بطرفى المفارقة، ويستبطن ويستنتج وينتهى إلى الحكمة التى تلخص الموقف، فيشع الإيحاء رغم التصريح، بمكنونات أخرى من خلال الصخب الموسيقى الأثير، وتدافع الصور وتوالى الأحداث، ومنبع المفارقة هنا فكرة التناقض بين عروبة الأمس وعروبة اليوم، لقد اجتاح اليهود الوطن العربى،

(١) انظر: مقدمة القصيدة بقلم الشاعر، ديوان: فى طريق الفجر ١٩٦٧م.
(٢) انظر: د. عبد العزيز المقالح وآخرون: وثائق أولى عن الثورة اليمنية، ص ١٥٣، من حديث القاضى الإريانى الرئيس الأسبق ١٩٦٧ : ١٩٧٤م.
(٣) «شاعر الكأس والرشيد ١٣٧٩ هـ فى طريق الفجر».
(٤) ديوان: لعينى أم بلقيس ١٩٧٣م.

امتداداً للصراع الأزلى بين الحق والباطل، ولم يتحرك العرب، وازدحمت الحكومات بخونة الأوطان، وأمس، انتفض المعتصم ليلبى امرأة عربية تستغيثه، وأحرق أشهر قواده "الإفشين" لخيانته، ويلبس الشاعر طرف المفارقة الحديث لونًا ساخراً من الواقع العربى الذى أدمن الكلام والخمول والافتخار العقيم. ليبرز الفارق الشديد بين موقفين للعرب :

يدمى السؤال حياء حين نسأله / كيف احتفت بالعدى 'حيفا' أو 'النقب
من ذايلي؟ أما إصرار معتصم؟ / كلا، وأخزى من "الإفشين" ماصلبوا
اليوم عادت علوج "الروم" فاتحة / وموطن العرب: المسلوب والسلب
ماذا فعلنا؟ غضبنا كالرجال ولم / نصدق .. وقد صدق التنجيم والكتب
فأطفأت شهب "الميراج" أنجمنا / وشمسنا، وتحدت نارها الخطب
وقاتلت دوننا الأبواق صامدة / أما الرجال، فماتوا .. ثم أو هربوا

ويخلص إلى ما يريد، إن العروبة الآن أخرى، لأنها تعانى التبعية والذل للقوى الاستعمارية":

عروبة اليوم أخرى، لا ينم على / وجودها اسم ولا لون .. ولالقب
تسعون ألفاً "لعمورية" انقدوا / وللمنجم قالوا: إننا الشهب
قيل: انتظار قطاف الكرم ما انتظروا / نضج العناقيد لكن قبلها التهبوا
واليوم تسعون مليونا، وما بلغوا / نضجاً، وقد عصر الزيتون والعنب
تنسى الرؤوس العوالى نارنخوتها / إذا امتطاها الى أسياده الذنب

وفى الشكل الثانى للمفارقة التصويرية، تقوم المفارقة المكانية بدور إيحائى فى بناء الصورة، ينوب عن دور الزمن فى الشكل السابق، فالزمن هنا يربط بين طرفى المفارقة، ويأتى الاختلاف من المكان، فالطرف الأول وهو الشاعر حى، بينما طرف المفارقة الآخر ميت فى قبره، ولكل منهما عالمه الذى يسيح فيه، ويمثل هذا الشكل قصيدته "رسالة إلى صديق فى قبره ١٩٨٣م،[١] حيث ينقد الواقع السياسى والاجتماعى، ويتبرم من الحياة وقسوتها المادية، وحرص الناس على زخرفات الحياة ورنين الألقاب، ويغبط صديقه الميت على عالمه المتفرد الهادئ العادل، والموت الذى كان حياديًا فى بدء القصيدة، زاوجه الشاعر بالظلم، ليأخذ دلالة أعنف، فقد غدا الموت غير الموت، إنه

(١) ديوان: ترجمة رملية لأعراس الغبار ١٩٨٣م.

يؤذى الأحياء ويظلم الحى، أما الميت فقد استراح، غـدا الموت حديثاً، يغزو الحى فى طعامه وشرابه ووطنه وعالمه، ليبوء بموتتين وقـبرين، موت النفس الشـفيفـة النقية والتى مـاتت من الحى، وموت الوطن فى استبداده وتخلفه:

أنت فـى البـــعـــد قــريـب، وأنا — فى غـياب القـرب مـثلى فى ابتعـادى
أنت فـى شـــبـــرين مـن واد، أنا — خلف حـتـفى، هـائم فى غـيـر وادى
بعـــد أن مت، مـــضى المـوت الذى — كـــان عـاديـاً، ووافى غـــيـر عـــادى
صـــار ســوقـــاً، عـــملة، مـــأدبة — مكتـبـاً، مـسـعـى يسـمى بالحـيـادى
فى الـتـــراثيـــات دكـــتـــوراً وفى — غــرف التـعــذيب نفــسـيـاً ريادى
ذلك الـســـهل الـذى تعـــرفـــه — بات ســجناً لصـقــه ســجن ونادى
أنت عـنـد الـقـــبـــرســـاه، وأنا — أحـمل الأجـداث طرأ فى فـؤادى
مت يـومـــاً يا صـــديقى، وأنـا — كـل يوم والـردى شــــربى وزادى
أنت فـى قـــبـــر وحـــيـــد هادئ — أنا فى قـــبـرين، جـلدى وبلادى[1]

ويوحى البردُّونى فى بيته السابع بمأساة المثقـفين فى أوطانهم العربية، لقد تساوى لديهم النادى والسجن، من كـثرة تعـذيبهم، وترددهم عليـه، أما السهل الذى كـان متسـعاً، لم يبن فـيه دار علم تنهض بالشعوب الجاهلة، أو مستشفى يعالج فيـه الفقراء فأصبح الحى يئن بميتات متعددة فى قلبه، وقبـور مفتـوحة تحت قدمـيه، إنه يغبـط الميت على كل شىء؛ لأن الحياة غـدت موتًا بطيـئًا للنفس الإنسانية، أما الظلم فقد غدا موتًا إباديًا بشعاً.

ب – التناقض :

ولأسلوب التناقض أيضًـا دور أساسى فى تصـوير التجـربة والتعبـير عنهـا ، والتناقض هنا، له صفة الشمول والكـلية فى بناء الصور والقصيدة، وليس مجرد فكرة تسـاعد على إبراز المفارقة بين موقفين كـان من شأنهما أن يتفقـا ويتماثلا[2]، كما هو فى المفارقة التـصويرية، فالتناقض ضدان يمتزجان، أو يتسلسلان فى غير منطق، ينم عن حـالة الشاعر النفسية، حيث يندفع الخيال إلى شىء من العـبث المنطقى الموائم لتلك الحـالة المتـرسبـة، التى انعكست عن تـأملات عـميـقـة فى الحيـاة

(١) "رسالة إلى صديق فى قبره" ١٩٨٣، "ترجمة رملية.."
(٢) بناء القصيدة العربية الحديثة: ص ١٣٧ .

والأشياء، بلغت من العفوية استواء النقيضين معاً، كالموت والحياة، والخير والشر، "وأقوى الصور هى الصور التحكمية المتناقضة المتواردة على معان يصعب التعبير عنها، وتربط مابين الأشياء البعيدة ربطاً، يحدث هزة فى العقل والحس معاً"[1]، وسبيل الشاعر إلى ذلك الربط، هو المقارنة المبدئية بين المتناقضين، حيث "تتوالد الصور من تلك المقارنة، سواء أكانت بين أمرين متباعدين أو متقاربين ، والشاعر هو الذى يخلق هذه الصور من مواد الحس الغفل"[2].

فعندما يعترى الشاعر الإحباط، لشدة الضربات المتوالية خلال التاريخ على وطنه اليمن، تتولد فيه قوة للتغيير، وقوة يقين باستحالته فيستخدم التناقض ليفجر جوانب الإيحاء فى علاقته بوطنه، وعلاقته بمجال تفكيره وذاته:

أذوب، وأقسو كى أذوب، لعلنى   أؤجج من تحت الثلوج صباها
"لصنعا" التى تأتى وتغرب، فجأة   لتأتى ويجتاز الغروب ضحاها [3]

فظاهراً، يناقض الذوبان القسوة، ويناقض التأجج، وهذا يناقض الثلوج، هذا التناقض، صورة من إحساسه باستحالة التغيير، لأنه لن يكون بركانًا يَتأجج تحت تراكمات التاريخ التى أطبقت كالثلوج، فأسلوب التناقض خلق صورة مبدعة، فيها مخاض العفوية، وتتضح العفوية أكثر فى البيت الثانى، فيصور علاقته بذاته المفكرة، كطفل ساذج يرى ظاهر الأشياء، وهذا أيضًا تناقض مع البيت الأول الذى يستبطن الأمور فى عالم المستحيل، فرؤيته هنا لا يدرى سرها أو سر تحولها وتحول الأحداث، فوطنه يولد عظيمًا ويزول فجأة ليولد من جديد، ليظل فى الظلام، هذا التناقض العفوى صورة "تدل على سذاجة كالطفولة الخالصة؛ لأنها تكشف برهة عن الفطرة التى تشف عن حالة لا شعورية أولية"[4]، وهو نزوع سريالى فى رصد علاقة الشاعر بصورته وأسلوبه، ثم إن العمى المبكر للشاعر خلال طفولته المضيئة، وتردد النور خيالات مجردة فى ذاكرته، لابد يتشكلان فى صورة نقيضين لاستمرارية الظلام، ولابد أنه يرى صورة وطنه كصورته، دائمتى الليل والصمت، وإن تذكرا النور يومًا ما، وتلك وحدة عميقة وحلولية بين الشاعر ووطنه.

وهذه النزعة الطفولية السريالية، تمتد كثيراً فى ديوانه "لعينى أم بلقيس ١٩٧٣م"، و"السفر إلى

(١) النقد الأدبى الحديث: ص ٤٢٧.
(٢) السابق: ص ٤٢٥.
(٣) «لها، السفر إلى الأيام الخضر ..
(٤) النقد الأدبى الحديث: ص ٤٢٧.

الأيام الخضر ١٩٧٤م"، ففي قصيدته "صنعاء" والموت والميلاد ١٩٧٠م، من الديوان الأول، يستخدم التناقض السريالي العفوي في صور عديدة، فيستخدمه "للمغايرة"، بمعنى "استخدام الكلام في معنى عكس معناه الأصلي"[1]، كرغبته التهكم:

كالمشمش، ماتت واقفة ... لتعدّ الميلاد الأخضر
تندى، وتجفّ لكي تندى ... وترفّ ترفّ لكي تصفر

وكرغبته في الاستخفاف بالزمن الذي يؤمل فيه اليمنيون الخير، الرخاء واستقامة الحياة:

ولدت صنعاء بسبتمبر ... كي تلقى الموت بنوفمبر
لكن كي تولد ثانية ... في مايو أو في أكتوبر
في أول كانون الثاني ... أو في الثاني من ديسمبر

وقد يمزج التناقض بأسلوب التفضيل؛ ليأخذ طرفا التناقض مستويين متقاربين إلى جانب السببية، فالموت سبب الميلاد، وذلك زيادة في التهكم والاستخفاف اللذين نشآ من إحساسه الشديد بالأسى على حال بلاده:

وتموت بيوم مشهور ... كي تولد في يوم أشهر
ترمي أوراقاً ميّتة ... وتلوّح بالورق الأنضر
وتظل تموتُ لكي تحيا ... وتموتُ لكي تحيا أكثر

وقد يستخدم التناقض والطباق للمبالغة، وذلك في وصفه لشهرة المتنبي:

من تلظّي لموعه، كاد يعمى ... كاد من شهرة اسمه لا يُسمّى
جاء من نفسه، وحيداً إليها ... رامياً أصله، غُباراً ورسما[2]

ويستوحي من التناقض أسلوب "قلب الطباق"، وهو "إعادة الطباق بترتيب عكسي"[3] ليعبر عن حالة الفراغ التي تجعل الإنسان تائهًا عن نفسه:

أقدامه رؤوسه ... رؤوسه أسفله[4]

---

(١) معجم مصلحات الأدب: ص ٢٣.
(٢) "وردة من دم المتنبي ١٩٨٠م، ترجمة رملية.."
(٣) معجم مصطلحات الأدب: ص ٢٢.
(٤) فراغ ١٩٧٥م، وجوه دخانية .."

ويستوحى من التناقض أيضًا أسلوب "التناقض الظاهرى" وهو "إبداء العبارة متناقضة أو غير معقولة فى ظاهرها، مع أنها بالفحص والتأمل يتبين أن لها أساسًا من الحقيقة"(١)، وذلك فى قوله:

تمتصّنى أمواجُ هذا الليلِ فى شَرهٍ صمُوت
وتقول لى : مُت أيها الذاوى ، فأنسى أن أموت
وتعيدُ ما بدأت ، وتنوى أن تفوتَ ولا تفوت
فتثيرُ أوجاعى ، وترغمنى على وجع السّكوت (٢)

فالموت قدر ليس بيد الإنسان، وتذكره أو نسيانه لا يقدمه ولا يؤخره، والشاعر "ينسى أن يموت" ففى الظاهر عبث، ومع التأمل نجد أن شراهة المادية المسيطرة على أفكار الناس، أحالتهم إلى آلات متحركة ميتة النفس والمشاعر والضمير، وجعلت الموت مشاعًا لا يثير ذلك الحزن كثيراً، فغدا الانسان فى خضم المادية كالميت، لاقيمة له حياً، إذن فللقضية أساس من الواقع والحقيقة، باعتبار أن بداية المسلك المادى، موت للمثالية فى روح الإنسان، كما عرج الشاعر على الطباق اللفظى وتناقض المعنى؛ شره، صموت - أن تفوت، ولاتفوت - وجع، السكوت.

جـ- الحذف والإضمار :

حيث يلجأ الشاعر إلى "إسقاط بعض عناصر البناء اللغوى؛ ليثرى الإيحاء وينشط خيال المتلقى"(٣)، وقد يشكل هذا الحذف الصورة بعنصر الدهشة والمفاجأة ، كحذف البردُّونى ظرف المكان ، وهو إجابة متوقعة فى الحوار ، ثم تأخير الفاعل فى البيت الثانى :

من أين يا جدرانُ ؟ يا خِبرةً نزوّق التمويتَ والسفسفه
مِن ها هُنا ، أو مِن .. ونجتازُنا من قبلِ أن نجتازها الأرصفه (٤)

فجملة "ونجتازنا.. "مقطوعة تمامًا عما قبلها، فقد أدخل الشاعر فى الحوار حركة مفاجئة، فانتقل إلى الجملة الثانية قبل أن تتم الأولى"(٥)، فاجتياز الأرصفة العابرين، هو طريق الهاوية الأوحد الذى تفرضه الحكومات العميلة على شعوبها، وقد تتجادل هذه الشعوب فى مصيرها فيما

---

(١) معجم مصطلحات الأدب: ص ٣٨١.
(٢) «انسى أن أموت ١٩٧١م، لعينى أم بلقيس».
(٣) عن بناء القصيدة العربية الحديثة: ص ٥٧.
(٤) «أمام المفترق الأخير ١٩٧٥م، وجوه دخانية ..»
(٥) معجم مصطلحات الأدب: ص ١٤.

بينها، ولكنها كالجدران الصماء تستحسن الزخرفة حتى زخرفة الموت المعد لهم.

ويستخدم "الحذف والإضمار" استحياء وتعففًا فى بنائه القصصى، وترفعًا عن ذكر الرذيلة، مكتفيًا بالإيحاء بها:

ودعــتــه ضــحكتُــهــا فــهَمّ وعــاده "خــور" النّعــامــه
ودنــت كــأجــنى كــرمــة   تلــهو بنهــديهــا أمــامــه
وأراد .. فــاستحيــا علــىّ   شــفتيــه مشروعُ ابتسامه (1)

لقد حذف تكملة جملة "وأراد" ووصلها بجملة أخرى تنقضها، فالبطل بعد أن تهيأت له سبل الرذيلة بعد أن كان قد أعد لها عدتها، يستحيى الآن من مجرد ابتسامة، وذلك ليرتقى بالمجتمع إلى الفضيلة.

د- التكرار :

ويستخدم الشاعر أسلوب التكرار؛ ليحيط بأفكاره، وليبرزها فى شكلها الأثير، حسب ما تقتضى تجربته الفنية، فالتكرار إلحاح لفظى، ينم عن طرق الخيال للفكرة والمعنى بأكثر من طريقة لغوية أو أسلوبية؛ ليهتدى إلى مستوى إيحائى مكثف، يعادل صورة التجربة، وتتعدد عند البردونى صور التكرار:

فقد يستخدم "تماثل النهاية والبداية تماثلاً عكسياً"، وهو نوع من التكرار البلاغى التراثى، حيث ينتهى فيه الشطر الأول بما يبدأ به الثانى"(2)، ليوحى التكرار بالمفاجأة السريالية، التى استولدها الشاعر بالتشبيه صورة متكاملة:

أمــا كــتكتتْ ســاعــةٌ فــى الجــدار ؟   جــدارٌ بــلا ســاعــةٍ كــتكــتــا (3)

فقد تحول الجدار إلى ساعة ليصبح التنبيه على سرعة الزمن وانتهاء الأشياء والحياة أكثر اتساعًا من الساعة آلة الزمن، الذى تمثل فى الأشياء العفوية المحيطة بالإنسان كالجدار، ومن حداثة الصورة، التكرار الموسيقى الناشئ من الفعل؛ كتكت" وتكراره، بمعنى الإكثار من الكلام فى سرعة"(4)، من

---

(1) «بين أختين ١٩٦٨م، مدينة الغد».
(2) معجم مصطلحات الأدب: ص ١٥
(3) «للشوق زمان آخر ١٩٨١م، ترجمة رملية ..».
(4) المعجم الوسيط: ٧٠٨.

اسم الصوت المنبعث من دقات الساعة، حيث زاد تكراره حدة الإحساس بمرور الزمن، من تكرار حروفه بانتظام، وهذا النوع من التكرار "التماثل العكسى" تراثى جاء فى شعر المتنبى، يقول فى مدح كافورالإخشيدى سنة ٣٤٦ هـ:

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله   ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده (١)

وقد يستخدم التكرار للتهكم والاستخفاف من سلبية شعبه الذى يترقب خلف كل كبوة هو سببها انطلاقة وطنه إلى الميلاد والتقدم، والشاعر كثيراً ما يطرق هذه الفكرة، ويصوغها فى أبنية موسيقية عذبة تتوافق وتتناغم، ويضفى عليها الطباق ثراء المعنى:

تندى وتجفّ لكى تندى   وترفّ ترفّ لكى تصفر
وتظل تموت لكى تحيا   وتموتُ لكى تحيا أكثر (٢)

فالندى والرفيف عكس النتيجة التى ارتآها الشاعر: الجفاف والاصفرار، والموت عكس الحياة.

وقد يتكرر عنده الأسلوب كاملاً ؛ رغبة فى الإفاضة والتفريغ، والتوسع فى شرح فكرته، فيكرر أسلوب التكرار نفسه، وتتكرر الكلمة بتدريج بين الترقى والانخفاض، فمثلاً: طاغ، أطغى من اسم الفاعل إلى اسم التفضيل من جنسه، أو من ضده مثل: باد، أخفى، أو تكرار الكلمة نفسها: سجن، سجن، - منفى، منفى، أو تكرار المفردة بمثناها: وحش، وحشين:

بلادى من يدى طاغ   إلى أطغى إلى أجفى
ومن سجن إلى سجن   ومن منفى الى منفى
ومن مستعمر باد   إلى مستعمر أخفى
ومن وحش إلى وحشين وهى الناقة العجفا (٣)

ويكرر أيضا أسلوب الطباق القائم على التناقض؛ إلحاحًا على الصورة، وإثارة لمعنى فقد الإحساس بقيمة الحياة فى بلاده، وتكثيفا للإيحاء بحرارة البقاء فيها رغمًا عنه، لأنه لابديل عنها، فالبلاد واحدة فى ظلمها:

---

(١) ديوان المتنبى: ص ٤٥٤، دار صادر، بيروت ١٩٦٤م.
(٢) «صنعاء والموت والميلاد ١٩٧٠م، لعينى أم بلقيس».
(٣) «من منفى إلى منفى ١٩٧١م، لعينى أم بلقيس».

تسليــاتى كــمُــوجـعــاتى ، وزادى مـثل جوعى ، وهـجعتى كـسهـادى
وكــؤوسى مــريرةٌ مـثـل صـحــوى واجـتــمـاعى بإخــوتى كـانـفـرادى
والصــداقــاتُ كــالعـداوات تؤذى فــســـواءٌ من تصـطفى أو تُعــادى
إنّ دارى كـــغــــربتى فى المنـافى واحـتـراقى كـذكـريات رمـادى [1]

فلأن عـلاقة الشـاعر بوطنـه علاقة مـعقـدة، يتناسق إلحاحـه على الصـور مع عاطفـته المعقدة المتناقضـة، ولذلك أتاح لهذه الصـور من خلال التكرار " سياقًـا فكريًا ثرياً، بحيث استوعب هذه الأجزاء المتمايزة المتعددة، فى وحـدة تفسيـرية كافية لتنوير مـوقف الحزن"[2]، من خلال طبيـعته المتعارضة، والتى واءمها أسلوب الطباق المسترسل فى أسلوب التكرار.

وقد يكرر كلمة لتبدأ بعدها صورة جديدة، كتكرار اسمى الإشارة "تلك أو هذى" فى بداية كل شطر ست عشرة مرة خلال سبعة أبيات، وذلك فى وصف صديقاته الحبيبات "قصائده":

تلـك بنيـــــة، وهذى نـبـــيـــــذ تلك قـمـحيـة تشع اخـضـرارا[3]

وهذا النوع من التكرار كثير فى شعره.

وقـد يضطر إلى التـكرار تحت إغـراء التـجاوب الموسـيقى المندفع لتشـكيل الصـورة، وهذا الاضطرار مرتبط بخاصـيته اللغوية فى الاشتـقاق والتوليد، فلكى يكرر "الذات" يشـتق منها الفعل "ذيت"؛ للتعبير عن رحلته التى يخوض بها المجهول، ويمزج التكرار بالطباق:

توحّــدتُ بـالعــالم المســتـحــيل لأجــتـــــازَ "ذاتى" ومـن "ذَيّتــــا"
هنـاك يرى "الحبُّ" مــــاذا "يُحِبّ" ولا يملـكُ "المقتُ" أن "يمقُــتـــا" [4]

ففى بيته الثانى التكرار والطباق، بين الحب والمقت.

---

(١) «إلا أنا وبلادى ١٩٦٩م، لعينى أم بلقيس».
(٢) د. مصطفى ناصف: الصورة الأدبية، ط١، ص ٢٤٩، مكتبة مصر بالفجالة، ١٩٨٥م.
(٣) انظر القصيدة: الصديقات ١٩٨٢م، ترجمة رملية لأعراس الغبار».
(٤) «للشوق زمان آخر ١٩٨١م، ترجمة رملية ..».

٣- أدوات التعبير الأسلوبية:

أ- الجملة الفعلية :

يؤثر البردُّونى الجملة الفعلية فى بنائه الأسلوبى، لتشكيل صورة تجربته الفنية، وذلك لخصوبة الفعل وطواعيته للخيال، لاشتماله على عنصرى الحدث والزمن، والشاعر يرتكز على العلاقات المألوفة بين الفعل والاسم والحرف، ثم بين التركيب والتركيب، ليخلق علاقات مجازية شديدة الحساسية، تولد من ذات الشاعر المبدع، تؤلف بين أنسجة العالم الإنسانى المنعكس فى تلك الذات، "فتركيب الصيغ والعبارات شديد الالتحام بعملية الإبداع، فالعلاقات القائمة بينها تثرى العمل الأدبى بمفاهيم ودلالات لا تكتسب إلا عن طريق إمكانات النحو، فالنحو ليس عنصرا هامشيا أو جانبا ركنيا فى العملية الإبداعية، بل هو لحمة هذه العملية وسداها فى الشعر والنثر"[١]، فالأسلوب بوصفه صورة تتمثل فيها العلاقات النحوية من حيث تركيب الجملة،" ارتبط بمفهوم عبد القاهر الجرجانى لنظرية النظم، من حيث كان نظما للمعانى وترتيبا لها"[٢]، والشاعر حينما يختار من بين الأفعال والجمل فعلا وجملة، فإنه يخضع لضغط رصيدها المعجمى فى ذاكرته، التى تدفع بهما محملين بشحنات نفسية عميقة، شديدة الخصوصية بنفس الشاعر، ولذلك "فإن الترتيب فى الأسلوب والنظم والتراكيب انعكاس حقيقى وصادق لترتيب المعانى فى النفس، مما يحقق الأداء النفسى الصادق فى الأعمال الأدبية والفنية"[٣].

فالبردُّونى عندما يصور تأثير الإعلام العربى فى الإنسان العربى، يستخدم الجملة الفعلية أداة أسلوبية رفيعة، تبدأ عفوية مألوفة، يمزجها بالتشخيص لخلق شخصية حوارية، لترتاد الجملة الفعلية آفاقا رمزية رحبة، تقوم على الدهشة والمفاجأة، فالشاعر يشخص "صنعاء" ضيفته فى فندق أموى، يستمعان إلى نشرة الأخبار:

طلبت فطور اثنين ، قالوا بأننى ... وحيد ، فقلت اثنين ، إن معى "صنعا"
أكلت وإياها رغيفاً ونشرة ... هنا ، أكلتنا هذه النشرة الأفعى [٤]

(١) د. محمد عبد المطلب: بين البلاغة والأسلوبية، ص ٥١، مكتبة الحرية بجامعة عين شمس، القاهرة. وانظر: دلائل الإعجاز: لعبد القاهر الجرجانى، تحقيق محمد رشيد رضا، طبعة المنار سنة ١٩٥٩م، ص
(٢) بين البلاغة والأسلوبية: ص ٣١ .
(٣) د. شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص ١٦٤، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.
(٤) «صنعاء فى فندق أموى ١٩٧٧م»، السفر إلى الأيام الخضر».

فالجمل الفعلية فى البيتين خمس، بدئت بالفعل الماضى البسيط: طلبت، قالوا، فقلت، أكلت، أكلتنا، ولكن كثف الموقف بتلك البساطة والعفوية، فالماضى تحقيق مؤكد للحدث المنتهى الذى عاناه الشاعر وصوره، وكان من الممكن أن يستخدم أفعالا وجملا أخرى، ولكن التجربة تأبى إلا أن تتمثل فى صورة مثيلة لها صدقا وأسلوبا وترتيبا، فقد حقق الشاعر بالفعل "أكل" تراسل الحواس، حيث جعل ما يسمع طعاما، دلالة تأثير المسموع فى مجرى دم الإنسان أكثر من المأكول، لأن المسموع يؤثر فى النفس والعقل والمعدة، كما حقق بنفس الفعل "أكلتنا" تشخيصا سرياليا مفاجئا، أقرب ما يكون من عالم الأشباح والخرافات، فقد تحول المسموع "النشرة" إلى أفعى ضخمة، " أكلت الشاعر ووطنه.

وليصور الانفعال والضيق والغضب على وجه وطنه عندما يصارحه الشاعر بحقيقة المأساة التى ينزلق إليها، يستخدم الجملة الفعلية، فأول ما يسبق إلى لسان الغاضب بعد صمت حائر هو الإنشاء، ويناسب الوطن هنا "الأمر" فى الفعل "اسكت"، حيث كرره الشاعر خمس مرات على لسان وطنه الذى بلغ من الضيق رفضه لكل نقد يوجه إليه، يرفض اعترافاته بالعزلة التى ضربها على نفسه، ففجرت المرض والجهل فى أوصال المجتمع، وفقد الوطن إباءه، ففقد الشاعر وشعبه فيه ولاءه وروحانيته:

أين انطفت عيناك ؟ اسـ ـكت .. أين جبهتك الأبيه ؟
اسكت .. أتبتدعين يوما جبهة أعلى طربه ؟
اسكت .. رجعت إلى التعقل ، لا أريد العبقريه
اسكت .. ولكن، لست من أبطال تلك المسرحيه
اسكت .. لأن الجو أحجار ، حلوق بربريه [1]

وفى القصيدة نفسها يشكل بالجملة الفعلية المبتدئة بالفعل المضارع صورة الصمت، ليعبر بالمضارع عن استمرارية تأثير الصمت والعزلة، لقد غدا الصمت هو الحركة الوحيدة فى الحياة:

يطفو ويركض ، يمتطى عينيه ، يسقط كالمطيه

ويخوض الشاعر بالجملة الفعلية صورا غائمة، مكللة بالغموض المشع، ويقوم الفعل المضارع بدور المتأنى الذى يجتذب استطالة النظر والتفكير، فهو يعبر بدقة متناهية، عن علاقة الإنسان الخفية بالجمع الإنسانى المحيط به، ومدى تأثر الإنسان ببيئته، لقد غدا "اللمح" يستمد إمكانية الرؤية من

(١) الهدهد السادس ١٩٧٤م، السفر إلى الأيام الخضر.

ذلك الجمع، وتصاب العين برماده، وغدا "الالتفات" يستند على ذلك الجمع، فتشتت الإنسان تحت قسوته وضياعه، بل اجتمع شتاته تحت إرادة الجمع المدمرة:

يحتسى من رماد عينيه لمحى ... يرتدى ظل ركبتيه التفاتى
تحت سكينه تناءى اجتماعى ... وإلى شدقه تلاقى شتاتى (1)

لقد أخر الشاعر الفاعلين: لمحى، التفاتى، عن الفعلين المضارعين: يحتسى، يرتدى، وبين الفعلين والفاعلين شبه الجملة الذى عمق فى الصورتين جانب الإيحاء، بمدى حتمية التصاق الإنسان بمجتمعه وبيئته، وهذا التأخير، يتيح للقارئ أن يستجمع الصور الجزئية قبل بلوغ الفاعل، كالصورة المنبعثة من تراسل الحواس فى الشطر الأول، حيث جعل الرؤية "اللمح" من مدركات الذوق "يحتسى"؛ ليمعن فى تغليب الإحساس بتأثير الجمع فى الفرد، وكالصورة المنبعثة من التشخيص فى الشطر الثانى، وفى البيت الثانى: أخر الفعل والفاعل المتطابقين المتناقضين: "تناءى اجتماعى"، "تلاقى شتاتى"، وقدم عليهما شبه الجملة المتعلق بالفعل، ليمهد للصورتين القائمتين على التناقض، بين تفرق شمله ونفسه تحت قسوة الجمع، وإحساسه بالوحدة ولكن إلى حيث يدمر ذلك الجمع الإنسان.

ولا شك أن هذا التنويع المنظم فى تشكيل الصورة بالجملة الفعلية، بين تأخير الفاعل عن الفعل وتأخير الجملة عن المتعلق ثم التطابق والتناقض بين الفعل والفاعل، قد أعطى الصورة الكلية نمطا عاليا من الترتيب والنظام اللذين يدلان على عبقرية ذهنية فى إرسال أجزاء الصورة ضمن وحدة نفسية عميقة، وقد ساعد هذا الترتيب على فهم الصورة وأجزائها رغم تغليفها بالغموض.

ب- التشبيه :

ويستخدم الشاعر أسلوب التشبيه، ليؤلف من التقاء طرفيه أو صورتيه، صورة حية تتآلف ومطلبه النفسى "الراغب فى أن تكون الصورة الأسلوبية متمشية مع الشكل المعنوى"(2)، فالتشبيه، إبراز فائق لأجزاء صورة التجربة، وإيحاء بالتوضيح والشرح، وهو فى الحقيقة تبسط الخيال فى استفاضة التناقضات التى تتوالد من اصطدام صورة التجربة بالواقع، فيعمد الشاعر إلى أسلوب

---

(1) «السفر إلى الأيام الخضر ١٩٧٤م، السفر ..».

(2) د. عبد الرءوف أبو السعد: مفهوم الشعر فى ضوء نظريات النقد العربى،ط١، ص ٣٧٨، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٥م.

التشبيه، الذى يتضمن معنى الشرح والتمثيل، ولذلك ، "فبلاغة التشبيه فى أنه ينقل الذهن من شىء إلى آخر طريف يشبهه، أو صورة بارعة تمثله، وكلما كان هذا الانتقال بعيدا، قليل الخطور بالبال ، أو ممتزجا بقليل أو أكثر من الخيال، كان التشبيه أروع للنفس، وأدعى إلى إعجابها واعتزازها"(١)، لأنه بالرغم من رسم التشبيه حدودا فاصلة بين صورتين لا تلتحمان، يبرز تفوق الخيال فى رصد العلاقة بين الشاعر والصورتين، وكيفية التناغم بينهما وفق عاطفة عنيفة وخاصة، وكونه امتلك القدرة على الإقناع بعفوية تلك العلاقة، فقد امتلك الخيال العبقرى، وآمن بأعظم مهامه كشاعر، "فمهمة الشاعر هى فهم النموذج أينما يراه، وبناء إحساسه الفنى بشكل شعرى، بحيث يمكن من خلال نظرية الشمولية أن يقنعنا بحقيقته"(٢)، حتى فى إطار التشبيه الجزئى البسيط.

وقد جاءت تشبيهات البردُّونى فى صور ثلاث:

* **الأولى**: تشبيه جزئى بسيط ذو طرفين حسيين، يترقى بهما الشاعر شيئا فشيئا، ليغلب الطرف الحقيقى المثير لحالة التشبيه على الطرف المخزون فى الذاكرة، فهذه امرأة عاقر اعترتها هزة الأمومة عندما رأت وتعلقت طفلا يصحب أباه فى سفر، فتمثلت فيه أبناءها الوهميين الذين تتمنى إنجابهم:

ما اسم المحروس ؟ أجب يا ابنى	"نعمان" ، كجد الأجداد
عيناه كعينى "عائشة"	خداه ، كخدى "عباد"
فمه يفتر كثغر "لمى"	زنداه ، كزندى "حماد" (٣)

فقد نسبت الطفل بدءا للأصل الذى افتقده صغارها وهو "الجد"، إذا تذكرنا أن من حالات العقم الوراثة، ثم رأت فى الطفل ما طغى على الشكل المتوهم فى خيالها، فاقتسمته على الأربعة، فترقى من مجرد شبيه إلى "أصل" تتوق إلى مثله، وهذه طبيعة الأنثى أما أو عقيما، ويلون البردُّونى صورة التفاؤل عند الأم بذكر الأسماء، التى توحى بأن الأبناء فى انتظارها فى البيت.

وللشاعر من هذا التشبيه الحسى، ما وقع فيه تحت وطأة غضبه، فجاء التشبيه شديد الحسية والجمود، بهدف التحقير والتوبيخ، الذى انصب على مسئول البلدية فى صنعاء، لما رأى إزالة

(١) د. عمر الدسوقى: النابغة الذبيانى،ط٦، ص ٢٤٦، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٥م.
(٢) الصورة الشعرية: ترجمة أحمد نصيف الجنابى وآخرين، ص ٤١.
(٣) «أم فى رحلة ١٩٦٧م، مدينة الغد».

بعض المنازل لعدم صلاحيتها، فاضطر لطرد سكانها، فقد شبه المشئول والمطرودين بلا ذنب "بالطين"، بل شبه المساكين دون إرادته بالمهملات التى تكنس":

وكنســـــتهـم تحت النهـــار كـطينـة تجــــــتـــر طينه (١)

* **والصورة الثانية** من التشبيه : تشبيه طرف مادى محسوس بآخر تجريدى، وأغلب ما يكون ذلك عندما يوحى الشاعر بحتمية الأوضاع الرديئة، واستحالة دفعها، مما يثير فى الإنسان رغبة التمرد مع غريزة مسايرة الحياه المادية، ،والتجريد يناسب تلك الحتمية، فهو وإن كان يدرك، فمن المستحيل أن يتفاعل الشاعر معه، فيصور البردونى هذه المعانى فى قصيدته "لص تحت الأمطار ١٩٧٣ م"(٢)، حيث يترصد تحول الإنسان "اللص" فى عالمه المادى المجبر عليه، إنه يشبه "دربه" المادى، ويشبه "أمسيته" الكئيبة، وكلاهما: الدرب والأمسية، سيخوضهما حتما:

حـــسنا كف المطر الهــــامى وبدأت كـــدربى أتعــــفـن
وأخــذت كـأمــســيتى أهـمى أترمـــد ، أدمى ، أتعـــجـن

* **والصورة الثالثة** من التشبيه: التشبيه المركب، حيث يشبه صورة بصورة، التماسا لدفء ما بينهما يفيض عليه بعاطفته، ويرعى ميلاده بخياله، "فالصورة المفردة قد تظل ناقصة ما لم تقرن إلى صورة أخرى، وأن الصورة النهائية ليست فى إحداهما أو فى مجموعهما، بل فى شىء ثالث، يتولد بينهما(٣)، هذا الشىء الثالث، هو الصورة المثالية التى تخلقت فى ذهن الشاعر عند اضطرام التجربة، ووافقت الصورة الأسلوبية المكتوبة، فالبردونى فى قصيدته المطولة "مآتم وأعراس، ١٩٦٣ م" يقف أمام اليمن فى فترة انتقاله السريعة من حكم الأئمة المظلم إلى إشراق عهد الثورة فيشبه العهد الماضى وصمت الشعب بالخيول العاديات تمضغ اللجم:

والدجى يعلك السكون ويعـــدو مثلمـا تعلك الخيـول الشكائم (٤)

فيبدو أن الشاعر خرج بهذا التشبيه من ربقة السياسة إلى ذاته وواقعه خلف العمى، فتشبيه الظلم الإمامى ببهاء الخيول الجامحة لا يناسب الموقف، بل يناسب مطلبه النفسى فى عدم الشكوى من العمى، فالتشبيه يوحى بتملك الليل من الشاعر، وأن له فى الليل الدائم حياة خاصة وراقية

---

(١) «سفاح العمران ١٩٦٧م»، مدينة الغد».
(٢) ديوان: السفر إلى الأيام الخضر.
(٣) د. محمد حسن عبد الله: الصورة والبناء الشعرى، ص ٢٠، دار المعارف بالقاهرة.
(٤) «مآتم وأعراس ١٩٦٣م»، فى طريق الفجر».

كالحلم، تمرح فيها أفكاره، وتتحرك صور الحياة نقية، فالسكون الذى يؤلمه من العمى، غدا فيه صوتا يشع بالتمرد والرضا فى آن معا، كصوت احتكاك اللجام بأسنان الخيل، فقد حول الشاعر الليل إلى حركة عنيفة فى الضوء، وحول السكون المحزن إلى صوت أثير بصور خلجات النفس، وبذلك استطاع أن يولد بين طرفى التشبيه المتناقضين طرفا حبيبا لديه، يلح على الميلاد لأنه ممزوج بعاطفته الخاصة، التى أفاضت على أجزاء صورة التشبيه.

وقد يخفق البردُّونى فى هذا التشبيه المركب، عندما يتجاوز وجدانه، ويتعثر خياله فى ترهات المدح الذى لا يجيده، كقوله مادحا .. "البدر" ولى العهد فى زمن الأئمة:

وتجـاذبتك هضـابها وسـهولهـا شغفـاً كما جذب الفقير الدرهما [1]

وفى القصيدة ذاتها يكرر أداة التشبيه "كأن" سبع مرات بين صور تشبيهية مركبة، ويكرر "كما" أربع مرات، وقلما وجد عنده تشبيه ضعيف كالتشبيه السابق.

جـ الاستفهام :

* يرتبط الاستفهام بثورة العقل بحثا عن الحقيقة الكامنة خلف حركة الحياة فى هذا الوجود، لأنه الأسلوب الذى يصاحب الإنسان فى تأملاته الكونية العميقة، وينوب عن الإنسان فى فرض نفسه، لسبر أغوار النفس الإنسانية، ولتفسير ظواهر الكون والطبيعة وعلاقات الناس، وتمايز البعض دون البعض، ومفهوم أسلوب الاستفهام من هذا المنطلق، استطاع شاعرنا أن يوظفه فى شعره، ففى قصيدتة "سيرة للأيام ١٩٦٨ م" استخدم الاستفهام ثلاثين مرة، خلال أربعة وثلاثين بيتا، وكلها أسئلة تخترق طبيعة الأشياء، بحثا عن الأصول والأسباب، يستهلها الشاعر فى أسلوب الحوار مع صديق، بالسؤال عن الضحى، أهو ضحى الأمس، وهل ترتديه العشايا "الوقت من غروب الشمس إلى العتمة"[2] لتعود نهارا؟ ورغم ظلمة العشايا فإنها صبح الكفيف الذى يرى فى الظلام بضعف شديد، وهل يعرف الكفيف سر العمى أو الإبصار؟:

يا صديقى.. الحنين .. من أين تدرى؟ كـيف عـاد الضـحى ؟ وأين توارى ؟
أتـراه نـهـــــار أمـس المـولـى ؟ عاد أشـهى صبا ، وأسخى انهـمارا ؟
هل رمـــاد الضـــحى يحـــول رداء للعـــشـايا ، لكى يعـود نهـارا ؟

---

(١) «الربيع والشعر ١٩٥٥م، من أرض بلقيس».
(٢) المعجم الوسيط: ص ٦٢٥.

العشايا صبح كفيف يدلى شوقه من رماد عينيه نارا
يا صديقى .. وهل تعى كيف أغفى جمر أجفانه ؟ وكيف أنارا ؟ [1]

وعلى ذلك القصيدة، عن أزلية الشمس والربيع والحقول والرياح وثبات الكون رغم تغيراته، وضعف الإنسان، ويرى البردُّونى أن هذه الأسئلة تندفع من فطرة الإنسان المستنيرة، فهى دليل التفكر والمغامرة، تركض خلف كل إدراك:

كيف نغضى ؟ وللسؤالات ركض تحت أهدابنا ، يخوض الغمارا ؟

* ويوظف أسلوب الاستفهام لإثارة التنبيه وإحداث عنصر المباغتة فى التصوير، وذلك من خلال غرابة السؤال، أو عدم توقع الإجابة، وقد تحقق التنبيه والمباغتة فى بناء الأسلوب القصصى، وفى استدعائه للشخصية التراثية، ففى قصيدتة "ذهول الذهول ١٩٦٤ م"[2] يصور فى بناء قصصى ذكريات جارة حسناء فى خيال شاب عاطفى، يلملم حديثه النفسى بعد رؤية بيتها طللا مهجورا، وهذا المونولوج الداخلى "يستدعيه بالاستفهام، الذى يتيح له استدعاء المواقف التى استأثرت به دون أن تجره الذكرى إلى خوض التفاصيل التى قد تستقطب طاقته التصويرية، فالاستفهام هنا أداته إلى التركيز، بالإضافة إلى كونه عنصر تنبيه فى المونولوج الداخلى، يضىء تلك المواقف، والشاعر عندما هم باستدعاء ذكرى جارته الحسناء، كان فى حاجة إلى استدعاء الحكاية التى توارت قليلا فى حكايات الحياة الكثيرة، فيستخدم أيضا الاستفهام:

وكيف ؟ ينسل إليها إذا تثاءب الباب ، وأومى الدخول
ماذا ؟ إذا لاحت له فجاة وأنكرته ، واحتمت بالأفول

لقد وظف البردُّونى الاستفهام فى هذه القصيدة أربع عشرة مرة، خلال أربعة وثلاثين بيتا، وهذه منها، حيث تتعدد معانى الاستفهام عند استدعاء مواقفه المؤثرة مع جارته الحسناء بين الإيحاء بالرغبة العنيفة ووصف الجمال الحسى :

لكن ، أتدرى أن أشواقه كما تكب العاصفات السيول ؟
ألا ترى أن اختلاجاته أمامها شهق الحريق الأكول ؟
من ذا ؟ وإذ لاحت رماه إلى شموخ نهديها الخيال العجول

---

(١) «سيرة لأيام ١٩٦٨م، مدينة الغد».
(٢) «ديوان: زمان بلا نوعية».

كـيـف يناجـيــهــا ؟ الا تـنطوى أحــرفــه تحت اصــفــرار الذبول ؟
مـــاذا يلاقـى ؟ شـــعلـة بضــة من الـصــبـــا والكـبــرياء الملول
فـى أى زاه من تـهـــــاويلـهــــا يرسـو ؟ وفي أى اخـضرار يجـول ؟
يذهلـه عن بعـضـهـا بعـضـهـا فمـا الذى يغوى ؟ ومـاذا يهول ؟ (١)

* وقد يستدعى بالاستفهام الشخصيات التراثية، عندما يترقى بشعره المصور قمة معنوية ترتبط بمخزون تلك الشخصيات، فـالاستفـهام هنا يحـقق مفاجـأة تعمق الصـورة بعد إدراك ارتبـاطها بالشـخصـية المستدعـاة، ففى قـصيـدته "مكتبيون والبطل والشـاهد ١٩٧٧م"(٢)، يصور تبـعات الحكومات الفاسدة، حيث تولى المناصب الهامة لانتهازيين يتلونون بكل وجه ممكن تحقيقا لمكاسب خاصة من أفـراد الشعب، وليحاكى هذه الحـالة المتردية وانعكاسها فى نفسـه، يخلط بين الأساليب المختلفة: كالتقرير والأمر والنداء والاستفهام:

يشـتــهى المسئول وجـهـين مـعـاً : وجـه شـيطان ووجـهـاً من ضـراعـه
أشـتــهى عـشـرين ، عنـدى واحـد كــرر الموجــود فى دار الطبـــاعـــه
(ســيف) مـــا يلهــيك ؟ انطق مـرة أزمة فـى البيت ؟ أبيـات مضـاعه (٣)

ففى البيت الثانى جاء الأمر "كرر" لإثارة الضحك بقصد السخرية والتخفيف من حدة الموقف، فالأسلوب محاكاة تصـويرية أشبه ما تكون "بنكتة" أو صورة كاريكاتورية مبـتدعة، تتفتق فى ذهن الإنسان بداهة عند الضـغط النفسى، ويأتى الاستفـهام بشخصيـة "سيف بن ذى يزن" من الموروث الفولكلورى، ليربط بين تشكل المسئولين بأوجه مختلفـة وظلمهم للشعب الفقير، فسيف هو الذى يتشكل فى أوجـه كثيرة، ولكنـها موحدة وعـادلة وتقيم الحق، لترفع الظلم عن الناس، فـسيف فى سيـرته الشعبـية: ملك عظيم، ومقـاتل شرس ، وساحـر، وتاجر، وتابع للجـان، وطبيب، وحكيم، وفيلسوب، وعاشق معذب(٤)، وغيرها من الشخصيات الكثيـرة التى تستقطب عاطفة الناس، فهذا الاستدعاء العـابر للشخصية التراثية، جاء بأسلوب الاسـتفهام، وليزيد الشاعر من قـدرة الاستفهام

---

(١) "ذهول الذهول" ١٩٦٤م، "مدينة الغد" .
(٢) ديوان: زمان بلا نوعية".
(٣) نفسـها.
(٤) انظر: سيـرة فارس اليـمن «الملك سيف بن ذى يزن» دار الكتب الـشعبـية، بيـروت. (كتاب مـتعـدد القصص والخرافات والحكايا الشعبية عن الملك سيف، جمعتها دار الكتب الشعبية بلبنان).

يكرره بأسلوب عفوى يتغاضى عن الزمان والمكان، ويسأل عن صمت سيف، ويرد الصمت إلى "أزمة فى البيت"، فالاستفهام هنا حقق عنصر المفاجأة والتشويق، كما ربط بين الموقف الشعرى والشخصية التراثية فى لمحات خاطفة، عمقت الصورة وكثفت أبعادها.

* وللبردُّونى استخدام شاذ لأسلوب الاستفهام، حيث يجعل أدوات الاستفهام وأسماءه رموزا لأسئلة يستنكر إجاباتها، كقوله:

أمن غير من ؟ وإلى غير أين ؟ تبـدت بدون لماذا وهل ؟ (١)

فمن الثانية وأين ولماذا وهل، رموز أسئلة تستنكر حرب أكتوبر ١٩٧٣ م، باعتبارها فى رأيه طريقا فرديا رسم لبعض الدول للخروج والعزلة عن جسم الأمة العربية، حيث تعتبر القصيدة هجاء سياسيا للرئيس السادات ومسلكه السياسى، فالشاعر يجعل الاستفهام هنا أساس الحدث، فقبل خوض الحرب أو السلام، ينشأ السؤال عن البداية والنهاية.

* وقد يوجه الاستفهام للظرف، إمعانا فى تصوير حالة الفراغ التى تدفعه إلى الكآبة والضجر من الناس، فيقيم علاقة نفسية مع المكان:

ماذا أقول يا هنا ؟ وما الذى أعمله ؟
ماذا ؟ ومثلى ميت هذا الذى أسأله (٢)

* ويستخدم الاستفهام للتحقير فى قوله:

من أنت ؟ شىء عن بنى الإنسان مقطوع القرينه (٣)

* كما استخدمه لمحاكاة الحديث الجارى فى الحوار:

كيف العيال ؟ وأين أختى ؟ عند عمتها "كرامه" (٤)

---

(١) «سباعية الغثيان الرابع ١٩٧٧م، زمان بلا نوعية».
(٢) «فراغ ١٩٧٥م، وجوه دخانية ..»
(٣) « سفاح العمران ١٩٦٧م، مدينة الغد».
(٤) «بين أختين ١٩٦٨م، مدينة».

٤- مآخذ الأسلوب:

تندرج المآخذ الأسلوبية عند البردُّونى تحت شكلين أسلوبيين، ينتفى معهما تلقائية التصوير والصدق الفنى المعبر، وهما: التعقيد والمبالغة.

أ- التعقيد :

وقد يلجأ إليه البردُّونى "استجابة لضرورة التعبير عن الرؤية الشعرية الحديثة .. التى أصبحت نسيجا شعوريا متشابك الخيوط، تحتاج إلى بناء فنى فى مثل تشابكها وتعقيدها، ليستطيع تجسيد أبعادها المختلفة"(١)، كما يعمد الشاعر إلى التعقيد الأسلوبى، حفاظا على المعنى الذى استثاره، والتماسا لكماله، فقد تولد الصوره معقدة، لتجتر ألفاظًا وتعابير من جنسها، "والمسألة فى صميمها أكبر من الألفاظ، وأوسع من التعبير، لأن الينابيع الطليقة، تحبسها الطرائق التقليدية للشعر العربى فى التعبير"(٢)، وخضوع الشاعر لتلك التقاليد دون الترقى الممكن بها، فيقف الشعر المعقد دون الانسيابية وعفوية الإحساس باللغة، لا يبلغ "معنى العالم الذى لا يصل إليه إلا لغة الشعر"(٣)، ولغة الشعر لغة العاطفة "تعتمد على شعور الشاعر بنفسه وبما حوله شعورا يتجاوب هو معه، وفى لغة هى صور"(٤)، تنساب إلى الخيال المتلقى موحية مكثفة.

فعندما يقف الشاعر أمام فكرة "فناء الفرد من أجل مجتمع الوطن"، وهى فكرة قوية، يتأهب ليربط بين الحب والتضحية، فيستخدم بعض خصائصه اللغوية والأسلوبية : كاستخدام المصدر والتكرار والمطابقة وخلط الخبرى بالإنشائى، وهذا التزاحم فى الخصائص يدل على اهتمامه الشديد بفكرته، ولكنه وقع تحت إغراء استدعاءات خصائصه، فجاءت الفكرة فى أسلوب غامض معقد:

قتلى حُبّاً لكحلى حدِّى ، الزمنى حدّى
كى يحيا فردى جمعاً لا يفنى ، أفنى وحدى (٥)

ويتعقد خيال الشاعر فى التعبير عن حالة التردد المتوتر التى تنتاب الإنسان عند حيرته بين البقاء

---

(١) عن بناء القصيدة العروبية الحديثة: ص ٢٤.
(٢) الأستاذ . سيد قطب : كتب وشخصيات،ط، ص ٥٧، دار الشروق
(٣) د. محمد النويهى: قضية الشعر الجديد، ص ١٣٩ .
(٤) النقد الأدبي الحديث: ص ٣٧٨.
(٥) «للقاتلة حباً ١٩٧٧م، زمان بلا نوعية ».

فى الوطن والاغتراب عنه للرزق، فيشخص حالة الاغتراب طرفا فى حوار، تسأله عن وطنه الذى سيهجره، فينفعل بالرفض، ولكى يصور الموقف، خلط الاستفهام والنفى والتقرير والتمنى، واستخدم جملة الاستفهام كالاسم المفرد، وأضاف الظرف للظرف:

من أين ؟ لا .. ارجوكِ لا تسلى   تدرين .. وجه الريح عنوانى
لو كان لى من أين قبل هنا   قدرت أن التيه أنسانى (١)

إنه يترفع عن ذكر وطنه المهجور، ويتمنى لو نسى نفسه قبل النطق به، مهابة وكرامة له.

ولكى يحافظ على أبعاد الصورة الزمنية، يستخدم أيضا بعض خصائصه الأسلوبية التى تجره بكثرتها إلى التعقيد: كالتكرار والمطابقة، وذلك فى رسالته لعيد الثورة اليمنية العاشر:

ستراانا غير من كنا كما   سوف تبدو غير من كنا رأينا (٢)

ب- المبالغة :

والمبالغة عند البردُّونى، من تبعات الإفراط فى محاكاة الموقف الشعرى، جنوحا إلى تحقيق ضالة معنوية تترسب فى ذهن المتلقى من تسجيل الواقع ورصده شعرا، فالمحاكاة هنا تقتضى التقرير، فيخلو البناء الأسلوبى من الصور، وتتجرد اللغة من الإيحاء، فهو "لم يستجب فى شعره إلى حافز قوى من شعور إنسانى وعاطفة جياشة وخيال قوى، بل سعى وراء مهارة لفظية"(٣)، تبدى براعته فى تصوير ورصد ما لا يصور أو يرصد، بتحويل الشتات النثرى إلى شعر ذى إيقاع وقافية، ينساب فى سلاسة، ومن ذلك محاكاته "الديباجات الرسمية" التى تبدأ بها اجتماعات المسئولين العرب، بقصد إثارة السخرية:

إنا بعون الله نرسم ما يلى :   عن ما مضى بعدى ، وقبل تشرّفى
النقطة العشرون تصبح رابعاً   الخمس بعد العشر أمر موقفي
ويتم من تأريخ : هذا نشره   تذيل أوله بحمد مصحفى (٤)

وإضافة إلى المبالغة للسخرية، فقد جعل المحاكاه تنطق بجهل المسئولين الذين لا يجيدون مجرد

---

(١) «فى الشاطىء الثانى ١٩٧٤م، السفر إلى الأيام الخضر».
(٢) «لافته على طريق العيد العاشر لثورة سبتمبر، ٢٦ سبتمبر ١٩٧٢م، لعينى أم بلقيس».
(٣) النقد الأدبى الحديث: ص ٣٩٠.
(٤) «من فكريات رصيف متجول ١٩٧٧م، زمان بلا نوعية».

التكرار لجمل محفوظة "ما مضى بعدى ، أمر موقفى ، تأريخ هذا نشره، "ومثل هذه التجارب - عادة - دون التجارب الجدية الرصينة التى تبين عن جلال الفكر الإنسانى وعمقه"[1].

وكذلك محاكاته بطريقة الجواب، لبيت المتنبى فى مستهل قصيدته يمدح بها سيف الدولة:

أجاب دمعى، وما الداعى سوى طلل   دعا فلباه ، قبل الركب والإبل[2]

إذ يقول البردُّونى:

فيا "أحمد بن الحسين" انهمر   سوى الدمع ، ناداك غير الطلل [3]

فإيراده اسم المتنبى كاملا منادى أو عز بالخواء، والإخفاق فى استلهام الشخصية العظيمة لتجربته، وذلك "لوقوفة عند الرصد الخارجى للواقع دون التظليل الذى يعدى بالشعور ولا يطفئه، مما أدى إلى تسطيح القصيدة وإهدار قيمتها التصويرية"[4]، وكذلك لاندفاع الشاعر فى غضبه، مما يجتره أحيانا كثيرة إلى نتيجة الغضب المنطقية، السباب والشتم، حيث تحفل القصيدة بالكثير من ذلك.

وقد تأتى المبالغة من تجاوز الشاعر حدود الأسلوب الذى انتهجه فى قصيدته، كتجاوزه الحوار مثلا فى قصيدته "ساعة نقاش مع طالبة العنوان ١٩٧٢ م"[5]، فالحوار يستقطب الدفقة الشعورية، ويحيلها إلى عالم فكرى متزن، مشبع بوسائل الإيحاء الهادئة والهادفة معا، ولكن شاعرنا يتغلب عليه طوفان الذهن الحاد، فيتحول حواره إلى شعارات جافة وخطابية مباشرة:

فلتسلم فلسفة الأيدى   ولتسقط فلسفة الأذهان
كل الأوراق بما حملت   تشتاق إلى ألفى طوفان

ومن محاكاته ورصده "لثرثرات محموم ١٩٧٤ م"[6]، على فراشه، التماسا للصدق، فكأنه طبيب نفسانى يسجل ما يسمع بقصد التحليل، فيعمد إلى الأفعال المضارعة المتراصة:

كان يحكى ، يبكى ، يجيب ، ينادى   يدّعى ، يشتكى ، يصافى ، يعادى

O■O

(١) النقد الأدبى الحديث: ص ٣٨٩
(٢) ديوان المتنبى: ص ٣٣٦.
(٣) «سباعية الغثيان الرابع ١٩٧٧م، زمان بلا نوعية».
(٤) واقع القصيدة العربية: ص ٥٧.
(٥) ديوان: لعينى أم بلقيس.
(٦) ديوان: السفر إلى الأيام الخضر.

الفصل الثالث

الصورة الشعرية

(١) تقديم نظرى:

أ - الصورة والنقد :

تكاد تستأثر الصورة الشعرية بأغلب اهتمامات الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة، حتى غدت الوجه السحرى الذى يحمل فى ظلاله وتقاسيمه فلسفة مذاهب وتيارات الأدب عبر العصور المختلفة، فالصورة مجمع أحاسيس الشعر ووجه انفعالاته وتوتره، وهى من أهم عوامل الحكم بخصوبة شعر أو بأصالة شاعر؛ لأنها مزيج نابض مكثف بمهاراته فى تشكيل اللغة الموحية والعبارات المختارة بوعى والإيقاع الموسيقى المتناغم فيهما، ويدل الجو النفسى للشاعر على تلك الأنسجة وحدة هى القصيدة، «وإن القصيدة الجيدة، هى بدورها صورة»[١]، وإذا كانت الصورة قد حظيت فى النقد الحديث بتناول منهجى على أسس فلسفية وتحليلية ونقدية مختلفة، فإن «النقد العربى القديم لم يكن بمستوى الإبداع، فغفل عن الصورة، وجمد عند ألوان من الاستعارة، واهتم بإيجاد العلاقة الحسية، وأوجه الشبه بين المشبه والمشبه به»[٢]، ولذا فقد تناولت الدراسات الأدبية الحديثة الشعر الجاهلى والتراثى عامة بمنظور أدبى ونقدى حديث ؛ لمعالجة الهوة التى أحدثها النقد العربى القديم، كما تناولت أساليب النقد القديم بالتقويم حينًا وبالتقريع أحيانا؛ لقيامها على الذوق الشخصى، والتزام الأخلاق العامة والمثاليات فى المعانى الشعرية، وسلامة الجملة الشعرية نحوياً، وما دون ذلك فقد هوى تحت معاول هدمهم.[٣]

ودراستنا للصورة الشعرية عند البردُّونى شاعر اليمن، قد خضعت لمفهوم النقد الحديث، بمقوماته وأساليبه، فهى كائن حى، يتخلق تدريجيًا من انصهار اللغة فى التركيب فى الموسيقى، وكلها أدوات هلامية تخضع لتشكيل الخيال الخصب الخلاق، يصوغها وحدة لغوية ونفسية، حتى

---

(١) د. محمد حسن عبدالله : الصورة والبناء الشعرى ص٨ ، مكتبة الدراسات الأدبية ٨٣ ، دار المعارف بمصر ١٩٨١م.

(٢) د. الطاهر أحمد مكى: الشعر العربى المعاصر ص٨٢، الطبعة الثالثة، دار المعارف ١٩٨٦م.

(٣) د. الطاهر أحمد مكى: امرؤ القيس، حياته وشعره ص٢٤٢ وما بعدها، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٧٩م. وفى الكتاب نقد ومعالجات للنقد القديم، وانظر: فى النقد والأدب لإيليا الحاوى، الطبعة الرابعة: بيروت ١٩٧٩م.

تذوب الفوارق بين هذه الأدوات فى سيطرة الإيقاع الواعى، وتلك الوحدة الأثيرة، وحدة كونية، لأن الرافد الإنسانى واحد رغم ذاتية العلاقات فى تشكيل كل صورة، يتوحد ويتناغم مع الكائنات الحية والأشياء الجامدة لبث تجربته البشرية، التى تأتى انعكاساً لتلك الوحدة فى ذاته، فتتخلق عفويًا لغة تصويرية أشمل وأعم، يعيها البشر على اختلاف لغاتهم وبيئاتهم وأزمانهم تراثًا متراكماً، وكلما كانت الصورة أصيلة المنشأ الإبداعى، عميقة وخصبة، جريئة وتلقائية، دقيقة التأثير، كتب لها الخلود، ليجد الشاعر فيها نفسه الجديدة رغم تباعد الزمن، ومن هنا «فليس مجرد صدفة أن ترى فى الصورة الشعرية الحديثة أشكالا ونبضات مشتقة من الأساطير»،[1] وتفنى الأساطير، وتظل الصورة مقياسًا لوعى الإنسان ووعى الأجيال فى التعبير عن عالمها، وليس مجرد صدفة أن نشتم فى شعر ما عبق شاعر قديم، أو نلمح مثلا شعبيًا لأمة مندثرة، أو خرافة قد استلهمها شاعر منذ آلاف السنين، «وكأن الإنسان حتى فى فرديته لا يزال يبحث عن الضمان العاطفى فى إحساسه بالانتماء إلى الجماعة» [2]، إذن فالصورة الشعرية «هى العقل الإنسانى الهادف لإيجاد صلة مع كل ما هو حى أو كان حياً»[3].

ب- الصورة والقصيدة :

للصورة فى القصيدة حضور كالروح فى الجسد، وإذا ما قورن تأثيرها فى القصيدة بالنسبة لتأثير اللبنات الأخرى، فإنها الحياة نفسها لتلك اللبنات، وإنها وحدة التخلق المبدعة التى تنبعث معها ومنها الأفكار والمعانى والأساليب والإيقاع واللغة، ولا عجب إذن من ارتقاء الصورة عن المقارنة بالمعانى، «فليس المعنى هو المهم، إنما هو المخلوق الآدمى الذى تحس دبيب انفعالاته ووسوسة وجداناته، وليست الفكرة التى تحويها المقطوعة هى المهمة، وإنما هى الصورة المترائية بين الظلال الشفيفة»[4]، بل كانت الصورة عند كثير من النقاد والشعراء المرادف المثالى للقصيدة، لأن «الصورة ثابتة فى كل القصائد، والاتجاهات تأتى وتذهب، والأسلوب يتغير، كما يتغير نمط الوزن، حتى الموضوع الجوهرى يمكن أن يتغير بدون إدراك، ولكن المجاز باق كمبدأ الحياة فى القصيدة،

---

(١) سيسل دى لويس: الصورة الشعرية ص٣٧. ترجمة د. أحمد نصيف الجنابى، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق ١٩٨٢م.
(٢) نفسه : ص ٣٧ .
(٣) نفسه ص٤٠
(٤) سيد قطب : كتب وشخصيات ص٥١ ، الطبعة الثانية، دار الشروق بالقاهرة ١٩٨١م.

وكمقياس رئيسى لمجد الشاعر»[1].

إن الصورة قوة غامضة، تتولد عفويًا فى خاطر المبدع حتى تضيق به، فتنفجر زهوراً ندية فى لحظة المكاشفة الداخلية أو اللا وعى، فإذا أفاق الشاعر احتوته نقاء وعطراً، واحتواها مشذبًا يضفى عليها لمسات الإيحاء ونبضات ذاته ، «فالشاعر لا يستطيع أن يكون دقيقًا تجاه الأشياء مالم يكن دقيقًا فى المشاعر التى تربطه بها، إنها الحاجة إلى التعبير عن العلاقة بين الأشياء، ثم بين الأشياء والمشاعر، تلك الحاجة التى تدفعنا للاستعارة»[2].

والصورة فى عالم البردُّونى الشعرى أنسجة حسية وتجريدية حية، تتقرى الأشياء والأحياء، تعويضًا عن فقدان البصر، فهو يرى بالصورة، ويحس بها ويسمع ويتكلم ، ويفرح بها ويتألم، فخياله التصويرى مكتمل وامينٍ على نفسه، ويسعفه معجمه وخصائص أسلوبه وثقافته وخبرته الفنية، حتى أكاد أقول، إن البردُّونى ظاهرة فنية نادرة فى تاريخ الشعر، برع فيما برع فيه القدماء، ونهل من معينهم فأحال التراث غيثًا يطوى يابسة الشعرالعاصر، ورغم طغيان محاولات تحديث الشعر، كالشعر الحر وغيره، والتى يتحرر فيها الشاعر من رتابة الأوزان وقيد القالب التراثى وقوالب الأساليب واللغة، للانطلاق بالخيال عن معوقات التصوير الشفيف الصادق، فإن البردُّونى لم يحاول ليقينه أن الجديد ينبثق من روح التراث ووحيه داخل إطاره الخالد، وكانت الصورة أول ما برز فيها التجديد، مع التزامه بالتصريع ووحدة الوزن والقافية، فصورة البردُّونى أصيلة خالدة بخلود الشعر، لها تموجات تخترق الذهن وتستقر فى الذاكرة، لتفرده وحداثته «وإن الصورة بحد ذاتها هى سمو وحياة القصيدة»[3]، وذلك الالتزام يدفعنا إلى إلقاء ضوء على طبيعته.

جـ- الصورة و الالتزام :

كان على البردُّونى خلال أربعين سنة أو يزيد فى عالم الشعر ، أن يبدع فيما ألزم نفسه به، والالتزام عنده سلك اتجاهين ، الأول : الالتزام بالصورة كما ارتادها الشعراء الخالدون، من حيث التقيد بالخلق التصويرى فى إطار الإيقاع الموسيقى الرتيب و الهادر معا، رغم تقيد ذلك الخلق أيضا بخياله لا مشاهداته، و معينه ثقافته سماعا و حفظا، و لم يكن عماه عائقا عن حرية التعبير

---

(١) الصورة الشعرية ص٢٠.

(٢) نفسه ص٢٩.

(٣) نفسه ص٢٠.

بكل وسائله المتاحة، رغم سواد الرؤية و سرمدية الليل، بل كان خياله التصويرى خصبا نقيا، يفيض بنبض الحياة و الكائنات فى ذاته. والاتجاه الثانى للالتزام : الالتزام بالقضايا الوطنية التى سخر لها شعره و صورته، ينافح عن وطنه، و ينقد الحاكمين، أو ينير لهم دربهم السياسى فى غفلتهم عن المصالح الوطنية، أو تصبح الصورة نفسها ثورة عليهم، و يساند الأمراء و الثورة أو ينقلب عليهم و الثورة،ولا يفقد الأمل فى تعبيد الطريق أمامها من جديد كأنها لم تقم،فتولدت فى تصويره فلسفات الحياة و الموت، واجتر من خياله تاريخ العالم القديم، نشوء حضارة وزوال أخرى، وارتقاء دولة على أنقاض أختها، والإنسان فى كل ذلك هو أداة الحياة وأداة الموت، وهو الرامى والقوس والسهم المسموم والقتيل، وهو أيضا القبر والذكرى والندم والأمل.

إن البردُّونى فى تصويره شاعر نفسه ووطنه وتراثه، وشاعر الإنسان اليمنى والعرب، وشاعر الإنسانية، فنراه تستغرقه اضطرابات الضمير وخفقات القلب أمام فجأة الحدث وطغيان الغريزة، وأمام ضعفه البشرى واختلاج المشاعر.

(٢) خصائص الصورة:

تتصف الصورة فى شعر البردُّونى بعدة خصائص تميزها وتميز شعره عامة عن النتاج الشعرى المعاصر،وإن أهم ما يرتقى بالحداثة التصويرية، أنها كاملة فى إطار الالتزام الذى أشرت إليه فى التقديم، ومن خلال إدراكنا للالتزام، نحدد أهم خصائص الصورة.

أ- استخدام الألوان :

يعتمد شاعرنا على الألوان بصفة أساسية فى تشكيل صورته، واستخدامه للون ليس نابعا من تعويض آفة العمى، أو مداراتها، بل من مدركاته الطبيعية كشاعر واسع الأفق ، ومن ثقافته وإحساساته، ودقة شفافيته مع الكلمة، وأسماء الألوان كلمات، وليست مجرد كلمات ميتة الإيحاء والدلالة كما تصورها بعض الكتاب فى تصورهم لاستخدامات اللون عند الدكتور طه حسين [(١)]، والأديب غير الشاعر الذى يحلق باللاوعى فى اللاحدود،فيصف البردُّونى النيل بالزرقة، ووصفه نتاج تفكير وإدراك للطبيعة، فالزرقة من انعكاس لون السماء على صفحته :

(١) من تحليل الدكتور: كمال الملاخ، انظر: يوميات يمانية فى الأدب والفن ص١٨ للدكتور عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت.

فـتلحـظُ خلف امـتـداد السنين على زرقـةِ "النيل" وعـداً صـبى [1]

والوعـد الصبى الذى يتـفاعل به الشـاعر هو الزعـيم جمـال عبـد الناصر، لوقـوفه إلى جـانب الشعـب اليمنى فى سـبيل تحرره من التخلف الإمامى الحـاكم، ويلتئم مع استخـدام اللون بذلك الصفاء، حالة الشاعر النفسية.

ويتفاعل أيضا باللون، فيـردفه وصفا للميلاد اليمنى الذى يرتقبه الشاعـر فى تضحيات الشعب اليمنى :

كـالشـمش مـاتت واقـفـةً لتـعُـدّ الميـلاد الأخـضَـر [2]

وتتدافع فى صورته الألوان وإيحاءاتها، كالنهار والثلج والرماد والشفق، تعبيرا عن مولد الحرية اليمنية المرتقبة بعد تضحيات اليمن فى سبيلها، ويتحول اللون من حمرة الشفـق الدامى رمز التضحية إلى نور الفجر رمز الثورة :

ينبى عن مـولدها الآتى شـفقٌ دامٍ فـجـرٌ أشـقـر
مـيـعـادٌ كـالثّلج الغـافى وطيـوفٌ كـالمطر الأحـمـر
ورمـاد نهـارٍ صـيـفىٌّ ودخـانٌ ، كـالحلم الأسـمـر [3]

ومن طبيعة مدركاته للون أن يهمى الغيث من الغمام الأسود، وليس من الأصفر :

لأن بقلبك صـومَ الحـقـولِ تغنّى لتسـودّ صفـرُ الغمـام [4]

ويتحول اللون من مجرد وصف الأشياء الطبيعية بلونها الحقيقى إلى تلوين الحالة النفسية التى تطفو على صاحبها، كتأثير " القات".. وهو مخدر يتعاطاه كثير من اليمنيين- فى مدمنيه :

من خُضـرةِ القاتِ فى عـينيـه أسئلةٌ صـفرٌ تبـوحُ كعـودِ نصفِ متّقـد [5]

فالقـات أوراق نباتية خضـراء، من تأثير تعاطيـها تجد الإنسـان هزيلا أصفر العـينين أسود الفم والأسنان، هائما بمزاجه ومجالس القات التى تعد للإدمان الجماعى.

---

(١) قصيدة "يوم المفاجأة" ١٩٦٤ من ديوان" فى طريق الفجر.
(٢) صنعاء والموت والميلاد ١٩٧٠- لعينى أم بلقيس.
(٣) نفسها .
(٤) " زامر القفر العامر" ١٩٧٦ ديوان " وجوه دخانية فى مرايا الليل".
(٥) "غريبان" ١٩٧٤- ديوان "السفر إلى الأيام الخضر".

ويكثر البردُّونى مـن تلوين المعانى، كما أكثـر من تلوين الأشياء الحقيـقية والهيـئة، ففى انتظاره لليمن المثالى، يلون اللهفة والإثارة للتجسيم :

ولألحـــانـه شِـــفــــاهٌ صَــبَـــابا وعـيـونٌ تـخـضَـرّ فـيــهـا الإثاره [1]

ويجسد الشبـاب باللون، ويوحى إلى الموت بلون آخر، انفعالا مع الثورة التى شخصـهـا شهيدة على أحرار اليوم الذين تنصلوا من الثورية، ولكنهم بعودة روحهـا عادوا إليها، إيحاء بتحول الزمن وتغير مفهوم الحياة من جيل لآخر، وقد حمل اللونين ذلك المعنى :

رجعتْ ، فـانثنى اصفرارُ التـوابيتِ إلى خضرةِ الشّـباب الوريفِ [2]

وأشد ما تكون عبقرية التلوين عندما يلون "الهاجس " وهو لمحة الخاطر وحدس العقل العابر:

ها هنـا عندى غــريبــاتُ العــوادى عندكَ الإنصافُ والهجسُ الرّمادى [3]

" فالهـاجس" لا لون له ولا هيئـة، ولكنه حقيـقة تأخـذ فى العقل مكانا، ويضطرب الشـاعر لو وصفـه بغير هذا اللون، لأنه خليـط الأبيض والأسود، والهاجس: " مـا يهجس فى الضمـائر، وما يخطر بها ويدور فيها من الأحاديث والأفكار" [4] فى غموض الذهن وعدم اكتمال صورة التعبير، فـبين اللون الرمـادى والهـاجس وحـدة الخلط والمداراة، فـاللون الـرمادى يـخفـى لونين الأبيض والأسود، والهاجس يخفـيه التعبير، ويزيد الصورة تكـثيفا، أن الهجس يعتمل فى ضـمير الصديق الميت فى قبره.

ويبدع كذلك عندما يلون المعنى الأنثوى، فالزوجة فى انتظار فقيدها، تترسمه طيفا وموعدا آتيا، وهو مغرم بإشراك اللون الأخضر فى كل تفاؤل :

ورجــعتَ أنتَ ، توقّــعـــاً للمــتّــه من نبضِ طيفِك واخضرارِ مواعِدى [5]

تلك أمثلة على استخدام اللون عند البردُّونى، فى تلوين الأشياء الحقـيقية أو الهيئة النفسية التى تغمر صاحبها بوحى لون معين، أو تلوين المعـانى المجردة، وهو قد استخدم كل الألوان الأسـاسية، وأفرط فى اللون الأخضر وما يوحى به، فجاء أسماء وأفـعالا مصورة، واستخدم الأبيض والأحمر

(١) "مدينة الغد" ١٩٦٧ ديوان "مدينة الغد".
(٢) "الشهيدة" ١٩٦٥ – ديوان "مدينة الغد".
(٣) "رسالة إلى صديق فى قبره" ١٩٨٣ ديوان " ترجمة رملية لاعراس الغبار" .
(٤) لسان العرب ص١ ٤٦٢، دار المعارف بالقاهرة.
(٥) " امرأة الفقيد" ١٩٦٤ ديوان "مدينة الغد".

والأسود والأصفر والأزرق والبنى، وبعض الألوان غير الأساسية كالوردى والرمادى، وتوابع الأساسية، كالقرمزى من الأحمر، والأشقر من الأبيض، والأسمر من الأسود، وقد رأينا كيف استخدم بعض هذه الألوان لتشكيل صورته الشعرية، وهو استخدام طبيعى وشديد الدقة والشفافية، لا يعكس فقداً للبصر أو شكوى من العمى، وهو نوع من تعالى البردُّونى فوق ذاته ليخلق إنسانًا سوياً.

*** اللون وتراسل الحواس :**

يتجاوب اللون – وهو من مدركات الرؤية – عند البردُّونى بمدركات الحسن الأخرى؛ لتعميق أبعاد الصورة، والإيحاء بمدى تعدد انفعالاته إزاء الحدث الذهنى أو النفسى أو الواقعى، وفى استخدامه للون فى التراسل، يستدعى رواسب نفسية بعيدة مازالت تغتلى داخله، فاللون يأتى وصفًا للنشيد – وهو من مدركات السمع – فى مدحه «للبدر» ولى العهد، كما يأتى نفس اللون وصفًا لهمسات «صنعاء»، ويأتى من مدركات حاسة الشم :

- وكــــأنه بفـم الربيع نشـيـــدة ‏ ‏ ‏ ‏ خضراء نقشها الصباح ونمنما (١)
- همـســـاتهـا الخـضـــر الرقـاق ‏ ‏ ‏ ‏ أشف من ومض الســـــراب (٢)
- كـل شىء وشى بميـــلادك المو ‏ ‏ ‏ ‏ عود واشتم دفئه واخضراره (٣)

فاللون الأخضر أكثر الألوان خصوبةً واستخدامًا عند الشاعر، ومنبع تفاؤله وصفاء ذاكرته؛ لأنه من آخر الأشياء الجميلة التى ملأت عينيه قبل سوادها فى السادسة من عمره فى قريته الخضراء الصغيرة، ولذا فإن هذا اللون رمز لكل القيم الخالدة، وبراءة وصدق، يوحى بحالته النفسية العامة أكثر من دلالته الوصفية الموضعية، كما فى الأبيات السابقة، ويستخدم اللون مضافًا لشىء من مدركات السمع :

حين نادت إلى الصعــود فتــاة ‏ ‏ ‏ ‏ مثل أختى ، بنية الصوت ربعة (٤)

---

(١) "الربيع والشعر ١٩٥٥– من أرض بلقيس.
(٢) عائد ١٩٦٣ – مدينة الغد.
(٣) مدينة الغد ١٩٦٧– مدينة الغد.
(٤) "شاعر ووطنه فى طائرة ١٩٧٤ – "السفر إلى الأيام الخضر.

فاللون البنى، وهو سمة وجوه غالبية أهل اليمن بدرجاته، غدا سمة لأصواتهم أيضاً؛ تكثيفًا لمعنى الأصالة فى الفتاة اليمنية المضيفة على طائرة، ومن ثم جعلها أخته التى تحمل الوطن كما يحمله فى رحيلهما عنه، ويستخدم اللون الوردى بتجاوبه لحاستى الشم والبصر، وكذلك اللمس مضافًا أيضًا لشيء من مدركات السمع، ليوحى بالعمق التاريخى لقضية اغتصاب السعودية بعض المناطق الشمالية بعد الحرب بينهما سنة ألف وتسعمائة وأربع وثلاثين، كما يوحى باستمرارية التفاعل مع الحدث والاستعداد لتغييره، من خلال استمرار إحساسه المتجدد، برائحة الأرض، وصوتها الحى، ورؤيتها:

في حشاها منا بذور حبالى   وجذور وردية النبض خصبه (١)

نلاحظ أن معظم استخدامات اللون فيما سبق مضافة أو وصف لشيء من مدركات السمع؛ لأنه بديل الرؤية المرهف، وكون الشاعر يعتمد على السمع فى تجاوبه مع الألوان، فإنه شديد الصدق الفنى والنفسى، وقد يهرب إيحاء اللون من البردُّونى عند ضعفه أمام إغراء تجاوب عناصر الصورة، فتنازعه الألوان، كما نازعته فكرة الصورة، وذلك من محاولته تأصيل وتعظيم النصيحة التى يقدمها فلا يعيرها الوطن اهتمامه:

لأن حروفك عشبية   كعينيك يا بنى الاهتمام
نزمر للسهل كى يشرئب   وللسفح كى يخلع الاحتشام (٢)

فهو يريد وصف العينين باللون البنى، فخانه التجاوب بين اللونين، لون العشب الأخضر الذى جسد به الحروف - وهى من مدركات الصوت للمغنى أو الناصح - ولون العينين البنى كرمز لأصالة الناصح اليمنى، واللونان لا تناسق بينهما، بالإضافة إلى سطحية النداء والمضاف إليه «الاهتمام» الذى اجترء حشوًا لضبط القافية.

ب - التشخيص :

للتشخيص دور رفيع فى بناء الصورة عند الشاعر، فإلى كونه أداة سحرية فى يد خياله، فإنه من أهم خصائص صورته؛ لأنه المجال الذى يتضح فيه مدى ارتباطه بالاشياء والمعانى، ومدى الحاجة

---

(١) "فى وجه الغزوة الثالثة ١٩٧٥ "وجوه دخانية فى مرايا الليل".
(٢) "زامر القفر العامر ١٩٧٦ "وجوه دخانية فى مرايا الليل".

إلى اكتشاف علاقاتها الخفية وصلتها بنفسه، وإذا كانت "المهمة الأولى والأشد بساطة لدور الصورة الشعرية أن تجسد ماهو تجريدى، وأن تعطيه شكلاً حسياً"[1] فإن التشخيص هو سبيل الشاعر وعالمه الخصب إلى تلك المهمة.

وقد تشكل التشخيص فى صورة البردُّونى حسب استدعاء الأطراف المحسوسة :

يشخص البردُّونى الأشياء الجامدة ، فيبث فيها الحياة؛ ليحيط نفسه بنبضها حوله وفيه، تشاركه موقفه الشعرى وتجربته النفسية ، تتدفق عذبة متلاحمة معه :

بابٌ يستَجلى ، زاويةٌ تُصغى ، مُنعطفٌ كالمكمن
قنديلٌ يسهو كالغَافى ويعى ، كغبىّ يتفطن[2]

فاستجلاء الخبر أو الحقيقة والإصغاء والسهو والإغفاء والوعى والغباء والفطنة ، كلها صفات وأفعال بشرية، أسندها الشاعر إلى الأشياء الجامدة كالباب والزاوية والقنديل ؛ لتشارك لص الليل تحت الأمطار استهجانه للرذيلة وأوكار الدعارة ، حتى الحفر أمام ذلك الوكر غدت ' "مومسات" تستدر المال من الدعارة :

حُفَرٌ ترتجّ روادفُها حِزَم من قشّ تتلحن[3]

وكثيرا مايجتر التشخيص علاقات عميقة فى نفسه منذ صغره، توحى بالألم والانكسار تحت ضربات الليل المستديمة :

تسعُل الأشياءُ كالأطفال كالفئرانِ تزحف
وهْو كالشباكِ سَاهٍ وكحدّ السيفِ مُرهف[4]

فالصورة الأولى ذكريات الفقر والمرض اللذين ألقياه فى دياجير العمى فى صمت البيئة وتواضعها،فالأطفال لا يطول سعالهم فى حضن مجتمع يرعاهم، بينما أوحى لنا الشاعر بثبات الصفه فيهم، إذ كانت الأشياء شبيهة بهم ، وزحف الفقر والمرض إليهم نذير شؤم على أجيال اليمن المتعاقبة، كما يرمز بذلك إلى تدمير حضارة سبأ ، بترك الفئران تنخر فى سد مأرب ..

(١) الدكتور: الطاهر أحمد مكي: الشعر العربى المعاصر ص٨٣، الطبعة الثالثة، دار المعارف ١٩٨٦م.
(٢) "لص تحت الأمطار ١٩٧٣" السفر الى الأيام الخضر.
(٣) نفسه.
(٤) "طيف ليلى ١٩٧٦ "وجوه دخانية فى مرايا الليل".

والصورة الثانية لليل ، تشخيص يخلق مفارقة تصويرية ، فبينما مآثرنا الجميلة وأجيالنا القادمة فى انحطاط وتخريب مقصودين ، يتعاقب الليل ، رمز التخلف والجمود ، كالسيف لا يرحم ، كالشباك لايعلم ، إهداراً لقيمة الإنسان وقيمة الزمن .

ويشخص الليل طرفا فى صورة مزدوجة، تعبر عن الضياع العقلى والخمول السائد فى البناء الذاتى والعمل عند الإنسان اليمنى ، وذلك من امتداد فترة التخلف التى كانت قبل الثورة إلى ما بعد الثورة:

لِبستَ قامةُ الرياحِ جبينى نسى الليلُ رِجله فى وسادى [1]

فالريح والليل ، يجتزئان الإنسان اليمنى ، مابين تعلقه بالطموحات التى تذروها الرياح، والواقع الوضيع الذى لا يشرق عليه نهار.

ومن تشخيص الجوامد، يتفاعل مع الجدران والأرصفة فى حوار وحركة ورمز، ويعتمد فى بث المفاجأة على أسلوبى الحذف والإضمار والتقديم والتأخير:

من أين يا جدرانُ ؟ يا خبرةً تزوّق التمويتَ والسفسفه
من ها هنا .. أو من .. ونجتازنا من قبل أن نجتازها الأرصفه [2]

لايخفى كم هو معجب ، فيه الخصوبة والمفاجأة والجرأة التصويرية، فقد نقل أشياء منسيّة فى الحوارإلى بؤرة الشعور طرفا لصورة كاملة من الجوامد المشخصة ، وقد شاع فى شعره كله استخدام الجوامد أطرافا مشخصة فى صور عديدة؛ للتعبير عن أبعاد المادية المفرطة التى تحولت عقائدفى ضمير الناس والحكومات.[3]

ويرتقى البردُّونى بالتشخيص إلى التشخيص الرمزى المعكوس ؛ هروبا من مباشرة التعبير، وتغطية للكلمات الشائعة فى الصورة ؛ لتكتسب دلالات إيحائية جديده ، فيصور تجاهل الشعب اليمنى للاستعراض العسكرى ، الذى يضم أسلحة ومعدات حديثة تفخر بها الحكومة اليمنية :

(١) "ترثرات محموم ١٩٧٤ "السفر إلى الأيام الخضر".
(٢) "أمام المفترق الأخير ١٩٧٥ "وجوه دخانية فى مرايا الليل".
(٣) انظر ديوانه "وجوه دخانية.."ومنه قصيدتاه:"الغبار والمرائى الباطنية ١٩٧٦ و"وجوه دخانية.."وكذلك" بين الجدار وجدار ١٩٧٧ من ديوانه:"زمان بلا نوعية".

مـــاذا جـــرى ؟ لم يجـرِ شـىءٌ هنا　　صنعــــاءُ ، لا فــرحى ولا آســـفَــه
القـــاتُ ســــاهٍ ، والمقـــاهى علـى　　أكـــوابِهـا ، مـــحنيـــةٌ عـــاكِـفَــه [1]

يقتـحم اللغة الدارجة أداة للتـشخيص فى الـبيت الثانى ، ويبنى بهـما صورة مـزدوجة الدلالة والإيحاء، فـسهو القـات تشخيـص ليمنى يتعـاطاه ، وإيحاء الصورة تأثـير القات المدمـر للإنسان اليمنى ، يجعله تائهـا عن كل حركات التغيير التى تحتاج فيها الحومة إلى عـون نفسى ومعنوى من الشعب ، وكذلك المقاهى التى غدت مأوى الرجال وناديهم ومنتدى لهوهم وعزلتهم عن تطورات العالم الخارجى ومستحدثاته.

جـ - التجسيم :

تتسم صورة البردُّونى التى تعتمد على تجسـيم المجردات بالعنف والحركة السريعة فى اختطاف المجرد، ودمجـه طرفا فى صور مفـاجئة، تحمل طاقـه عالية من الإيحاء الذى يدّوى فى الخـيال بعد التقاطه طرفى الصورة؛ للبراعة فى بنائها بأسلوبه الأثير: المفارقه التصويرية ، والطباق ، بما يحملان من تناقض واصطدام يولدان شحنات هائلـة من المعانى المكثفة، وهو فى تجـسيمه للمَجـرد يلتمس مايختلج داخله من تلك المعانى المتمردة على الواقع ، كرفض الصمت أمام آفة العمى التى يوجدها المرض والفقر:

كـيف نُغـضِى ؟ وللسـؤالاتِ ركضٌ　　تحتَ أهدابِنا، يـخوضُ الغِـمـارا؟ [2]

الصـوره حركـة عنيفـة سـريعة لا يدركـهـا إلا هو ، توحى بالتمـرد والانفـجار فى خـضوعـه واستسلامه لواقع العمى ، ويتعالى فى أنفة وكبرياء على الموت فى تجسيمه له:

لـيس ذا بـدء الـتـــــلاقـى بالـرّدى　　قـــد عـشـــقناه ، وأضـنـانا وصـــال
وانتــــقى من دمـنا .. عـــمّـــتَـــهُ　　واتخـــذنا وجــهـــه النارى نـعــال
نعــــرفُ الموت الذى يـعــــرفنـا　　مـــسّنا قـــتـــلاً ، ودسناه قـتـــال
وتقـــحّـــمنا الـدواهى صـــورا　　أكلـت منّـا ، اكلـناهـا نضـــال [3]

(٣) "يوم ١٣ حزيران ١٩٧٤ "السفر إلى الأيام الخضر".
(١) "سيرة للأيام ١٩٦٨ "مدينة الغد".
(٢) "أحزان وإصرار ١٩٧٤ "السفر إلى الأيام الخضر".

ففى بيته الثانى، يخط مثلثات هندسية من هـبوط الموت إلى الشهداء ليرتقى بعمامة من دمائهم، ثم من صعـودهم إلى "الوجه النارى" للمـوت وهبوطهم به نعالا فى أقـدامهم، وبعد ذلك حـركة المس والدوس وأكل الدواهى، ومـاتشيع تلك الأفـعال من سيطرة على زمام الموت فى التـضحـية للوطن ، وذلك الرسم الهندسى اعتـمد على المفارقـة والطباق، من تصوير حالتى الموت والـشهداء هبـوطا وصعـودا، ثم من جمع الـنقيض إلى التقـيض" الوجه- نعال" (الدم المسكوب - عـمامـة الموت) ، وقد تتولد تلك المفارقة من تجريد الحسى إلى جانب تجسيم المجرد، ويمزجهما فى صورة واحدة مركبة، توحى باستعجاله الهلاك هروبا من العالم :

وإنـى علـى نِصفِ راسى أطيـــــرُ إلى الحـتفِ ، والموتُ ، يمشى المَهَل (١)

فبيـنما يطير هو فى صورة مـجردة على "نصف رأسه "إلى الهلاك والموت ، بلا ضـرب أو قتل مختارا مواطن الموت الحقيقية التى لا يظنها الموت موتا ، يمشى القتل بطيئا متكاسلا ، مع أن طبيعة القتل سريعة ومباشرة ، لأنها بعلّـة كـالسهم أو الضرب أو مرض أو غيره ، فهو يسعى إلى الموت الهادئ الذى بلغـه بعد تفكيـر عميق؛ للهـروب من الإذلال ، بينما القـتل العنيف والذى يجب أن يكون عنيفا ، فقد قوته وتاه عن مهمته.

وقد يخاطـر البردُّونى بنمط الصورة ووحدتهـا النفسية أمـام إغراء التجسيم ، مـن ذلك وصفه لأمسية يصـارع فيها إلهام الإبداع الشعـرى بالكآبة والضجر ، ولقد انتقى نمط الصورة مـن الطبيعة المتحركة، والغرائز التى جبلت عليها، ومن انعكاس ذاته على الأشياء حوله :

كـــغُـــراب يرتمـى فـــوق جَـــراده سـقطت وجـعَى ، تدلّت كـالوسـاده
كنســيـج الطحلبِ الـصـيــفىْ نمت أعشبتْ فيـها ، وفى وجهى البلادهْ (٢)

لقد نقض غزله، لأن حالة الكآبة تستدعى رتابة وبلادة وسكونا باردا ، يناسبها البيت الثانى، أما صورة البيت الأول فـفيها عنف وحركة وانقـضاض ؛ من سقوط الغراب على فريسـته ، مما يستلزم لمحا سريعـا، ومخالب خاطفة ، وربما عـقد فى خياله دون وعى، واعـتماداً على مفهـومنا الشعبى ، صلة بين الغـراب وحالة الشـؤم المسـيطرة عليه، ورغم ذلك نشـتم أنفـاسه خلف الكلمـات وبين السطور ، ولكن..أن يجسم تلك الأمسية الكئيبة فى احتوائها له واختراقها نفسه" بفخذى مرأة بعد

(١) "سباعية الغثيان الرابع ١٩٧٧ "زمان بلا نوعية".
(٢) "أمسية حجرية ١٩٧٥ "وجوه دخانية".

الولادة" فإنه يثير شيئا من الاشمئزاز ورغبة فى الترفق بالصورة ، فقد هربت إيحاءات السأم ، وحلت مشاعر الألم والإشفاق ، وبرزت الصورة فى غير لياقة عاطفية ونفسية ؛ لأن طرفيها يستدعيان نقيضين تماما :

وعلى الجُدرانِ والسقفِ ارتخت مثل فَخذى مرأةٍ بعد الولادة [1]

فما العلاقة بين رجل شبق وفخذى مرأة بعد الولادة؟ وماعلاقة الفخذين فى صورته بارتخاء الأمسية الكئيبة على الجدران والسقف؟ لقد تقطعت أوصال الصورة قبل استدعائها، لعدم وجود الحاجة إلى حقيقتها . فتبددت فى خياله ، وخرجت عن وحدته النفسية ؛ لاختلاف الموقفين واستحالة الجمع بينهما.

د - التجريد :

يعتمد البردُّونى فى رسم صورته كثيرا - بالإضافة إلى الألوان والتراسل والتشخيص والتجسيم - على التجريد ؛ لما له من انطلاقات لا محدودة فى الخيال؛ ولاستبطان المعانى والأفكار واستجلائها فى عالمها المجرد بأداة من ذلك العالم ، وهو لا يجرد المحسوس بالتشبيه المباشر ، بل بصور متراكمة، فيتحول التجريد من مجرد أداة تصويرية إلى خاصية من خصائص صورته.

يصور " الزمن التائه" البطل الحقيقى الأوحد فى الحياة ، ينشئ الصراع ويمحوه ، ويفجر الحضارات ويطفئها وهو لا يدرك سر جبروته، كما لا يشعر الإنسان بسطوته، ويتكئ على العنف والمتناقضات والحركة والتشخيص والتجسيم؛ ليقرب إلينا مفهوم اللغز الذى لم يصرح به، فالقى بظلال الغموض على صوره، ومن شمول الصور يتجرد ماشخصه من قبل:

ساه من مقعده المهمل كسؤالٍ ينسى أن يَسأل
كحريق يبحث عن نار فيه ، عن وَقدته يَذهل
كجنين فى نهدى أمٍّ لهفى تتمنى أن تحبل [2]

وعندما يكون "هو" طرفا فى صورة مجردة، يوغل فى التجريد؛ تكثيفا للحالة الذهنية التى تعتريه لحظة الإبداع ، "فهو" لحن ووعد ووحدة زمنية ومواقف من صنع الألوهية:

---

(١) "أمسية حجرية ١٩٧٥ "وجوه دخانية.."

(٢) "الفاتح الأعزل" من: لعينى أم بلقيس".

الـوهـةٌ تـعـــــــزفُنـي وعـــداً غـــريبَ الوشـــوشـــه
دقـــــائقـــــاً ورديـةً مـــواقـــفـــاً مـــرتعـــشـــه (١)

وقد يمزج التجريد بالتشخيص، فتأخذ الصورة مستويين؛ إيحاء بحالة بطله النفسية وتقريرا لمستوى مادي يبثه موقفه، ويحذر من فساده "كلصّ الليل"، يرتاب فى كل شىء ويتوقع المفاجأة من الجوامد، فيبنى الخوف منه ناقدا فى حالة فزع، تثنيه عن مهمته التى خرج من أجلها:

وهـنا شـــبّـــاكٌ يـلـحـظُنـى شـبحٌ فى وجـهـي يتـمـعّن
شىءٌ يهـتـزّ كـعـوسَجَـة وعلى قـدمَـيـه يتـوثّن
حُـفَـرٌ ترتجّ روادِفُـهـاً حِـزَمٌ مـن قشٍ تـتَـلـحن (٢)

فالبطل أو الشاعر فى حالة الفزع ، تصور له الأوهام الجوامد مجردات والعكس ، ولم يفته التحذير من شيوع الدعارة ؛ نتيجة الفقر والظلم فى توزيع الثروات ، وهو يرمز إلى الفتيات الفقيرات، بحزم القش ، التى تصير لحنا أمام إغراء المادة والجنس .

ويجرد البردُّونى المرأة من الصفات الحسية ، وينسب إليها صورا مستمدة من الطبيعة الصامتة، فتشع بالنور والألوان والحياة، باعتبار أن المرأة الريفية جزء من هذه الطبيعة الآسرة، فها هو ذا قد وصف المرأة بصفات مجردة تنزع إلى المثالية الشفيفة المستقرة فى خيال الشاعر فقط ، وتبدو تلك المثالية المجردة أكثر فى وصفه "لغزال" الجميلة الريفية، إذ يجردها من مجموع المدركات الحسية، فهى الغناء والصيف والشذا والرنوّ والقبلات والصباح والسحر:

وكـانـت "غـزالُ" غنَاءَ الـرّعـاة وصـيـفَ الربَى ، وشـذا المنحَـدَر
مـآزرُهـا ، من رنُوّ الحـقـولَ إليـهـا ، ومـن قُـبُـلات النّهـر
وقـامَـتُـهـا ، من عـمـودِ الصبـاحِ ذوائبُهـا ، من خُـيوطِ السّحـر (٣)

فالتجريد عند البردُّونى لا يأتى تهويما ، ولكن تدريجيا من مجموع الصفات المجردة أو الحسية وشمولها، والتجريد بذلك طاقة فياضة بالإيحاءات البعيدة التى يلتقطها الخيال المصور فى وحدة نفسية واحدة .

---

(١) "طقوس الحرف ١٩٧٣" من "السفر إلى الأيام الخضر".
(٢) "لص تحت الأمطار ١٩٧٣" من "السفر إلى الأيام الخضر".
(٣) "أصبل القرية ١٩٦٧" من ديوان "مدينة الغد".

هـ - الصورة الصوتية :

يتميز البردُّونى بشفافية السمع ، ورهافة استجلاء الصوت من مصدره، وقد كان السمع البديل الأمين لفقدان البصر ، الذى يميز به الأشياء والأصوات والعلوم والثقافات ، ومعجمه اللغوى الغزير نقل إلينا هذه الشفافية فى صدق وبساطة رفيعة، فأحيانا تكون صورته عنيفة، نسمع فيها الطحن والكسر والتدمير والحركة القوية المصحوبة بالغضب وتتابع الأنفاس ؛ تجسيدا لحالته النفسية من سوء الأوضاع السياسية والظلم فى توزيع الحقوق ، وهو يرتقب تغييرا حاسما :

الليلُ خريفىٌّ أرعَن ... يهمِى ، يدوى ، يرمى ، يطعن
يأتى ويعود كطاحون ... أحجاراً وزجاجاً يطحن
يعدُو كالأدغال الغَضْبَى ... يسترخِى ، يَفغَر كالمدفن
ويشمّ بأذنَيهِ ، يرنُو ... قلقاً كرقيبٍ يتكهن (١)

ويعتمد فى تعميق الصورة على مزج المتناقضات والطباق اللفظى مثل: يأتى ويعود يعدو ويسترخى، وذلك الخلط يبرز بالنقيض عنف الحركة من تصادم الأفعال ، كما كان التشخيص أداته الأولى لبناء الصورة فى تصويره رعونة الليل وطيشه وتحولاته السريعة، ونضم الصورة طرفا من تراسل الحواس فى قوله : ويشم بأذنيه ؛ لإظهار حساسية السمع عند الرقيب الحارس .

وقد تكون الصورة الصوتية عنيفة بإيحاءات الصوت فقط دون اعتماد على دلالته كالطحن والزجاج وغيره كما سبق، فنجد إدراكه للفوارق الصوتية الحساسة عالية ومنخفضة متناهية الدقة، من ذلك تصويره لما يدور حوله فى بيت عجوز تديره وكرا للدعارة، وقد أتاه بريئا دون سابق علم بذلك:

وهنا انتزعتنى قهقهةٌ ... وصدى نحنحة مغلوله
فسمعتُ من الغُرف الأخرى ... أنفاسَ حنايَا متبُوله
بوحاً كالحَبل المستَرخِى ... تحتَ الأثوابِ المبلوله
نبرات نداء وجَواب ... كلمات عجوز مسعوله
ضحكاتَ ذئابٍ جائعَةً ... همساتِ نعاجٍ مَأكوله (٢)

فالقهقهة ، والصدى ، والنحنحة ، وسمعت، وأنفاس ، وبوح، ونبرات، نداء وجواب ،

---

(١) "لص تحت الأمطار ١٩٧٣ من ديوان "السفر إلى الأيام الخضر".
(٢) " فى بيتها العريق ١٩٧٠ "من" لعينى أم بلقيس".

وكلمات ومسعولة ، وضحكات وهمسات ، كلها أصوات تأتى من مصادر مختلفة تعلو وتهبط يصفها بدقة شديدة، بالإضافة إلى الكلمات التى توحى بأنواع أخرى من الصوت الظاهر أو الباطن، مثل: مغلولة وحنايا متبولة ، والحبل المسترخى تحت الأثواب المبلولة عند جذبه ، ومأكولة. وكثيراما يجتر البردُّونى كلمات ذات إيحاء صوتى يشير إلى البيئة التى نشأ فيها وكل بيئة فقيرة مثل: يطبخ، يحتسى، يسعل :

وهناك كانت قريةٌ تجثو كما ارتكم الرميم
جوعى ويطبخها الهجير وتحتسى دمَها السَّمُوم
تروى حكاياها الشقوبُ فيسعُل الجو الكليم (١)

وبإسناد تلك الأصوات إلى كلمات ذات دلالة قوية، تأخذ مفهوما أشمل وأعم ، فالطبخ للهجير ، والاحتساء لريح السموم، والسعال للجو الجريح، كما يشيع فى الصورة أيضا إيحاءات اللون فى: قرية ، دمها.

كما يعتمد البردُّونى فى تصويره الصوتى على الإرتقاء والتدرج بالصورة البسيطة إلى صورةكليه مركبة ، من خلال براعته فى إدراك تحولات طبيعة الصوت عنده :

وتهمسين لى ، كما	يندَى اخضرار الأوديه
كما تبوحُ جنة	حُبلى بأسخَى الأعطيه
فيشرئبّ منزلى	من الشقوب المُصغيه
عُريانَ يغزلُ الصّدى	اسرّةً وأغطيَه (٢)

فالهمس من محبوبته إليه ، كالندى فوق الخضرة، ويرتقى الهمس إلى بوح الجنة بالعطور والألوان والثمار، ويعم تأثير الصوت المنزل ذا الآذان المتلهفة، فيتحول فيه البوح ضدى يتجسد فيه الحب والدفء والطمأنينة ، يتوسده الشاعر كطفل برىء.

و - الصورة العضوية :

إن من أهم خصائص الصورة عند البردُّونى، الفصل والتجزىء بين أوصال جسمه لتشكيل

(١) "حكاية سنين ١٩٦٥" من "مدينة الغد".
(٢) "من أين؟" من ديوان "مدينة الغد".

الصورة الحسية العضوية ، فالصورة هنا تقوم على حاسة اللمس الخاصة به، ومما جعلنا نتناول هذه الخاصية ذكره لمعظم أجزاء الجسم: الرأس، الوجه، الأنف، العين، الحواجب، الرجل، الجثة، الكف، الفم، اليد، الفخذ، الجلد، الجمجمة، الشارب، العرق، البطن، الظهر، الخاصرة، الأذن، الأصابع، وأكثر من ذلك فى دواوينه، وذلك التفتيت الجسدى فى تركيب الصورة الحسية يكثف الإحساس بارتباط الحدث به وليعبر بوضوح عن تفاعل أعضائه بالحدث كأنها مستقلة تشاركه حالته النفسية، وهو بذلك يوحى بمشاعر الانقسام التى منى بها الإنسان العربى فى العصور المتأخرة بين التمسك بالماضى والافتخار به، وغرابة الحاضر وانحطاطه، بين طموحاته وواقعه، ويوحى كذلك بحجم الضغوط النفسية التى يعيشها كشاعر يحمل هموم أمته على كاهله، ففى تصويره للإعلام ومبالغته وأكاذيبه، يتحول الرأس والعقل إلى جريدة ملفوفة ، ويصبح السير على الجثة، وتتسع الهوة بين الكف والفم ، رغم تلقائية العلاقه بينهما :

كـان راسى فى يدى مثل اللفافه وأنا أمشى كباعات الصحافه
بين رجلى وطريقى جُثتى بين كَفّى وفمى عنفُ المسافه [1]

ويعبر عن قتل الحكومات العربية طموح شعبها مستخدمة نباهته فى تدميره : لاستقطاب نبوغه بعيداً عن مجالات تفضحها وتبرز مساوئها :

بى يرفُلونَ ليحفروا بيَدَىّ فى فَخذَىّ لَحدى
من جلدىَ الخشبىّ أخرجُ تدخلُ الأزمانُ جِلدى [2]

والحكومات مجرد آلة تنفذ مايملى عليها من الدو ل الاستعمارية حفاظا على مصالح أفرادها، فيخضع الإنسان لتحقيقات هادفة إلى ترويضه فى مجالات تلهيه عن كيانه كالنوم والسجن ، والضياع، فى الأسواق التى تكدست ببضائع الجنس والرذيلة فجسمه فى مرقده، وفكره سجين ، وأصالته وتفرده ضائعان:

نعم.. أين كنتَ الأمسَ؟ كنتُ بمرقدى وجمجمتى فى السّجنِ، فى السوق شَارِبى [3]

وقد يكون الشاعر نفسه طرفى الصورة لحظة الولادة الشعريه، فيكون الفاعل والمصدر والمفعول، إيغالا للتعبير بفكرة التجزىء الجسدى التى اختص بها، ويقيم علاقات نفسية مع

(١) 'بين الرجل والطريق ١٩٧٥ 'من 'وجوه دخانية..'
(٢) 'صياد البروق ١٩٧٦ 'من 'وجوه دخانية..'.
(٣) 'سندباد يمنى فى مقعد التحقيق ١٩٧٥ 'وجوه دخانية..'.

الأشياء المجردة والمحسوسة، مستخدما تراسل الحواس، فالصدى وهو من مدركات السمع، غدا من مدركات اللمس والرؤية، فيرقمه كما يرقم مسألة حسابية، ولا يمحو الرقم الصدى، بل ينمحى هو، والصورتان لا علاقة بينهما ولا رابط سوى حرف العطف، فمن حيث الوجود الذهنى، هو فاعل الأولى، ومفعول الثانية بلا فاعل سواه، فهو الرقم وهو الخربشة التى محيت، وهو الصلاة والدروشة، وهو الندى والتربة المنداة :

هنا أرقَمُ الصّدى　　وانمَحى كالخربَشَه
وكالصّلاة أرتَقى　　وارتمى كالدّروشه
أهمِى ندًى وارتَخِى　　كالتربةِ المرششه (١)

وتعتبر الموسيقى فى الصورة المركبة أداة موحية، تساعد فى توازن مستوياتها الذهنية والمادية، الشاعر والمصادر وجه الشبه فى الصورة، وهو يتعمد تجريدها بالموسيقى الداخلية، ويجلب للإيقاع كلمات متحدة الوزن رغم تضادها: أرتقى، أرتمى، وكلمات متضادة : أرقم، أنمحى.

ز- المزج بين عناصر تشكيل الصورة :

يمزج البردُّونى عناصر تشكيل الصورة، كالتشخيص والتجريد والتراسل ومزج المتناقضات، فى حشد من الصور المفردة المتتابعة، التى توحى مجتمعة بالعبث التصويرى الذى يهدف إليه، لإثارة التوتر والقلق فى خيال المتلقى؛ ليعيش تجربة الشاعر النفسية، كما يشيع ذلك المزج نوعا من الغموض الغنى بالإيحاءات؛ فالصورة هنا، مزيج يولد أفكارا مجردة، ويكشفها بإيحاء الألوان والحركة وتناقض العلاقات بين الصور المتتابعة، ولكنها تخضع لوحدة نفسية واحدة، فالريح هنا مقام الموت الذى استقال أو أقيل لاستقامته ونزاهته فى سلب الأرواح، وغدت الريح قوة لها ما للموت ولكنها أبشع، لأنها تشوه وتشكل وتفتت وتبعث الروح فى الأشياء المهشمة :

للريحِ أيد من شِفَارِ المُدى　　وقامةٌ قشّيةُ الأعمده
ترمّد الأقباسَ، تُدمى الضّحى　　وللحزانَى تعجنُ الأرمَده
ما هذه؟ رجلٌ أتت وحدَها،　　جمجمةٌ طارت، هوت مفرَده
سيّارة، فيلٌ على نملة،　　عصفورةٌ عن سربها مُبعَده
ألوانُ أصواتٍ كهَجس الحَصَى　　تلويحةٌ، كالمُدية المغمَده (٢)

---

(١) "طقوس الحرف ١٩٧٣" "من "السفر إلى الأيام الخضر".
(٢) "استقالة الموت ١٩٧٨ "من ديوان" زمان بلا نوعية".

ففى هذا الزمان «بلا نوعية» تحطمت نواميس الكون وقوانين الحياة، ليسود التناقض والنشاز، وتعم الفوضى، والشاعر لم يعبر عن ذلك مباشرة، بل أوحى من تركيب الصورة وتراكم الصور التشخيصية والعبثية والحسية التى استلهم فى بنائها روح السريالية، التى تعتمد على الإغراب والمفاجأة والتشويه، ولقد اختار الريح كشىء دارج الدلالة، وبتجسيده ألبسه طاقة عصبية فياضة بالحركة والتلوين والعبث، ويتفرد هنا شاعرنا بأنه يبث الحياة فى الأجزاء البشرية ليجعلها مستقلة فى توترها إزاء انعكاس نواميس الحياة، فالرجل والجمجمة شخصان فى حركتهما المفاجئة، ومنظران شائهان فى لوحة سريالية ذات ظلال كئيبة، ولقد توسطت صورة الأجزاء المهمشة تشخيص الريح وأفعالها وعبث الأشياء فى البيت الرابع؛ ليوحى أن الإنسان ميزان الحياة والأشياء، فعند ضياع روحه يتجزأ وينفصم، فتهوى الطبيعة الصامتة والمتحركة إلى مستوى يضره ويهدد وجوده.

ح – توليد الصور من اصطدامها :

من خصائص الصورة أيضًا عند البردُّونى، بناؤها على طرفين متناقضين، كأنها مسلمات يقينية، والقياس عليها فى صورة أخرى، هى فى صورة كلية، والصورة الأخرى، تقوم أيضًا على طرفين متناقضين، وتلك الضرورة الفنية المميزة، يستخدمها عندما يرى ضرورة تغيير الواقع واستحالة التغيير فى آن معاً، فاصطدام الصور وسيلة فنية معقدة، ارتقى بها الشاعر؛ لأنها نابعة من شمول رؤيته للحياة، ومن اصطدام المثالية المنشودة بالواقع المتدنى، فيجعل المسلمات مستحيلة الحدوث والتخيل فى الحقيقة قياسًا ثابتًا لحقائق مستحيلة أيضاً، فالصورة فاتحة لاجتماع النقيض بالنقيض بلا أدنى تفاعل سوى ارتطام أركانها ومعانيها، وكل طرف فيها مستقل فى ذاته، له علاقة وثيقة وخفية بذاته هو، فيثير فى ذهن المتلقى فكرة مفادها «استحالة التغيير» بمنطق العقل والعاطفة، وقد جاء عنوان القصيدة مناسبًا فى بساطته لحالته الذهنية «غير كل هذا» الذى يجرى فى عالمنا، فيلجأ إلى بناء عوالم متناقضة وتصورات ليست موجودة إلا فى خياله :

مثلما تهرم فى الصلب الأجنه	تأسن الأمطار فى جوف الدجنه
يحبل الرعد ، ويحسو حمله	ثم يستمنى غباراً واسنه
تمطر الأعماق نفطاً ودماً	يحلم الغيث بأرض ، مطمئنه
يعشب الرمل رمالاً وحصى	يستحيل الغيم ، بيداً مرجحنه
ينطوى البرق على إيماضه	كتغاضى عمة عن طيش "كنه"
تأكل العفة من أثدائها	يغتدى القتل على المقتول منه

ويخرج من خضم الغموض والقتامة؛ ليصرح بشيء من الذى يريده:

يـتـغى النبت الندى ، أرضـاً سـوى ... هـذه المـوطـوءة الـقـلـب المسـنـه
وســمــاء غــيــر هذى ، تنجلى ... مـن وراء الحـلـم مـن تحت الأكـنـه
وربى أخـرى ، صـبـايا للضـحى ، ... من حـكاياهن لـشـفــات وغـنـه
عــــــالماً ، يـأتـى بـلا بـادرة ... زمناً ، مـن لا مـتى ، من لا مـظنه [1]

فهرم الأجنة فى الصلب مستحيل، وكذلك ركـود الأمطار فى الغيم، واحتساء الرعد حمله من الماء، ثم استمناؤه الغبار والرماح مستحيل، على ذلك أبياته المصورة، متقابلات مضادة، تفسر الخيال الذى ولدت منه، وخاصية التركيب التى تولد من اصطدامها «معنى» لم يجد الشاعر لإحيائه أفضل من التناقص فى أطراف الصور، وبعد ذلك .. فى أبياته الأربعة الأخيرة، يوضح مفهومه، ويسترسل فى استجلائه ليخفف عن المتلقى انطفاءة التخيل من سيل المتناقصات فى القصيدة.

(٣) وظيفة الصورة:

من أهم وظائف الصورة عند البردُونى أنها تعبيرية، تخلق لتسبر أغوار نفسه، وتخترق نتوءات شخصياته، فهى تعبير عما «لا يمكن التعبير عنه إلا بالصورة» لتباعده عن مناطق الإدراك الحسى المباشر [2]، كما أنها تفسير وحل للغة واتساع دلالاتها المعجمية والإيحائية التى تنشأ من الإسناد أو التناقض أو التصادم، على اعتبار أن اللغة لا تنفصل عن الصورة لينوب عنها لغة غيرها للتصوير، فالصورة وحدة لغوية وأسلوبية وموسيقية، فى إطار نفسى عميق يشدها إلى روح واحدة، وهى بذلك وسيلة تشمل الحركة والضوء والألوان والصمت والظلام وانعدام اللون، يستخدمها الشاعر ويحملها من الأفكار مالا يخرج إلا بها .. فعندما تنازعه نفسه، ويتمزق بين الرغبة الجنسية العارمة ورباطه الأخلاقى فى مجتمع ملتزم، يلجأ إلى الصورة للتعبير عن تلك الحالة، واضطرابه النفسى ينعكس على تشخيصه للأشياء من حوله، فيستوحى من السريالية حلمها المفزع، بما فيه من المفاجأة والتشويه والتكسير المتعمد لعرف الأشياء، فالسقوف استحالت أشخاصًا خرسًا لها أيد مخيفة وخفية، ويتسمع أنفاسًا مفزعة، كما استحالت الأركان أذرعاً، والكوى عيونًا مترقبة :

(١) 'غير كل هذا ١٩٨١ 'من ديوان' ترجمة رملية لأعراس الغبار'.
(٢) د. محمد حسن عبد الله: الصورة والبناء الشعرى ص١٤٨، دار المعارف سنة١٩٨١.

هذه الأمسية الكسلى الغريبه مرحٌ خاب ، ولذّاتٌ كئيبه
السقوفُ الخُرسُ أيدٍ لا ترى ووراء البابِ أنفاسٌ مريبه
والزوايا أذرع مجهولة والكوى عينا رقيب أو رقيبه [1]

وهذه الكوابيس الرمزية، جاءت للتعبير عن ذاته القلقة بين رغبة الجنس والالتزام، مع علمه أن الفنان ملك غريزته التى هى عنصر بناء فى صرح فنه، فهى انعكاس للطبيعة فى ذاته، ترده إلى حرية الجسد من قيود الالتزام، وإلى حرية الفكر من المبادئ التى تسيطر على الملكة وتدفعها إلى دهاليز ضيقة ، وإلى حرية الذهن لتتولد النشوة، فالفنان لذلك ضعيف أمام الغريزة دون غيره من الناس، ولكنّ البردُّونى – على الأغلب – يرتقى فوق ضعفه، ليعبربا لفضيلة إلى عالمها، وذلك لإدراكه مسئوليته وتأثيره فى جموع شباب وطنه، فوقف عند الظنون والمنازعات النفسية، ويقر بالخطأ فيها ولا يتجاوزها :

ربما أخطات ، لكنْ قلقٌ يعتريني ، واحتمالاتٌ قريبه [2]

فكانت الصورة «تهذيبًا لغرائز الإنسان من خلال الخيال، ولا تزال هذه الوظيفة إحدى الوظائف المهمة للشعر». [3]

وما أصعب وأحلى التعبير عن حالة الخلق والإبداع الشعرى بالصورة، ويتبلور هذا فى إرهاصات الولادة، وتحولات الأشياء إلى النقيض، وبث الحياة فيها، بعد انفجار الحالة، ودغدغة الصمت :

يا صمت ، ما أحناك لو تستطيع تلفنى ، أو أننى أستطيع
لكن شيئاً داخلى يلتظى فيُخفق الثلج ، ويظمى الربيع
يبكى ، يغنى ، يجتدى سامعاً ، وهو المغنى والصدى والسميع
يهذى ، فيجثو الليل فى أضلعى يشوى هزيعاً ، أو يدمى هزيع
وتطبخ الشهب رماد الضحى وتطحن الريح عشايا الصقيع
ويلهث الصبح كمهجورة يجتاح نهديها خيال الضجيج [4]

فالصورة كما نرى، تعبير عن حالة ذهنية تخلق وتدمر وتشخص وتبنى ، عوالم متباعدة فى

---

(١) «عند مجهولة ١٩٦٩» من ديوان «مدينة الغد».
(٢) نفسها.
(٣) د. سيسل دى لويس: الصورة الشعرية ص٣٤، ترجمة:د. احمد نصيف الجنابى، بغداد سنة١٩٨٢ .
(٤) «فاتحة ١٩٦٨» من ديوان «مدينة الغد».

مناطق الحس والشعور ، تلملم الحزن والنشوة والتشاؤم والقوة والعنف والجنس والغريزة ، وتقوم فى بنائها على استلهام الصوت والألوان والضوء والنار ، كما تعتمد على حاسة اللمس ، ويقع الشاعر أسير نزعته الجنسية فى صورته الأخيرة، فى تشخيص الصبح البكر مهجورة المضجع عنيفة الشوق الجنسى العارم ، ولكل كلمة فيها دلالة تسقط على خيال الشاعر الشبق، يلهث، كمهجورة، يجتاح، نهديها، الضجيع، وتقوم الكلمات نفسها بجرسها الموسيقى بإيحاءات أعنف للتعبير عن الحالة الذهنية الجنسية، كالمد فى مهجورة والضجيع وكلاهما بعد الجيم، وهو صوت انفجارى، أوحى ببركان الرغبة ، والمد فى الكلمات القوية : "يجتاح" "خيال" ، أبرز لين التثنية بينهما فى نهديها، كما ارتقى بالصورة إلى مستويات إيقاع مختلفة . إذن لا يقوم بنقل ذلك العالم الداخلى للشاعر غير الصورة لما تملك من قوه إيحائية مكثفة.

وحينما يعبر عن مشاعر امرأة تترقب عودة زوجها الفقيد ، كانت الصورة البوح والشكوى وحالة التوتر التى تعيشها بطلة قصيدته ، وكانت الصورة حركة الزمن الذى يدغدغ كل حين آمالها ، ففى طياته الغموض والحقد ، والطريق أرواح قلقة ، والربوات تضيع دمها فى الهجير؛ لتبحث عن ذكريات الشتاء البائدة، لقد غدت البطلة روحافى الأشياء الجامدة والمعانى المجردة، ونشتم رائحة السريالية ، فالربوات تتمطى كليل "امرئ القيس" ولكنها " تبصق" الزمن الذى حدثت فيه الفجيعة، وتنبش عن دفء الماضى:

وعلى التصاقكَ باحتمالى أقلقت ... عينَاى مضطجَع الطريق الهامد
وامتدّ فصلٌ فى انتظارك وابتدا ... فصلٌ تلفّح بالدّخَان الحاقد
وتمطت الربواتُ تبصق عمرها ... دمها وتحفر عن شتاء بائد (١)

وتكون الصورة حكاية أو الحكاية صورةحسية مكثفة المشاعر والآلام ، تنقل بأمانة مشاعر الأنثى فى حالة ضعفها ووحدتها بلا زوجها، وتبلغ الصورة ذروة التأثير من تشبيه الزوجة بالطائر الكسير :

وغداةَ يومٍ عاد آخر موكب ... فشممت خطوك فى الزحام الراعد
وجمعتُ شخصَك بنيةً وملامحا ... من كل وجه فى اللقاء الحاشد
حتى اقتربتُ، وأم كلّ بيته ... فتشت عنك بلا احتمال واعد
من ذا رآك ؟ وأين أنت ؟ ولا صدى ... أومى إليك ، ولا إجابة عائد
وإلى انتظارِ البيتِ عُدتُ كطائرٍ ... قلقٍ ينوءُ على جناحٍ واحد (٢)

(١) "امرأة الفقيد ١٩٦٤ "من ديوان "مدينة الغد".
(٢) نفسها.

ويعتمد البردُّونى فى صوره السابقة على تركيبات لغوية شديدة التفرد الخاص به، مثل: "على التصاقك باحتمالى" فرغم تجريد الكلمتين ، ينفذ بهما عمق الأمل الأنثوى المتجدد، واللفظان دارجان، ولكن جاءا جديدين، ومثل : مضطجع الطريق، ومافيه من تشخيص، ومثل: الدخان الحاقد، وتمطت الربوات، "وتبصق" عمرها: والفعل غير مستساغ من اللياقه العاطفية مع الصورة، ولكن فى حالة قلق الأشياء وتوترها تتجاوزه الأعين ولا يستفزه، ومثل: إلى انتظار البيت : وما يشيع الانتظار المجرد من كآبة جديدة، فالشاعر لا يعتمد على إغراب اللغة للإيحاء بالمعانى المبتكرة، ولكن يجدد اللغة فى الصورة ، بحداثة فى نمط التركيب وبراعة التصوير ، وهولا يترك عنصرا للتشكيل إلا ووظفه فى أحسن استخدام كالتراسل فى قوله: فشممت خطوك ، والخطو من مدركات السمع لوقعه.

وقديعبر عن حالات الخوف والعزلة : فيجسدها فى الجوامد ، فتوحى الصورة بالحالة من خلال العلاقة التى انعقدت بين البطلة وتلك الجوامد:

لا تنطفى يا شمسُ ، غاباتُ الدجى	يأكلنَ وجهى ، يستلعنَ مراقدى
وسهدَتْ ، والجدرانُ تُصغى مثلما	أُصغى ، وتسعُل كالجريح السّاهد
والسقفُ يسأل : وجنتىّ لمن هما ؟	ولمن فمى؟ وغرورُ صدرى الناهد؟[1]

والصورة الأخيرة "مونولوج" داخلى ، يوحى بدخائل المرأة ، وبداهة الغريزة المتفجرة منها، وخضوعها فى مختلف الحالات النفسية لطغيان الغريزة والجنس، والصورة قد تكون دارجة المعنى فى بعض الأوساط المتواضعة ، ولكنها أمينة فى فهم المرأة وتحولاتها الباطنة.

كما كان للصورة دور رائد فى رحلة كفاح الشاعر ضد حكم الأئمة فى اليمن قبل الثورة ، أحال بها الغضب المتأجج فى نفوس الشعب ، غضبا ثوريا فعالا، وأهم أدوات ذلك النوع من الصور: المفارقة التصويرية بين أوضاع الشعب والحاكمين، ويستلهم لشعبه الصفات الرفيعة وعكسها فى الإمام وحاشيته، ويستنفر همتهم بأن الطغيان نتيجة الضعف، وأن الأمانى الحرة قد أفاقت ، أما الأفعال والأفكار فما زالت مع الناس فى سبات عميق ، وهؤلاء الحاكمون عبيد المال والهوى والجنس، ويعقب بتحذيرهم من غِضب الكادحين الكاسر. وهو هنا يترسم خطى الشاعر الأندلسى " أبى أسحاق الإلبيرى" الذى فجّر بقصيدتة ثورة غرناطة على اليهود[2]، وبين

---

(١) نفسها.

(٢) انظر: دراسات أندلسية للدكتور: الطاهر أحمد مكى ص٧٩، الطبعة الأولى، دار المعارف سنة ١٩٨٠م.

القصيدتين تشابه كبير ، فى نمط الأفكار وترتيبها لاستفزاز الشعب ضد الظلم، مع الفارق أن أبا إسحاق كان يحافظ على ولائه للأمير باديس بن حبوس رئيس قبيلة صنهاجة، أما البردونى فلا يبكى على شىء، كما اتفق الشاعران فى اختيار بحر المتقارب وقعا موسيقيا يساعد على تسلسل الأفكار وتدفق المشاعر فى سرعه فهم وإدراك ، وكذلك انتقاء اللغة المفهومة الدارجة، كما أن لغة البردونى وتركيبه أكثر تصويراً من أبى إسحاق ، فعلى حين يبدأ أبو أسحاق بالخطابية المباشرة:

ألا قل لصنهاجةٍ أجمعين بُدورِ الندىّ وأسدِ العرين (١)

يستهل البردونى بالصورة:

أخى صحونُا كله مأتم وإغفاؤنا ألم أبكم
فهل تلد النورَ أحلامُنا ؟ كما يلد الزهرة البرعم ؟ (٢)

وكذلك شاركت الصورة بعد الثورة ، للتعبير عن الحرمان وعدم الاتزان وفقدان الثقة فى الذين كانوا أحرارا فتسلقوا الحكم فتاهت فى ضمائرهم الثورة، فتحطمت آمال الشعب ، فيعود الشاعر إلى الليل رمز استمرار الظلم الذى مازال جاثما فى اليمن :

والليل بحر من دخان شاطئاه من الدماء
جوعان يبتلع الرؤى ويمجّ دمع الأشقياء
يهذى كما يروى المشعوذ معجزات الأنبياء
ويعب خمراً من دم الذكرى جحيمى الإناء (٣)

فقد تشابكت خيوط الظلام : الليل والدخان والدماء وما توحى من ألوان السواد والأحمر القانى، وانصهرت فى مدركات اللمس والصوت : يبتلع (باعتبار البلع فى الصورة ليس تذوقا) ، يمج، يعب، يهذى، يروى، وقد استلهم من التراث الشعبى مفارقته بين الشعوذة والنبوة ، بين الذى كان يقال قبل الثورة، ثم أصبح دجلا.

وفى تقلبات الحكم ، يعتلى السلطة من يركبون كل تيار ، ليس لهم وطن سوى مصالحهم ، فيدمرون فى سبيلها المثاليات والشعب ، ويتحالفون مع قوى خفية ، تدس أقدامها فى رقاب

(١) نفسه ص٨٥.
(٢) انظر القصيدة كاملة: نحن والحاكمون سنة ١٩٦١ 'ديوان' فى طريق الفجر'.
(٣) 'سلوى سنة ١٩٦٣ ' ديوان' فى طريق الفجر'.

الشعب، والبردُّونى ليوحى بذلك، يسرد الصور ويداخلها قاصدا إلى التهويم والإغراب، ويجعل لها خلفية من الليل المسيطر على كل شىء ونفسه، ويسدل خلفية من الأنقاض والغيوم الدامية والأرض الضائعة ، ومع ذلك فيوجد التنسم بعبق الماضى التليد ، وإذا بصوت الانتهازية أو المصالح ، قد دمر الطريق ليصل إلى: "المذياع" فهؤلاء ارتدوا قميص الأحرار ليبيعوا وطنهم كما باعوا أمهاتهم :

كان الدجى : يخلع السرى ويلبسنى	وكنت ألبس أنقاضى وأنتعل
وكان يبحث فى الغيمات عن دمه	وكانت الأرض عن رجلىّ تنفصل
وكنت أسرد عن بلقيسَ أغنيةً	مدادُ من كتبوها العطرُ والعسل
وكان يفترس المذياع من سقطوا	ويرتدى وجه من قاموا من احتفلوا
من ضاجعوا الشمس فى سروال والدها	من وزعوا أمّهم، فى بعض ما بذلوا[1]

فالصورة فى ثلاثة الأبيات الأولى ذهنية ، ولكنها أوحت بالملموس لتقريبها من إدراك المتلقى، وقد كانت الإثارة فيها من التشخيص وإيحاءات اللون والصوت والحركة، فهى مكثفة ومتناثرة فى وحدة نفسية عميقة، تعبر عن أبعاد إحساس الشاعر بإخفاق الثورة، وخيبة اليمن فى أبنائه ، وضياعه بين الماضى المشرق والحاضر القاتم الذى يقوده هؤلاء الانتهازيون الوصوليون.

(٤) طبيعة الصورة:

ونقصد بالطبيعة "تلك الصفات التى تحدد بمجموعها كينونة الشىء[2] ، فالصورة عند البردُّونى المعادل لجوهر الواقع وحقيقة الأشياء الباطنة والكامنة وراء الظواهر، إذن هى طبيعة خاصة به ، رسمت فى ذهنه ،وهو لايباشر الحقيقة بالمحاكاة أو التوضيح ،بل يدفعها إلى عروق ذاته، لتخرج خليطا من حقيقتين ،صبغتا بنمطه وأسلوبه فى التعبير، حقيقة الشىء المصور،وحقيقة النفس المصورة، والصورة بهذا المفهوم لبنة حية فى بنائه الفنى،وفى بنائه النفسى المعبر بالصورة فى دقة وشفافية، دون أن يعرقل الشاعر مادة الصورة كاللغة والأسلوب والإيقاع، لأن هذه المادة تعد من جوهر الصورة لاتنفصم عنها، وتأتى البراعة الفنية من القدرة على مزج تلك المادة بالفكرة،

---

(١) "أمين سر الزوابع ١٩٧٩ "ديوان" ترجمة رملية لأعراس الغبار".
(٢) د. مجدى وهبة: معجم مصطلحات الأدب ص٣٤٤، مكتبة لبنان، بيروت سنة ١٩٧٤.

وهومايمتاز به البردُّونى، إذ تتصف صورته بمجموعة من الصفات التى ترسم بوضوح طبيعة التصوير:

أ - التلقائية والعفوية :

وتأتى هذه الصفة من جرأته على التقاط طرفى الصورة، وإقناعنا - رغم تباعدهما عن الإدراك المباشر- بانصهارهما فى وحدة نفسيةآسرة، يمتزج فيها التصوير الذهنى بالحسى، واستدعاء الموروث التاريخى والدينى، واستخدام تراسل الحواس، والصوت والنور والحركة واللون، مع روح تشيع فى كل كلمة نسيجا من خامة واحدة، وآلة واحدة٠

ففى مدحه للزعيم جمال عبد الناصر عند زيارته اليمن بعد ثورة سنة ١٩٦٢ بعامين، تبدو صفة التلقائية :

جـمـالٌ، فكلّ طريقٍ فمٌ	يحيّى، وأيد تبثّ الزهر
ترامت إليه القرى والكهوف	تولى جموع، وتأتى زمر
وهزت إليه حشود الحسان	مناديل من ضحكات القمر
ولاقته "صنعاء" لقيا الصغار	أباً عاد تحت لواء الظفر
تلامسه ببنان اليقين	وتغمس فيه ارتياب البصر
وتهمس فى صخب البشريات	أهذا هو القائد المنتظر
أرى خلف بسمته "خالداً"	والمح فى وجنتيه "عمر"
وتدنو إليه تناغى المنى	وتشتم فى ناظريه الفكر (١)

فلا يعتمد المدح عند البردُّونى على المبالغة،وإعطاء الممدوح شكلا هائما، لأنه شديد الصدق فى مدحه، يقرر مشاعر تختمر فى نفوس شعبه، وتجلت فى استقبالهم لعبد الناصر الذى ساندهم فى الإطاحة بحكم الأئمة، فالمدح هنا خطرات ذهنية مصورة مايطوف فى خياله وشعبه، جعلته"أبا" يسبقه فعله ومعروفه، وصورته فاتحا من سلالة الخالدين فى تراثنا الدينى، ورأته يقدم على الأحداث الكبرى بعد إعمال التفكير، واجتلبت اللغة المصورة من كوامن الجمال الظاهرى وانتشاء الروح: جمال، يحيى، تبث الزهر، ترامت، جموع وزمر، تولى وتأتى، هزت حشود الحسان،

---

(١) "يوم المفاجأة سنة ١٩٦٤ "من ديوان" فى طريق الفجر"

ضحكات القمر، لقيا الصغار، أبا،٠٠ ومن العسير إخراج بعض الكلمات من صورتها لتمييزها، فكل كلمة صورة فى صورة كبرى استطاعت استجلاء الحدث ومدى تفاعل النفس معه فى تلقائية وعفوية آسرتين .

ب – ومن الصفات التى تحدد أيضا طبيعة الصورة، إعطاؤه الواقع شكلا مثاليا، لطبيعة الواقع نفسه، ولنشدانه المثالية فيه، كوقوفه مشدوها ببصيرته العاطفية الذهنية الجياشة، أمام مشهد "الأصيل فى الريف" يستلهمه ويستوحيه لوحة خالدة، من الطبيعة الصامتة والمتحركة، تلتحم فيها الأرض والسماء، وحركة الحياة القروية البريئة وقت الغروب، وارتداد ذلك المشهد إلى ذاكرته واستقراره فيها عميقا وساحرا، كآخر ما رآه من الحياة قبل ديمومة الليل، ولايقف عند المشاهد الظاهرية، بل يستبطنها، ويغوص تحتها، ويستكنه أغوارها، فيصور البراءة فى العائدين من الحقول إلى الديار، بالمرح واللعب والحكايا يجرون حيواناتهم، والسعادة تغمرهم لقرب المنازل ، واقتراب موعد سمر الليل "ودون بادرة أخرى، يصور فيها شعوره الشخصى، وموقفه النفسى، وانفعاله الوجدانى بما رأى وأحس وصور، كأنه لايهدف من شعره غير التصوير[1]، ولقد تكاتفت فى القصيدة عناصر الوحدة العضوية، كوحدة الموضوع والتسلسل المنطقى، ووحدة الجو النفسى والخيال" ومايستلزمه ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيبا تتقدم به القصيدة شيئا فشيئا، حتى تنتهى إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور"[2] فكانت القصيدة، " كالبنية الحية، لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدى بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل فى الأفكار والمشاعر[3] :

تدلى كمزرعة من شرر ... معلقة بذيول القمر
وحام كغاب من الياسمين ... تندي على ظله واستعر
فمالت تودعه ربوة ... وتهتز كاللهب المحتضر
كحسناء عري العتاب الخجول ... هواها، وبالبسمات استتر
تعابثه، وتباكى الطيور ... وتستعبر الرابيات الأخر
ومدت له القرية الهيمنات ... كلغو الرؤى، كاصطخاب التتر
فرق، كأجنحة من نضار ... كأردية من دموع الزهر

---

(١) د. الطاهر أحمد مكى: امرؤ القيس، حياته وشعره ص٢٧٠، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٩٧٩م.
(٢) نفسه ص٢٧١.
(٣) نفسه ص٢٧١.

وعــــراه صــحـــو المدى فـــارتدي لـهــــــيب ذوائبـــــــه واتــزر
تهـــــادي يجـــــمع مـن كل أفـق صــدى عــمـره، ولهــاث البـشــر
ويحـــــبـــوكـــمـــوج يمد يـديه إلى شـــاطئ مـن مـــزاح القــــدر
وأرسى عــلي كـــتـــفي شـــاهق كـــارجـــوحـــة مـن ذهول الفكر
يلمـلم من جـــمــرتي مــقلتـــيـه حـــبـــالا، يخـيط شــراع الســفــر
ويـجـــــبل آثـار أقـــــدامـــــه أباريـق حب ونجـوى ســهــر (١)

فتلك الصور الحية فى الأصيل ومدى انفعال وجدان الشاعر به؛ كرفيق متدفق الأحاسيس يذكره آفته فى صمت، فيعكس إليه ذاته، ويرى الحياة والأشياء من خلاله، وبعد تلك اللوحة الخالدة، يقص مشاهد العودة، والأسمار، وينقد من خلال تصويره بعض العادات والتقاليد، كالثأر، وتزويج الفتيات اليمنيات من أثرياء الخليج، كما ينقد النميمة، وآثارها فى تدمير نقاء المجتمع والاستهانة بالحرمات، فالأصيل بذلك معادله الموضوعى الذى جسم فيه أفكاره، كما أنه مدخله الزمنى إلى بداية الليل فى الريف :

واغـــضى ، فنادى الرّواحُ الرعـــاةَ فـــعــــادوا ثُنى ، وتوالـوا زُمَـــر
وناشـت خطـاهم هـدوء التـــراب ورعش الكلا وسكـون الحـجـــر
ونقّـــر خطـوُ القطيعِ الحــصى كـمـــا ينقُـر الـسقفَ وقـع المطر
وشـــد الرعـــاةَ إلـى الراعـــيـاتِ شـبابُ المنى ، ومـلاهى الصـغـر (٢)

تتآزر فى رسم الصورة خيوط النور والنار والخضرة والفكر، وتستوعبها مستويات الحس والإدراك فى شفافية سريعة، البصر واللمس والشم، ورغم التباين بين معطى النار ومعطى الخضرة، بما فيها من خصوبة ونماء فى مستهل قصيدتة: «تدلى كمزرعة من شرر»، وما يوخذ عليه من محاكاة أصوات الحيوانات فى قوله «خوار البقر» إمعانا فى التصوير الصوتى الذى هو من خصائص تصويره، رغم كل ذلك، فإن وحدة الجو النفسى للقصيدة والصور، تشيع الخصوبة فى المعانى والأفكار واللغة والموسيقى والأسلوب، وتخرجها فى مزيج فنى ملتحم الأنسجة، فى وحدة التأثير التى تتلاقى والإيحاء فى صورة كلية واحدة، «وفى إطار هذه الوحدة، يجتمع الشىء مع أشد الأشياء تباعداً عنه، وتنافرا معه، مادام يتآزران على إحداث أثر نفسى واحد، وبث إيحاء

(١) "أصيل القرية سنة ١٩٦٧ "من ديوان "مدينة الغد".
(٢) نفسها.

واحد»[1].

والبردُّونى هنا، يرسم صورة مثالية للريف، قبل أن يلقى الضوء الأحمر على بعض سلبيات أهله من خلال أسمارهم، وهو فى بنائه المثالى لصورة الريف واقعًا وتصوراً، يستوحى «الشعر الرعوى» الذى يخلق جواً ريفيًا مثاليًا لا وجوده له فى الواقع[2]، ولكن البردُّونى، فى عرضه لتلك السلبيات جعله واقعًا مثاليًا فيه ما يعكره، ولكن له وجود أكيد فى الواقع.

والقصيدة كلها بهذا الشكل صورة، «وفكرة أن التصوير الشعرى هو فى قلب القصيدة، بحيث إنها تستطيع بذاتها أن تكون صورة، تم تنسيقها من جملة صور، لم تكن رائجة إلى زمن الحركة الرومانتيكية».[3]

جـ - ومن أهم الصفات التى تحدد طبيعة الصورة عند البردُّونى :

الصورة القصصية الافتراضية، لا تخلو من طرافة ودهشة، يلقى فيها الظلال وخلفية المشاهد وتوترات الشخصية، والحدث المؤثر وانفعالات ثانوية من خارج إطاره الموضوعى الذى يناقشه، لجذب الانتباه إلى شىء يريد تصويره والتركيز عليه، كتصويره الموحى لأبعاد العاطفة الوطنية التى يحملها كل يمنى لبلاده دون غيره من الناس مهما كانت الرابطة بينهما .. فيشخص اليمن أنثى فى موقف اختبار؛ حتى تمايز بين محبيها ومن لا يولونها اهتمامًا عبر رحلتها للبحث عن ذاتها والتماس الاستقرار فى مساعدات أجنبية، فى مرحلة التطور والبناء الوطنى الحديث :

وماذا سيحدُث، لو تصرُخين ... وتنزرينَ الدّموع الكثيفه
سيرنو إليك الرفيقُ اللصيق ... وينساك حين تمر المضيفه
ويعطيك قرصين من "إسبرين" ... فتى طيب أو عجوز لطيفه
وقد لا يراك فتى أو عجوز ... ولا يلمح الجار تلك الضعيفه
فقد أصبحت رؤية الباكيات ... لطول اعتياد المآسى اليفه [4]

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة ص٣٠ .
(٢) انظر: معجم مصطلحات الأدب "للدكتور مجدى وهبة، ص٣٨٩ .
(٣) د. سيسل دى لويس: الصورة الشعرية ص٢١ .
(٤) "صنعاء فى طائرة سنة ١٩٧٤ "من "السفر إلى الأيام الخضر".

د- ومن الصفات أيضًا التى تحدد طبيعة الصورة :

الصورة الساخرة، وتأتى ملخصة حكمة نتيجة لاستكناه موقف يثير دهشته وحفيظته، وديوانه مليء بتلك الصور الساخرة، التى ينقد من خلالها المجتمع والأشخاص والسلطة، وينتقل بأنماطها بين السخرية اللاذعة واللوم الإيجابى، وقد يرسم صوراً «كاريكاتيرية» تعبر عن تصادم أساليب الحياة التى يعتدها تراثًا صالحًا مع واقع التطور السطحى، الذى يعتقده كثير من الناس مدخلاً إلى الحضارة، كتعليقه على صوت وشكل واسم مضيفة فى طائرة، فتاة يمنية، بنية اللون والعينين، استلزم عملها كمضيفة أن تستحدث اسمًا ، وربما هو اسمها الحقيقى ولكنه قارنها بجداتها، حيث لم يكن للأسماء الأجنبية شيوع فى المجتمع العربى، ويجسد تلك الأسماء بصورة ساخرة بشعة، كحمل تنوءبه فطرتنا السليمة :

حين نادت إلى الصعود فتاةٌ	مثلُ أختى ، بنيةُ الصّوت ربعه
منذ صارت مضيفةً لقّبوها	"سُوزنا" واسمُها الطفوليه "شَلعه"
إن عصريةَ الأسامى علينا	جلدُ فيلٍ ، على قوامِ ابن سبعه
هل يطرّى لون العناوين سِفراً	ميّتاً ، زوّقته آخرُ طبعه ؟ (١)

إذن، فطبيعة الصورة الشعرية بالمفهوم السابق، مزيج من التصوير العقلى والصياغة التشخيصية التى توائم انفعاله مع الحدث أو المثير، والتى تصنعها «خطرات الشاعر وتموجات نفسه وطاقته الفكرية، للنفاذ من خلال أشياء الطبيعة إلى دلالاتها الكونية»(٢)، كما ينفذ من خلال تصويره إلى عمق ارتكاز الفكرة، والتعليق عليها، فيجذبها إلى سطح الإدراك، ويغلب عليه - فى اختطاف طرفى صورته ومزجهما فى وحدته النفسية - بعض غرائزه التصويرية، كالصورة القصصية والصورة الساخرة، واللتين تعبران عن نفسه الموارة بالنقد، من منطلق الالتزام الروحى والارتباط العملى بنمط الحياة السائدة فى اليمن، فى سهولتها وعدم تعقيدها، وكما اتضح ذلك أيضا من تصويره المثالى للريف اليمنى.

(٥) أنماط الصورة :

ونقصد بالنمط شيئين:الأول :"المثال أو النموذج الشكلى الذى يمثل فى ذهن(٣) الفنان

(١) 'شاعر ووطنه فى الغربة' سنة ١٩٧٤م من "السفر إلى الأيام الخضر" .
(٢) د . محمد حسن عبد الله : الصورة والبناء الشعرى ص ٢٤ .
(٣) د . مجدى وهبه : معجم مصطلحات الأدب ص ٣٩٣ .

ويحتذيه فى التأليف"،والثانى: طريقة التقاط طرفى ذلك النموذج الذهنى أو الصورة، ومدى ارتباطه به، وصبغه بذاته، وتشكيله بلغته وتركيباته الصعبة أو السهلة،حسب تعمق النموذج فى أبعاده النفسية المختلفة، أى أن النموذج الذهنى هنا: يحاول الشاعر أن يجرد له معادلاً موضوعياً من الواقع، وتأتى وعورة أغواره من معادلة أفكاره الذهنية بالصور الحسية الصعبة التخيل، أو المضطربة،أو التى ترتفع مجردة إلى آفاق الذهن ثم تهوى فجأة فى قرار سحيق، مجردة أو حسية.

ولأن البردُّونى شاعر درامى، يلاحق الفكرة فى مهاوى صراعها مع أطوار الصور المختلفة، ولأن صوره فكرية أكثرها هى حسية، فإنه «يغطى الفجوات بالصور»[١]، ليمسك بأفكاره، فيجهد الصورة إلى ما وراء الحدود المألوفة»[٢] ويجهد معه المتلقى، خاصة، عندما يسيطر عليه هذا السكون الغريب، والسكون هو الليل عنده، وعند كل ضرير؛ لأن السمع له حياة ورؤية، فلننظر إليه كيف يصور «الصمت والسكون». إنه يتحدث عن شيء يلتمع فى عينى جدار الحزن، وهو تشخيص غامض لحركة لم تكتمل كالإخبار عن شيء، ويكرر بصورة أخرى الصورة المتقطعة، ثم يبنى صرحاً من الصور المتلاحقة المفاجئة بغرابة علاقاتها كأنها كوابيس سريالية، يضفى عليها الإيقاع التراثى هديراً من الإيحاءات المنظمة رغم فوضى الصور التى يربطها ذلك الشيء الملتمع المجهول، والبردُّونى يألف ذلك النمط السريالى فى التصوير، فيرتقى به، ويتيه فى رؤيا الجنون، فبعد أن كدنا نهتدى إلى الشيء المجهول «وهو الصمت والسكون»، يجرده بمجموع الصور الحسية الخارقة للخيال، فأنا مله دود يمتد، وصوت أجراس زرعت، تصوير عكسى يهدف إلى توليد التناقض فى الشيء المجهول، فقد يقع على فمه، ويمشى ويرتفع على أطراف رجله، وليس العكس كما ذكر الشاعر، ولابد أن نسقط من أذهاننا صورة المشى المألوفة ، لنحاول تصور كيفية مشى السكون على فمه ، وكيف يمشى الليل حافياً على مقلتيه[٣]، وكيف يطير هو على نصف رأسه[٤]، ويستخدم اللون، فنرى الشيء نفسه كالسل، ولم نره ولكن الشاعر جعله أصفر كما هو فى عيون مرضاه، ويعد هذا الفيض المغرق من الصور الصعبة والمعكوسة والعبثية السريالية، «يصعد بنا إلى سطح الماء لحظة لتتنفس الصعداء[٥] ويخفف من وقع الصور علينا، فيتحول الشيء نفسه إلى «مومس» فاجاها البوليس فى مرقدها عارية :

---

(١) د. سيسل دى لويس : الصورة الشعرية ص ٩٤ .
(٢) نفسه : ص ٩٤ .
(٣) انظر قصيدته : 'وجوه دخانية فى مرايا الليل' سنة ١٩٧٥ وقد سمى الديوان بها .
(٤) انظر قصيدته 'سبرة للأيام' سنة ١٩٦٨ من 'مدينة الغد' .
(٥) الصورة الشعرية : ص ٩٦ .

شىء بعينى جدار الحزن يلتمع
يهم يخبر عن شىء ويمتنع
بريد يصرخ، ينبى عن مفاجأة
لكنه، قبل بدء الصوت ينقطع
يغوص، يبحث فى عينيه عن فمه
تغوص عيناه فيه ، يقتفى، يدع
عما يفتش؟ لا يدرى، يضيع هنا
يقوم يبحث عنه ، وهو مضطجع
يومى إلى السقف ، تسترخى أناملُه
تمتد كالدود، كالأجراس تنزرع
يمشى على فمه هذا السكون ، على
أطراف أرجله يهوى ويرتفع
يصفر كالسل، يهمى من عباءته
ينحل كالقش، كالأسمال يجتمع
كمومس ، باغت البوليس مرقدها
كمقبلين، على أشلائهم رجعوا [(١)]

هذه القوة التعبيرية وامتلاك زمام الصورة، والتنفيس عن ضغطها العصبى بصورة أخرى، دون خلل فى بنائها، تدل على أن البردونى ظاهرة وحده، وهذه السيطرة على نمط الصورة «عملية صعبة من البداية حتى النهاية؛ بسبب السلوك غير الانضباطى للملكة - مهما كانت - التى تأتى بالصور إلى ميدان الوعى»[(٢)].

ويتضح من أنماط الصور أن الخيال هو الذى يخلقها من تشكيل المحسوسات والمجردات تشكيلاً ذاتياً، ينعكس على كل أطراف الصور، كما للخيال هنا وظيفة أخرى، وهى دفع الشاعر إلى «أول خطوة فى خلق الصور، وهى أن يقرن نفسه إلى الأشياء التى تستهوى حواسه» [(٣)].

وفى سيطرة «الصمت والسكون» عليه يسترفد أنماطًا عميقة، تمثل أمنيات أسيرة فى نفسه، ويعتمل فيها الإغراب والتهويم للإفصاح عنها، كأمنية «استمرار الحياة من نسله»، أمنية الإنجاب والأبوة والتى يدرك مع تقدم السن استحالتها، فتأتى الأنماط التصويرية لوحات تثير الأمل المشوه فى أغوار نفسه البشرية الكسيرة، فيها الجزع والاستسلام. فانظر كيف يصوغ «الأمسية الصامتة» إنها أمنية فى ضيف الولادة :

وعلى الجُدرانِ والسقف ارتَخت
مثلَ فخذى مراةٍ بعد الولادة [(٤)]

ويصور الصمت، حياة نعسى واقفة عن ركب الزمن، لتحجب عنه ضيفه الحبيب الذى يطرق

---

(١) «فى الغرفة الصرعى سنة ١٩٧٥ «من وجوه دخانية».
(٢) الصورة الشعرية ص ٨٠ .
(٣) نفسه ص ٨٦.
(٤) «أمسية حجرية سنة ١٩٧٥ «من وجوه دخانيه..»

رحم الحياة فلا يأتى :

ينزوى خلف ركـبتيـه ، كـحُبلى يُرعِشُ الطلقُ بطنهـا ، وهى نعسى (١) .

وفى استسلامه المتمرد للقـدر، يأتى عنفوان النمط واصطدام الصور، وإقراره "المستحيل"، الذى تحول من خلال حالته النفسية مسلمات منطقيةً للقياس، فتقدم السن الذى عاق فيه الخصوبة قياس مستحيل، واصطدام المستحيلات آمال جديدة، باعتبار أنهـا ظواهر طبيعية فى الإنسان والطبـيعة، يجد فـيها السلوى والـتصبـر، وهكذا يبنى عالمًا مجرداً من المستحيلات فى خـياله، ودلالة توقف الحياة:

مـثلمـا تهـرم فى الصلـب الأجنّه تأسـن الأمطار فـى جـوف الدُّجَـنّه

يحـبل الرعـدُ ، ويحـسو حِـمَله ثم يسـتـمنى غـبـاراً وأسنه (٢)

فالطاقة النفسية معطلة فى جفاف حـياته، والطاقة الغريزية هائلة ولكنها ضائعة، وفى بحثه عن خصوبتها تؤله بالأسنة وتعكر صفوه وتخنق فيه أحلامه بالغبار الذى يسد علية الأفق.

وبعد قيام الثورة اليمنية بأربعة أشهر يلقى من الإذاعة اليمنية قصيدته المطولة «مأتم وأعراس». فكأن الثـورة قضت على سكونه هو، وكـان الليل الســرمدى الملازم له غـدا خيـولاً جامحـات لم يعرف كنهها من قبل، فى مبادرة منه لعقد مصاحبة مع عماه رفيق عمره، وإشراكاله فى الحدث:

والدجـى يعلـك السكون ويعـدو مـثلمـا تعلك الخـيـول الشكائم (٣)

وبعد ذلك بثمانية عشـر عاماً، يعـيد النمط من جديد، فى إلحـاحه على التغـيير، وترقبـه ليمن جديد، متمنيًا أن يرحل ذلك الصمت، أو يكف عنه، مثلما تضعف الخيول الجريحة إزاء لجامها:

فـيلوك الصـمـت شـدقـيـه كـمـا تعلك الخـيـل الجـريحـات الأعنه (٤)

ورغم ذلك الخوف من «الصـمت والسكون» فهما أنيسـاه فى عزلته النفسـية؛ لأن الأصوات - وهى الحياة بالنسبة للضـرير - غدت مادية رخيصة كأصحابهـا، فيأتى بنمط تصويرى لا يقوم على التشبيه كما سبق، ولكن على فصل الجمل والاعتماد على الرابط الذاتى بينها، الذى يخلق الإيحاء

(١) «الضباب وشمس هذا الزمان سنة ١٩٧٦ «من» وجوه دخانية ..».

(٢) غير كل هذا سنة ١٩٨١ «من» ترجمة رملية لأعراس الغبار».

(٣) «مآتم وأعراس ١٩٦٣ «من» فى طريق الفجر».

(٤) غير هذا سنة ١٩٨١ «من» ترجمة رملية..».

الذى ينشده :

تـلك أصـــــوات أناسٍ ، لا أعـى أى حرفٍ ، أصبح الإسمنت هادر [1]

وإسقاطه لأدوات الربط بين الجمل الثلاث أسلوب رمزى، يقـوى الوحدة النفسية التى التقطت طرفين بعيدين فى النفس والواقع بين أصوات الناس وجلبتهم، وهدير الإسمنت.

ولم يستطع البردُّونى دائمًا أن يوازن بين الصورة الذهنية والتقاط الصورة الشعرية المعادلة فوقع النمط فى هوة بينهما؛ ذلك لأنه تستغرقه التجربة الذاتية وواقعه الجزئى بالنسبة للتجربة، فى حين أن «الصور تستقى من حقل أكثر سعة من تجربة مفردة، تستقى من التجربة الكلية لحياة الشاعر».[1] مما يدفعنا إلى إلقاء الضوء على تجاوزات النمط وعيوبه:

أ - **التطابق بين الصورة ومدلولاتها الحقيقية:** «وهو يعرض الحقيقة الشعرية للتصادم أكثر من التلاؤم» [3] ففى وصف البردُّونى لأمسية كئيبة جامدة، يضطرب التشبيه فتتناقض الصورة:

كـــغـــرابٍ يرتمي فـــوق جـــراده سقطت وجعي، تـدلت كالوساده [4]

فعنف الحركة وسرعة الانقضاض واللمحة الخاطفة للغراب عند افتراسه الجرادة، يناقص تدلى الوسادة الهادئ ، فوق السرير فى لين ووداعة، والغراب لا يتوجع بافتراسه، بينما سقطت الأمسية وجعى، والغراب لا يتدلى، بل ينتفخ ويغضب، فهذا التصوير الاستهلالى لتأثير الأمسية عليه غير موفق، وقد كان البيت الذى بعده أكثر ملاءمة ومنطقية لحالته النفسية التى يصورها أيضاً:

كنســيج الطحلب الصــيــفى نمت اعـشبت فـيـها، وفـى وجهى البـلاده

ب - **عدم اللياقة العاطفية** ، واللياقة هى قبول الصورة نفسياً، من وحدة العاطفة التى تتولد فى الشاعر والمتلقى إزاء الصورة، ففى وصفه أيضًا لتلك الأمسية الكئيبة من نفس القصيدة :

وعلي الجـــدران والســقـف ارتخت مـــثل فـــخـــدي مـــرأة بعـــد الولادة

فهـذا الاسترخاء يثير الجزع والاشمئزاز؛ لأنه تشخيص لحقيقـة ذات حالات نفسيـة أخرى، فالمرأة بعد الولادة حـالة نفسية مثيـرة للشفقة والخوف عليـها، ومثال حى لفلسفة الخـالق فى الحياة

---

(١) «زامر الأحجار «ترجمة رملية..».
(٢) الصورة الشعرية ص ٨٥.
(٣) نفسه ص ٨١.
(٤) أمسية حجرية سنه ١٩٧٥ «من «وجوه دخانية..»

والأحياء، كما أنها فى هيئة مريضة متألمة، لا توحى بأى كآبة يستوحيها الشاعر، فالحالة الذهنية للشاعر، لا تتواءم وحالة النمط النفسية، فالصورة ترفض الانصباع لحالته، فجاءت فى وادٍ بعيد عن مرامى إيحائه وتعبيره.

ومن ذلك نقل إحساسه بسعادة الماضى وذكراه الحبيبة فى نمط موحش، كزورق حائر فى غضب البحر العميق :

تمشى كـــحَـــيــــرة زورق   فى غــضــبــة اللج العــمــيق [1]

جـ- فتوره فى استدعاء النمط وسطحيته : مما يفقد الصورة العاطفة المؤثرة، ويجنى على النمط هنا ممارسة الشاعر لبعض خصائصه الأسلوبية كالتكرار، وبعض خصائصه فى التصوير الصوتى وكلاهما لم يوفق فيهما :

الســــجن لصق الســـجن لصق المكرفـــون المكرفـــون [2]

فالصورة ثلاث كلمات مكررة، الأوليان تحدثان صفيراً بين السين والصاد المفخمة الساكنة، كما تحدث الكلمة الثالثة ثقلاً فى نطقها لأنها أجنبية، يجىء المد فيها غير فصيح، فهو أقرب إلى الإشمام بالضم منه إلى المد بالضم. كما يجنى على النمط أيضًا ويجعله فاتراً، مباشرته فى محاكاة العوام، واستخدام النمط كحشو يخلو من نبض التصوير وحرارة انفعاله :

من أى نـبـع أنـت ؟ مـن   يـاء ومـن مـــــيـم ونـون
يا بـرد كـــافـــات الحـــريرى لا يـراها الطيــبـــون [3]

كما أنه ليس من داعٍ فنيٍ لاستدعاء تلك الطرافات الشعرية فى حالة الشكوى من الفقر فى الوطن، ويقصد الشاعر بكافات الحريرى بيتيه الشهيرين :

جــاء الشــتــاء وعندى من لوازمــه   سبع ، إذا البرد فـي أجوائنا قـرسـاً
كن وكـيس وكـانون وكـاس طلى   بعـد الكبـاب وك... ناعم وكـسـا [4]

د- ومن أخطر عيوب النمط عند البردُّونى، محاولته محاكاة الواقع فى تصويره لشخصياته، كان يلتقط طرفى الصورة من البيئة المتدنية الفقيرة، والتى تخلق - فى رأيه - أخلاقًا متدنية

---

(١) «قصة من الماضى سنه ١٩٥٩» من «فى طريق الفجر».

(٢) «شتائية» من «ترجمة رملية..».

(٣) نفسها.

(٤) أورد الشاعر البيتين فى ذيل قصيدته «شتائية».

وشخصيات حقيرة:

كـــــان يـحـس أنـه خـــرابـه   وأن كـل كـــــــائـن ذبـابـه [1]

ومن المحاكاة أيضاً، التعويض المباشر بالصورة الصوتية، التى تسيطر عليه عفواً لحظة الإبداع، من ذلك تصويره القرية وبهجتها بالعائدين من الحقول والوديان، وتود يعهم مشهد الأصيل والشمس الذاهبة، فأصواتهم الهادئة والدافئة «لغو الرؤى «كالكوابيس المفزعة ، كما أنها ضجيج التتار وما يحمل الوصفان من عدم اطمئنان:

ومـــدت له القـــرية الهـــينمـــات   كلغـو الرؤى ، كاصطخـاب التتـر [2]

على أن البردُّونـى لا يخفق دائماً، بل قـد يشتمل النمط على التناقض، ولكنه يخضع لوحدة نفسية عميقة، يستوى فيها الحقيقة وعكسها، وتلك الوحدة وتوفيقه فى ضم العناصر إليها تسمى تناغم الانطباع: «وهو موافقة انطباع الشاعر عن الشىء والتعبير عنه [3]» بلا مبالغة، مع وضوح الانفعال الصادق وشمول العاطفة نمط طرفى الصورة، كأن يناجى الشاعر وطنه:

فـــــيـك أفنـى ، أرتـمـى سنبـلـة   تحفـر الأشـواك عن منقـار طائر [4]

فالصورة عكس الحقيقة فى الطبيعة؛ لأن الطائر هو الذى يسعى دائمًا للسنابل، ولأن الطائر غدا وطنه فى صورته، فإن السنبلة «الشاعر» هى التى تنقب عن منقاره، وتشق إليه الأشواك، مدركًا مدى التضحية الواجبة عليه تجاه الوطن الذى يتحسس طريق النور فى العصر الحديث.

(٦) روافد الصورة:

للصورة منابع خالدة يستقى منها الشاعر صوره، وليس المقصود بدراسة الروافد الحكم على الصورة بالقدم أو الحداثة، ولكن لاستكناه تلك الروافد ومدى انفعاله بها خلال انصهار الزمن والعناصر فى الصورة، وإخضاعها للذات التى تستخدم الخيال فى تشكيلها، فيجمع الخيال الأطراف ويبث الروح ويشخص ويجسم ويجرد، وعلى قدر صدق انفعال الشاعر بالصورة واستدعاء الرافد ومزجهما تأتى أصالة الصورة، حتى وإن كان قد «ركب الصور القديمة وألف

---

(١) «صعلوك من هذا العصر سنه ١٩٨١» من «ترجمة رملية..».

(٢) «أصيل القرية سنه ١٩٦٧» من «مدينةالغد».

(٣) سى دى لويس: الصورة الشعرية ص ٨٧.

(٤) «زامر الأحجار» ديوان «ترجمة رملية لأعراس الغبار».

بينها لتأتى فى صورة جديدة مبتكرة، ويتوقف جمال الصورة فى هذه الحال على طبيعة الشاعر العقلية وسعة خياله وبعد مداه[1]، كما يدل استخدام الشاعر تلك الروافد على امتزاج الماضى بالحاضر فى نفسه، واعتقاده فى وحدة كونية واحدة وارتباط التجارب البشرية عبر العصور فى محاولتها الارتقاء إلى مثالية منشودة تتعظ بالماضى، وتدل أيضًا على ارتباطه بالتراث ودرجة وضوحه صافيًا كما يسجله التاريخ، أو مضيفًا إليه ما يناسبه، مما يدلنا على فهم أشمل لذهن الشاعر ودخائله فى موقفه من بعض القضايا المعاصرة، وأهم تلك الروافد:

أ- التراث الدينى :

أولاً : القرآن الكريم :

يفلسف البردُّونى التاريخ فى تصويره لقدم الحضارة اليمنية القديمة التى جاءت على أنقاض أخرى، واضحت انقاضًا لحضارات بعدها، متأسيًا بنواميس الحياة والقدر:

كنت بنتَ الغيوبِ دهراً ، فنمت ... عن تجليك حشرجاتُ الحضاره
وتداعَى عصرٌ يموت ليحيا ... أو ليفنى ولا يحس انتحاره [2]

فنلمح استلهامه لقوله تعالى:"تولج الليل فى النهار، وتولج النهار فى الليل، وتخرج الحى من الميت، وتخرج الميت من الحى"[3]، وذلك الاستلهام كان السلوان بعد أحداث عصيبة متوالية مرت باليمن والأمة العربية ، وهى على التوالى: خروج الجيش المصرى من اليمن سنه ١٩٦٧ ، ومحاولات الرجعيين ارتقاء الحكم والقضاء على الأحرار بمساعدة بعض الدول المجاورة، والتى يهمها فشل فكرة الجمهورية فى اليمن؛ حتى لا يتسرب نجاحها إلى شعبها فينقلب عليها. وهزيمة الجيش المصرى وانكسار العرب بغزو إسرائيل الدول العربية واحتلالها سيناء والجولان والضفةالغربية من نفس العام، وقد كان الشاعر يجل موقف الجيش المصرى من الثورة. ثم "حرب السبعين" التى حاصر فيها الرجعيون بمساندة القبائل وبعض الدول المجاورة «صنعاء».

وحينما يكشف البردُّونى الحالة النفسية العميقة، يعتمد على أسلوب «الترقى والتراكم» فى الصورة، وهو من أساليب القرآن المعجزة فى التصوير، ليبلغ التأثير غايته، فهذا رجل فقير واهم

(١) د.الطاهر أحمد مكى:الشعر العربى المعاصر : ٨٣ .
(٢) «مدينة الغد" ١٩٦٧ من "مدينة الغد".
(٣) "آل عمران" آية ٢٧.

الطموح، ذاهل عن واقعه المرير بحبه لفاتنة ثرية:

وكــان يطوى شــارعــاً ، جــوه غــاب كــثيف من زنود المغــول
كــالنعش ، يســتلقى عليــه الدجى وتعـجن السـحب عليـه الوحـول (١)

فالشـارع – وهو واقع الفقير مـجسدا–غابة مـخيفة، كـالنعش فوقه الليل وفـوق الليل وحول، وفوقـها سحب سوداء، فـهذا الترقى من الأرض إلى السـماء، فى تراكم مراحل الصعـود، تصوير قرآنى يستوحيه الشـاعر، إذ إنه يصور وهم الفـقير، والقرآن يصـور أعمال الكافـرين التى تنقضى كالسـراب، يقول تعالى: « ... أو كظـلمات فى بحرٍ لجيٍ، يغـشاه موج من فـوقه موج، من فـوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرجَ يده لمَ يكدْ يراها. ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور». (٢)

ثانياً: التراث المسيحى :

وقد يصور البـردُّونى إصرار الشعب على مواصلة الكفاح والتضـحية فى سبيل الحريـة اعتماداً على مفهوم التـضحية فى الإنجيل «العهد الجديد»، وكـما هى مستقرة فى عقيـدة اليهود والنصارى بصلب المسيح عليه السلام، فالشهب كالشعب يتحمل العذاب للعدل والحرية:

والـشـــــهب حـنين مـــــصلوب ظمــآن يـجـتـــرع "الملحــا" (٣)

ذلك أن النصارى يعتـقدون بصلب اليهود للمـسيح عليه السلام، ولما اشتـد ظمؤه جاءوا برمح وغـرسوا فى أعـلاه «إسفنجـة» مغـموسـة مشـربة «بالخل» وقـالوا له: اشرب، ولينقـذك الذى فى السماء(٤)، فغير الشاعر «الخل» إلى «الملح» مع احتفاظه باستعطاف المتلقى للمصلوب، وهو الحنين المجرد من المحسوس «الشهب».

ب – التراث الأدبى :

عندما قـامت الثورة اليمنيـة فى السادس والعـشرين من سبـتمبر سـنة ألف وتسعمـائة واثنتين

---

(١) «ذهول الذهول سنه ١٩٦٤» من «مدينة الغد».
(٢) «النور»آية«٤٠».
(٣) «لاارتداد»من «فى طريق الفجر».
(٤) إنجيل متى، الإصحاح ٤٦ ، نسخة الملك جيمس، لندن، بريطانيا.

وستين، حوصر الإمام «البدر» وأعوانه فى قصر الإمامة، فاضطر الثوار إلى إحراقه؛ لإجبارهم على الخروج منه، وأمام النار وتداعى القصر رمز التخلف والظلم يقول :

وتعالى الدخان والنار فالليل نهار ، صحو الأسارير غائم [1]

مستلهمًا قول أبى تمام فى حريق «عمورية» :

ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخانٍ فى ضحى شحب[2]

ولم يقف البردُّونى عند صورة أبى تمام، فالأخير يصف ما شاهد خارجيًا فحسب، أما البردُّونى، فقد وصف ما شاهد بعقله وسمعه، فارتقى بالرمز «الليل» إلى النقيض «النهار» كما اجتر إلى ذلك النهار الأحاسيس الخفية المنتشية رغم شائبته الغائمة فى الظاهر، فامتزج فى صورته المشاهد الظاهرة والمشاعر المتدفقة، والواقع بالأمنيات المجردة.

وإذا كان البردُّونى قد أعاد تركيب الصورة السابقة، ولونها بمسحة ذاتية جعلتها مبتكرة، فإنه لا يوفق إلى ذلك دائمًا رغم شغفه بأبى تمام، يقول البردُّونى فى وصف جريح مقاتل :

كلما أومأ الفرار إليه أمسكت قبضة الوغى بقياده
وتحدى الحتوف حتى تلظت حوله ، وانتهت ، بقايا عتاده[3]

ويقول أبو تمام فى رثاء محمد بن حميد الطوسى :

وما مات ، حتى مات مضرب سيفه من الضرب، واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلاً فرده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر[4]

فالبردُّونى جعل المقاتل ممسوكًا فى قبضة الحرب كالمرغم عليها، أما شهيد أبى تمام، فقد وثب إلى الموت طواعية؛ لأن الموت من عروق أخلاقه الصعبة وأصوله العريقة، لقد قلد شاعرنا أبا تمام، فى نمط الصورة، والخلل فى التقليد من ضعف المواءمة بين تصويره للجريح وتصوير أبى تمام للشهيد، وبين المشهدين فوارق عاطفية هائلة، ولم يعالج البردُّونى تلك الهوة قبل استدعائه صورة أبى تمام.

(١) «مآتم وأعراس سنه١٩٦٣» من «فى طريق الفجر».
(٢) ديوان أبى تمام ص٢٥، شرح وتعليق الدكتور شاهين عطية، الطبعة الأولى، بيروت سنه ١٩٦٨، وقد أشار الدكتور عزالدين إسماعيل إلى ذلك الاستلهام فى كتاب «الشعر المعاصر فى اليمن ص٦٦»
(٣) «جريح» من «فى طريق الفجر».
(٤) ديوان أبى تمام ص٤٢٩.

البحترى والبردُّونى :

يصور البردُّونى «صنعاء» طفلة المشاعر بريئة اللقيا لجمال عبد الناصر، الأب الذى عاد منتصراً على الظنون الرجعية التى اتهمته باحتلال اليمن بعد تدخله العسكرى لنصره الأحرار بعد الثورة سنة ١٩٦٢، وهو لم يذهب ليعود الآن؛ فقد جاء فى روح جيشه من قبل:

ولاقته "صنعاء" لقيا الصغار أباً عاد تحت لواء الظفر

تلامسه ببنان اليقين وتغمس فيه ارتياب البصر (١)

ويقول البحترى فى وصف الصورة المرسومة على جدار «إيوان كسرى» تحكى بطولات الفرس :

يغتلى فيهم ارتيابى ، حتى تتقراهم يداى بلمس (٢)

لقد بلغ البردُّونى بالتشخيص والتجسيم والتجسيد مرحلة راقية من التصوير ، مما يجعله يبنى عليه نمطا من العلاقات العاطفية الطبيعية بين طرفى الصورة "فصنعاء": طفلة، والضيف الكريم أب، ولليقين "بنان"، وللشك والارتياب "غمس" والبنان والغمس من مدركات اللمس والحس، وعند ارتياب الطفلة فى حقيقة استقبال أبيها ، يجسم لها اليقين ، وتترسب فيه النظرات، فالصورة فيها انتشاءة الروح من صدق الانفعال ولهفة اللقاء، وعمق العلاقة بين "صنعاء وناصر " أو الطفلة وأبيها، وهو بذلك يجسد هذه المشاعر الفياضة باستعارته نمط الصورة من البحترى، وتجديده وابتكاره فيه ، ليمزج الواقع المادى المحسوس بعالم الأحاسيس الخفية، بينما يقف البحترى عند المشاهد الخارجية للوحة الموصوفة، وعند ارتيابه فى حقيقتها يلامسها بيده، فإذا هى دون تصويره وخياله ، أما صورة البردُّونى فيتساوى فيها الحدث مع حقيقة الانفعال به ، ويسمو بالتشخيص إلى عفوية آسرة، كما أن حاسة اللمس التى تلح عليه تشيع فى الصورة حركة مطمئنة : تلامسه، بنان، تغمس.

وقد يخفق مع استرفاده صور البحترى، كما أخفق مع أبى تمام، فيقول فى وصف "صنعاء" الربيع وهى تستقبل الإمام أحمد وولى عهده "البدر":

وصبَّت نواحيها وجن جنونها فرحاً ، وكاد الصمت أن يتكلما (٣)

ويقول البحترى فى وصف الربيع :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما

(١) «يوم المفاجأة سنه١٩٦٤» من «فى طريق الفجر».

(٢) د.محمد أبو الأنوار:الشعر العباسى ص١٦١.

(٣) «الربيع والشعر سنه١٩٥٥» من «من أرض بلقيس».

فيمارس البردُّونى فى تصويره التشخيصى خصائصه الأسلوبية، ومزاجه العصبى، كالتكرار اللفظى والمعنوى "جن جنونها" بتكرار الفعل فى مصدره، وبالنظرة اليسيرة ، استقى الشاعر عجز البيت حشوا لتكملته، دون قصد إلى تعميقه بعبق البحترى ؛ لأن الصورة تفتقد إلى العفوية، فالبحترى ارتقى إلى تكلم الربيع بعد تسلقه معانى الحرية والخيلاء والسرور والجمال ، فالتكلم أمر طبيعى بعد هذا التشخيص الرفيع، أما عند البردُّونى فقد جاء نتيجة عصبية وحركة مهترئة، كالصبوة والجنون، ولم يرتق بالصورة لضعف المدح السياسى فى كل نتاجه الشعرى ، وارتيابه فى سلامة الممدوح من الإحن ، وقنع بظلال البحترى التراثية التى قد ترضى غرور الممدوح.

أبو نواس والبردُّونى :

تلتقى روح التغزل الحسي، ومراقبة الأنثى عارية عند الشاعرين ، فبينما يقف أبو نواس عند صورة المرأة، يمتزج عند البردُّونى تلك الصورة بانفعال غريزى تجاهها:

يقول البردُّونى :

حقا رآها كالضحى ، والبوح فى	نظراته كالطائر الخواف
خلف الزجاج تبرجت وأظلها	شعر، كأهداب الغروب الصافي
كانت تغنى حينذاك ، وتنتقى	ثوبا ، وترمى بالقميص الضافى
وأمام مرآة تعرى نصفها	وتموج تحت المئزر الشفاف [(١)]

وقول أبو نواس " الحسن بن هانئ":

نضت عنها القميص لصب ماء	فورد خدها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرت	بمعتدل أرق من الهواء
ومدّت راحة كالماء منها	إلى ماء معدّ فى إناء
فلما أن قضت وطرا وهمت	فأسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليل	فظل الماء يجرى فوق ماء[(٢)]

(١) «فارس الأطياف» من «مدينة الغد».

(٢) الأستاذ : عباس محمود العقاد: أبونواس، الحسن بن هانئ، ص٨ الطبعة الأولى، بيروت سنة ١٩٦٨ .

فتتناغم فى الصورة الأولى الألوان من سواد الشعر ، والذى يبدو باهتا خلف الزجاج على جسدها المضيء ، مع حالة الرائى النفسية بين الاستمتاع والقلق ، مع غنائها ، ومايستتبعه من ميل، مع حركة الأنثى التلقائية عند تبديل الملابس أمام المرآة، كأنها فى ذراعى رجل، عارية النصف مائجة الآخر، فالاستدعاءات الجنسية عنده أقوى؛ لشفافية التصوير، وصياغته فى قالب قصصى بطرفى حوار صامتين، فالرجل تحاور غريزته الأنثى، وهى تحاور مفاتنها، فتغنى وتموج وتميل وتعرى، ولم يبدأ بوصف الأنثى عارية كما فعل أبو نواس، ولكن ساق مقدمة تستهوى الفضول، وتستثير المشاعر، وقد بدأ أبو نواس من حيث انتهى البردُّونى، لو جازنا لنا أن نعبر التاريخ.

كما يلتقى البردُّونى مع أبى فراس الحمدانى فى وصف الليل بالخيول الجامحة، ويكاد يتشابه جو الصورتين، فأبو فراس الحمدانى يصبر أمه وهوفى أسره ، بأنه شجاع يخوض غمار الليل:

لقيت نجوم الأفق وهى صوارم　　　وخضت سواد الليل وهو خيول (١)

ويصف البردُّونى انتفاضة شعبه فى وجه التخلف الذى يسوده بيت الإمامة، فالصمت شكائم ترتعد فى فم الليل الذى تحول خيولاً عاديات :

والدجى يعلك السكون ويعدو　　　مثلما تعلك الخيول الشكائم (٢)

وابتكار البردُّونى فى عدم اعتماده على التشبيه فقط، بل شخص عنفوان الحركة وطوفان المشاعر التى تترقب التغيير الثورى، من تشخيص الليل خيولا تعدو وتجسيد السكون - وهو سلبية الشعب فى مواجهه التخلف، وعجزه من فقدان البصر - قطعة من حديد فى فم الخيل، وهو بذلك لاينكر انقضاء عهد الليل أو الظلم كلية، ففيه مايشده إلى الواقع بقوة الشكيمة فى فمه.

ولم يفت البردُّونى أن يلتقط من الموشحات الأندلسية رقة الغزل، والتفاعل النفسى مع الجمال، وخاصة إذا كان ينبع من عشق الوطن :

يا أمى اليمن الخضرا وفاتنتى　　　منك الفتون ، ومنى العشق والسهر(٣)

ويقول ابن سهل الإشبيلى فى موشحته :

ما بعينى وحدها ذنب الهوى　　　منكم الحسن ، ومن عينى النظر (٤)

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ص٢٣٢، دار صادر، بيروت، رواية ابن خالويه.
(٢) «أعراس ومآتم سنه ١٩٦٣»من «فى طريق الفجر».
(٣) من أرض بلقيس سنه١٩٦١»من «من أرض بلقيس».
(٤) د.أحمد هيكل:الأدب الأندلسى ص١٤١، الطبعة السابعة، دار المعارف سنه١٩٧٩.

وطرافة الصورتين من التماس تبرير للعشق والسهر والنظر، وبروز خاصية الأسلوب فى التعبير عن حالة السرور، اعتمادا على الجملة الاسمية التى يتقدم فيها خبرها شبه الجملة على المبتدأ؛ ليكون تمهيدا لمعانى العشق والفتون والحسن، ومن طرافتها أيضا وضوح الترتيب الذهنى للصورة، والتى تستدعى معانى دارجة سلسة الإدراك بالنسبة للمتلقى العادى ، وكذلك لا نعتمل تعقيد اللغة والأسلوب.

حـ - التراث التاريخى :

يستخدم البردُّونى التاريخ مادة حية وموحية فى بناء صوره بالأحداث والأشخاص ، من تاريخ العالم القديم والحديث، ورغم شموله فى فهم التاريخ الكونى كمادة ثرية فى التصوير، يظل لتاريخ الجزيرة العربية سحره المؤثر عبر العصور الإسلامية السالفة؛ لارتباطه به عاطفيًا ودينياً، ولامتداده فى التاريخ المعاصر صفات وأشخاصًا كنماذج متكررة، ولذا يصبح التاريخ القديم عبرة مكثفة الإيحاء عند استدعائه لعلاج حالة أو موقف يتفقده الشاعر، فالبردُّونى يناجى الشهيد "عبد الله اللقية" الذى حكم عليه بالإعدام فى محاولة اغتيال الإمام أحمد سنة ١٩٥٥ :

واهوى عنك ، أصفع وجه حظى   واعطى كل "جنكيز" قيادى
وعاصفة الوعيد تهز حولى   يد "الحجاج" أو شدقى "زياد" (١)

وتلك المناجاة فى معرض ثورة نفسية عارمة على نفسه وشعبه عند مقارنتهم بالشهيد، وفى معرض التماس العذر فى التخاذل، وكأن الوضع الحالى كان له نظير وتجنب السلف مجابهته، فهو يصور الشعب مجبراً على الولاء لجبروت الإمامة فى رمز "الحجاج"، وبطش الحاشية فى رمز "زياد بن أبيه" الذى سعى إلى تأصيل ملكه بانتسابه إلى "معاوية" وبنى أمية، وكذلك تسعى الحاشية إلى الإمام.

وقد يكون استرفاد التاريخ فى الصورة لتوليد المفارقة التصوريرية بين المثالية التى تحققت فى الماضى على أيدى شخوص نفخر بهم "وشخوص"تعد رمزاً للخيانة فى الماضى أيضاً، على أن هذه المفارقة حاضر معاش يمارسه أفراد الحكومات العربية:

القاتلون نبوغ الشعب ترضية   للمعتدين ، وما أجدتهم القُرب
لهم شموخ "المثنى" ظاهراً ، ولهم   هوى إلى "بابك الخرمى ينتسب (٢)

(١) "فارس الآمال سنة ١٩٦٠" من "فى طريق الفجر".
(٢) "أبو تمام وعروبة اليوم سنة ١٩٧١" من "لعينى أم بلقيس".

فالشخصيتان التاريخيتان رمزا المثالية الوطنية والخيانة، والرمزان أصبحا دلالة واقعية على أشخاص الحكم العربى الحاضر، مما يشير إلى خطورة الحياة الحديثة وغموض أحداثها وأشخاصها الحاكمين، فالصورة هنا تكتشف تداخل الرمزين أو الصفتين فى نفس واحدة وتحذر - بدورها التعبيرى والوطنى - من مغبة الاستسلام وتجنب مواجهة الاستعباد الحديث المتمثل فى الحكومات العربية.

ويجعل البردُّونى التاريخ قصيدة وصورة كبرى فى قصيدته المطلولة "حكاية سنين سنة ١٩٦٥" إذ يجعل الأحداث العظيمة التى مرت بتاريخ العالم الإسلامى منذ البعثة الإسلامية تمهيداً لتناول تاريخ اليمن القديم والحديث، وتصوير الحياة فيه فى عهد الإمامة بذكر الأشخاص الذين كان لهم دور فى القضاء عليه بكفاحهم المسلح وبكفاح الكلمة، كالشاعر محمد محمود الزبيرى، والوشاح، واللقية، والهندوانة، كما يذكر مقتطفات من القصائد التى شاركت فى أحداث اليمن كمستهل قصيدة الأستاذ الزبيرى. "سجل مكانك فى التاريخ يا قلم" والقصيدة على مجزوء الكامل المرفل، بلغت مئتين وستة وتسعين بيتاً، قسمت إلى ثلاث عشرة مقطوعة متفاوتة فى عدد الأبيات، وقد ضمت القصيدة أربعة وستين اسماً، ما بين أعلام على أشخاص من التراث الشعبى والدينى والتاريخى، ومن الشخصيات المعاصرة، وبين أعلام على جبال وروايات وقصائد شهيرة وأعلام على شهور وأشياء ذات دلالة خاصة، "كالصمصام" اسم سيف الإمام يحيى، وما يهمنا فى هذه القصيدة أنها صورة تاريخية تعتبر سجلاً فى تاريخ اليمن الحديث والقديم، وهو مما يعتبر تجديداً فى عالم الصورة الشعرية، أن تحمل الصورة التاريخ والأحداث وفلسفات التعبير والأشخاص، فلكى يصور الواقع السياسى المتدنى فى اليمن الحديث، يمهد له بتصوير الجذور السياسية البعيدة، وهو يعتقد أن الكارثة الحقيقية فى تاريخ العالم الإسلامى وقعت ببداية الحكم العباسى، الذى نازعت فيه المغنيات سيرة الخلفاء، أما العصر الأموى فعصر الفتوحات الكبرى، الذى استكان بالخيانة والخديعة، وفساد الحكم العباسى كان مطية الغزو المغولى بقيادة "جنكيز خان" وسبباً مباشراً فى تدمير الحضارة، وضياع الدين والعرب بعد ذلك أمام الغزو التركى والاستعمارى الحديث" ونقتطع من القصيدة صورة تاريخية:

أتقول لى: ومتى ابتدت   سخرية القدر البليد؟
وإلى بدايتها أعود   على هدى الحلم الشريد
منذ انحنى مغنى "علية" واستكان حمى "الوليد" (١)

(١) علية بنت المهدى" كرمز لانهيار الحضارة العربية، والوليد بن عبد الملك "كرمز للفتح العربى. "من ذيل القصيدة".

واستولد السحب الحبالى ألف "هارون الرشيد"
حتى امتطى "جنكيز" عاصفة الصواهل والحديد
وهنالك انتعل "التتار" معاطس الشمم العنيد
وتموكبت زمر الذئاب على دم الغنم البديد
فاستعجم "الضاد" المبين وراية الفتح المجيد
أين العروبة ؟ هل هنا أنفاس "قيس" أو "لبيد"؟
أين التماعات السيوف ودفء رنات القصيد؟
لا ها هنا نار القرى تهدى ، ولا عبق الشريد
لا مستعيد، ولا اختيال الشدو فى شفتى "وحيد" (١)

د - الصورة من الذات :

ذات الشاعر أخصب روافد تصويره، وتجيء الخصوبة من الصراع الدرامى بين الشاعر وذاته وأجزاء جسمه، وهو يكثف تلك الدراما ويلح عليها فى تصويره إيحاء بطبيعته المتمردة المقيدة، وتعبيراً عن واقع الانفصام الذى انبسط فى ضمير الإنسانية، فولد جموداً ماديًا طاغياً، كما برزت أمامه معان روحية ضائعة:

قد تقولون ذاتى الحس لكن اى شىء أحس ؟ من أين ذاتى
كل هذا الركام جلد عظامى فإلى أين من يديه انفلاتى ؟
يحتسى من رماد عينيه لمحى يرتدى ظل ركبتيه التفاتى (٢)

فهو ينكر أن يكون له أو للإنسانية فى طغيان المادية ذات أو أحاسيس راقية، والهروب من المادية مستحيل. لأنها توحدت فى الناس والأشياء وفيه، لا يتميز عنها إنسان بدونها، ويكثف معللاً تلك الصورة، ففى بيته الثالث تصوير للواقع من خلال النفس، فهو أسير قصور الرؤية وبعد النظر، فكأن عينيه احترقتا وتسرب من رمادهما نظره الذى لا يتجاوزهما إلى شىء، كما شلت حركته ومات طموحه، لا يتعدى نظره قدميه، ويلاحظ هنا اتكاؤه على خاصيته فى تفتيت جسمه فى الصورة، جلد عظامى، ذاتى، انفلاتى، لمحى، التفافى، وإن الإلحاح بالتعبير بها يعد بديلاً شديد الالتصاق به عن العمى.

---

(١) "حكاية سنين ١٩٦٥" من "مدينة الغد"، و "وحيد": المغنية التى أجاد وصفها ابن الرومى فى داليته.
(٢) "السفر إلى الأيام الخضر ١٩٧٤ "ديوان" السفر إلى الأيام الخضر".

ويرى الجوامد من خلال ذاته، فيشكلها ويبث فيها الروح ويبنى بخيالة عالمًا منهـا، يوحى بفرط المادية المتفشية التى أحالت الناس جوامد، تأسى عليها الجوامد الحقيقية لضياع النموذج الإنسانى منها:

كان ينساق جدار موثق بجدار ، وأنين الطين يحدو
كان يرقى ، ثم ينحط الحصى مثلما ينشق تحت الرمح نهد
وينث الركن للممشى صدى مثلما ينحل فوق التبن عقد (١)

فكما كانت ذاته وأجزاء جسمه رافداً للصورة، إيحاء بالفكرة، أيضا كانت الأشياء الجامدة التى انعكست ذاته فيها مادة غنية تكسب الصورة لونًا جديداً من التشكيل الموحى بالعزلة والصمت وأثرهما على الشاعر، إذ إنهما يشقان ذاته ويفتتان جسمه، ويدرك إزاءهما تغير الحياة التى يرصدها من بعيد، وتحول الناس أشياء جامدة سعيًا لتحقيق نوع من التقدم المادى والمعيشى.

هـ- الصورة من الطبيعة :

تأتى الطبيعة عند البردُّونى صوراً متتابعة، يمتزج فيها الصامت والمتحرك، يبثها مشاعره، ويلتحم فيها حتى تضيع شخصيته فى تصويره، ويلف الصورة وحدة كونية تظلل بروحها الأشياء والكلمات، فتعمل التشخيص فيها وتلون وتخطف الأحاسيس من صدر المتلقى، فيقف الشاعر مشدوه الخيال يتحدى المبصرين، مصوراً وقت الأصيل فى الريف :

تدلى كمزرعة من شرر معلقة بذيول القمر
وحام كغاب من الياسمين تندى على ظله واستعر
فمالت تودعه ربوة وتهتز كاللهب المحتضر
تعابثه وتباكي الطيور وتستعبر الرابيات الأخر
ومدت له القرية الهينمات كلغو الرؤى، كاصطخاب التتر
وأعلت له جوقة من دخان ومعزوفة من خوار البقر
فرف كأجنحة "من نضار" كأردية من دموع الزهر
وعراه صحو المدى فارتدى لهيب ذوائبه واتزر(٢)

---

(١) "دوى الصمت سنة ١٩٧٨" من "زمان بلا نوعية".
(٢) "أصيل القرية" سنة ١٩٦٧ من "مدينة الغد" .

ومن الطبيعة أيضا وصفه حياة أهل الريف فى منازلهم وأسمارهم، ونقل أفكارهم وأنماط التعامل بينهم، كصور طبيعية خاصة بهؤلاء القرويين دون غيرهم من الناس فى مكان آخر، وهنا يستخدم البردونى أسلوبه المميز وهو "ذكر الأسماء" فى قالب قصصى ليحاكى الواقع ويوحى بما وراء الواقع من بساطة وبراءة يتحلى بها أهل الريف فى مواجهة الفقر والمشاكل الاجتماعية، وبالإضافة إلى "ذكر الأسماء" ينتقى لغته دارجة فصيحة فى براعة ، ويضمها عبارات يقولها الناس دون تكلف رغم فصاحتها ودلالاتها الواقعية، كقوله، التاجر المعتبر، شارع مختصر، ترقع أسمال أطفالها، وغيرها من اللغة والتراكيب التى لا يفقدها عنصر الموسيقى اختياره الشعر التراثى قوالب لها:

وحيا فم القرية العائدين	ونادى ممر ولبى ممر
وأخفى "عليا" مضيق طويل	وواري "تقى" شارع مختصر
ودارت ثوان، فران السكون	ينوع بالذكريات السمر
ففي مسمر "ذكرت" "مريم"	أباها، وناحت كيوم انتحر
وفي مسمر بث "سعد" أباه	شجون الزواج، وأغضى البصر
وثرثر في كل بيت حديث	وأحزن كل حديث وسر
"فأم ثريا" تفوق الرجال	وتوحى أمر وأحلى الذكر
فكيف تجلت مساء الزفاف	وفي الصبح مات أبوها الأبر
"وأم على" تربى الدجاج	وتكدح خلف ارتعاش الكبر
ترقع أسمال أطفالها	وتحسو عروق يديها الإبر
"وحسان" خان غرور البنات	به، وانتقى: أم إحدى عشر
وباع "رجا" أخته في الرياض"	بالفين، للتاجر المعتبر
ومات "ابن سرحان" يوماً وعاد	يخبر جيرانه ، عن سقر
واصغى السكون إلى كل بيت	كحيران، ينوى وينسى الوطر
واغفى رفاق الهوى والقطيع	على موعد الملتقى المنتظر
وليلتهم ذكريات وحلم	كلمع الندى، في اخضرار الشجر
طيوف ، كما حث سرب الحمام	قوادمه، خلف سرب عبر
وكلت رياح ، وجنت رياح	ونجم تأني، ونجم طفر
وفتش عن قدميه الدجى	ودب، كأعمى يجوس الحفر
فأذكى هنا جمرات السهاد	واعطى هناك الرؤي والخدر
وأفنى هزيعاً، وادمى هزيعاً	فعاد الأصيل المولى سحر (١)

---

(١) نفسها.

فهذا الحس الرفيع من تفاعل الطبيعة الصامتة والمتحركة وتفاعل الإنسان الريفى كجزء منها، ومن مفهوم الشاعر الراقى لفكرة "الوحدة الكونية" التى تبث الروح فى الأشياء لتلتقى مع الإنسان فى خصائصه الحياتية، ليظل الوحى الأرضى ملكًا للكائنات كما هو ملك للإنسان.

وإن تحليق البردُّونى فى الآفاق مصطحبًا مفهومه "للوحدة الكونية" وليد نزعة غنائية عذبة وراقية، ترسم الواقع حيا وتبثه الذات بحالاتها النفسية المختلفة، وإن خياله القروى المركز جاء بالقرية فى المقام الأول، كطبيعة مشاهدة خالدة فى ذاته، وكطبيعة بشرية سهلة غير معقدة "تعتبر مصدراً للحياة الخلقية الصحيحة"(١)، وكعادته التصويرية نراه يتتبع منابع الصورة فى ذهنه حتى يصل بها إلى نهاية ترضيه.

ومثاله وصفه "للأصيل" "والربوة" فى الصورة السابقة، فهى تميل مودعة ينعكس عليها لون الشفق، فيتحول انحناء الوداع إلى اهتزاز المريض الحزين لفراق أنيسها "الأصيل" وتستغيث بالطيور تستبكيها، وتستعبر أترابها، ليقلع الأنيس عن الرحيل، فالشاعر فى هذا الإطار القصصى يبث الطبيعة أدق خلجات النفس الغائرة فى عمقه وكأنه يشكو فى عزلته وصمته فراق بنيه الذين لم ينجبوا بعد، وندرة تناهى الأصوات المحبوبة إلى سمعه، ولم يبن البردُّونى دولة مثالية فى الطبيعة كما فعل الرومانسيون؛ لأنه كان واقعى المنال متواضع المثالية، يراها فى الواقع إذا تغير، وفى الناس إذا ارتقوا فلم ينزع المثالية من الحياة ليبحث عن حياة أخرى، فكان أصدق مع نفسه ومجتمعه، يشارك بالكلمة فى رحلة الحرية والارتقاء بالمجتمع عن رذائله، ويشارك بها لرفع هموم شعبه ومعالجة أحزانه بالصورة الموحية التى تتولد منه وتعود بالفكر الجديد الناصح له.

وكما تستثيره الطبيعة الجميلة صامتة ومتحركة، توحى باللون والضوء والرائحة، تستثيره الطبيعة الجامدة، يستوحيها ويبثها حالته النفسية، وينقل إليها مشاعر شعبه، للتعبير عن فرحته بزيارة الزعيم جمال عبد الناصر إلى اليمن عام ألف وتسعمائة وأربعة وستين، وهى أول زيارة له بعد نجاح ثورة اليمن فى السادس والعشرين من سبتمبر سنة ألف وتسعمائة واثنين وستين، وهذه الطبيعة الجامدة لا تحمل فى دلالتها الموضعية إيحاء بنفسها، ولكن، تأخذ الإيحاء من بثها الروح، وإشراكها فى الصورة كعنصر بناء يشخصه الشاعر ويستولده الحركة، فى إطار إدراكه لفكرة "الوحدة الكونية" التى تسيطر على خياله عند استدعائه للأشياء وتنظيمها فى ذهنه، وتجسيدها صوراً حية محملة بأحاسيس ومشاعر إنسانية عميقة، فالحصى والحجر والمنحنى والمنحدر والصخر، أشياء جامدة بعيدة عن بؤرة الشعور المصور، يجترها أساسيات فى بنائه القصصى

---

(١) د.محمد غنيمى هلال: الرومانتيكية ص ١٧٢ ، دار العودة، بيروت سنة ١٩٨٦.

المصور للحالة النفسية التى تجتاح شعبه عند استقباله الزعيم الراحل :

أطل ، فـــأومى انتظار الحـــقـــول ومــاج الحـصى واشــرأب الحـجـــر
وهـــنـــأت الـــربـــوة المـــنـــحـــنـــى وبشـــرت الـنســـمـــة المنحـــدر
واخـــبـــر "صـــرواح" عند الجـــبـــال فـــأورق فى كل نجم خـــبـــر
واشـــرق فى كل صـــخـــر مـــصـــيف يعـنقـــد فى كل جـــو ثمـــر[1]

فهذا الأسلوب القصصى المصور، يعتمد على الحوار والسرد، وأداة الشاعر فيه التشخيص، بما يشيع من روح تعمق الإحساس بالوحدة التى تشد إليها أطراف الصورة، ومن واقعية هذا التصوير للجوامد أنه يوظف فى الصورة ما يدركه الشاعر بلمسه، ويجوبه بقدمه، فيجد أنسًا فى استدعائه، وصدقًا فى تشخيصه.

(٧) عناصر تشكيل الصورة:

الصورة وتراسل الحواس : [2]

يعتبر التراسل عنصراً مشعًا فى تشكيل الصورة، إلى جانب التشخيص والتجربد والألوان والموسيقى ومزج المتناقضات والغموض الشفيف الموحى الذى يثير المتلقى لمشاركة الشاعر فى عملية الإبداع، كما أنه هروب من الوضوح الذى يشمر الملل[3]، والتراسل: "هو تجاوب الروائح والألوان والأصوات فى وحدة عميقة"[4]، يعبر عن تأثير المشاهدات الذهنية والمرئية فى حس الشاعر ووجدانه، وكيفية تلقى ذلك التأثير والانفعال معه وبه فى وحدة إدراك ووحدة النفس مع اختلاف المشاعر التى تتنازعها، وقد تلاءمت ملكات البردُونى مع "التراسل"، فصاغ به صوراً توحى بعمق انفعاله بتجربته ولحظته الشعرية؛ فيجعل الأشياء تشتم الدفء والاخضرار، والدفء من مدركات الحس واللمس، والاخضرار من مدركات الرؤية، وذلك لتعميق معنى المخاض المرتقب" لوطنه المثالى الذى لم تكن الثورة بدايته:

كل شيء وشى بميلادك الموعود واشتم دفئه واخضراره[5]

---

(١) "أصيل القرية سنة ١٩٦٧" من "مدينة الغد".
(٢) تناولنا تراسل الحواس مع عنصر اللون فقط فى استخدام البردُونى للون .
(٣) انظر: د.على شرى زايد: بناء القصيدة العربية الحديثة ص ٨٧.
(٤) نفسه ص ٨٢.
(٥) "مدينة الغد سنة ١٩٦٧" من "مدينة الغد"

وتشتم بطلته "خطو" زوجها الفقيد فى زحام العائد ين من الحروب القبلية بعد الثورة، ويسيطر عليها أيضا مشاعر الترقب والانتظار:

وغـــداة يـوم ، عـــاد آخـــر مـــوكب   فشممت خطوك فى الزحام الراعد (١)

ويلون "همس" صنعاء، وهو من مدركات السمع:

همـــســـاتـهـــا الخـضـــر الرقـــاق أشف مـن ومض الســـراب (٢)

وليعبـر عن بشاعة تأثير الإعلام العـربى فى وجدان الناس، يستخدم التـراسل فى بناء قصصى، فيأكل "النشرة الإخبارية" وهى من مدركـات السمع أيضا، كما يأكل "الرغيف" وهو يوحى بذلك التراسـل إلى تعادل أثر الإعـلام وأثر الجوع، وكـلا الأثرين مدمـر، وفى نفس اللحظة يوحى بمدى حاجة الناس إلى الإعلام، الذى يتحول إلى أكاذيب تأكل طموح الإنسان العربى:

طلـبت فطـور اثنين ، قـــالوا بأنـنى   وحيد ، فقلت اثنين ، إن معى "صنعا"
أكلـت وإياها رغـــيـــفـــاً ونشـــرة   هنا أكـلتنا هذه الـنشـــرة الأفـــعى (٣)

ويأتى القاهرة ضيفًا ، لعل فيها العزاء عن وطنه الجـريح بكثرة المنازعات السياسية والعسكرية، وجمود الحـياة فيه، فـيصطدم بالأشد سوءاً، الكثرة من الـناس معدمون فقـراء، يتمثل فيـهم انهيار الإنسانية، وجـبلت القاهرة على المادية المفرطة، ورأى فيها بيـقين بصيرته الطبقيـة وانعدام المساواة، والخنوع لبطء الحياة المفروضة بعد هزيمة سنة ١٩٦٧، فـحمل على كاهله مصر أم العروبة المتكسة وهموم وطنه اليمن، فغدا أو تمنى أن يغدو هواء لا يفكر ولا يحزن، تحمله الرياح وتضمه الصحراء فيصف المـسموع بالألوان، كوصفـه للأسماء "وهى من مدركـات السمع" بالاصفرار، إمـعانًا فى أزلية الفقر وتضرر الإنسان به، فكأن الأسماء عند اختيارها للمولود منذرة بمستقبله المريض بالسل، وهذه مبالغـة تقتضيهـا الحالة النفسية الحـزينة، وقد قصد إليها فـى صورته، لأنه كان من الممكن ان يصف "الوجوه" بالاصفرار بدلاً من "الأسامى"، ولم يفعل إيثاراً للتراسل وتكثيف الحالة النفسية:

من هنـا ؟ غـيـــر الأســـامى الصـفـــر تصـرخ فى خـــفــوت
غـــبـــر انهـــيـــار الآدمـــيـــة وارتـفـــاع الـبنكـنوت
وحـــدى ألوك صـــدى الـرياح وأرتدى عـــرى الخـــبـــوت (٤)

(١) "امرأة الفقيد سنة ١٩٦٤" من "مدينة الغد".
(٢) "عائد سنة ١٩٦٣" من "مدينة الغد".
(٣) "صنعاء فى فندق أموى سنة ١٩٧٧" من "زمان بلا نوعية".
(٤) "انسى أن أموت سنة ١٩٧١" من "لعينى أم بلقيس"، الخبوت: الصحراء الممتدة.

وفى بيته الأخير من الصورة، وجدناه يمضغ صوت الرياح، والصدى من مدركات السمع، تأكيداً لمعنى الطبقية التى تعزل الكثرة إلى الجوع والعرى، وكذلك يتضح مزجه للمتناقضات فى الصورة نفسها، أرتدى، عرى وتصرخ، خفوت، إذن تكاثفت فى الصورة إلى جانب التراسل، عناصر أخرى، كمزج المتناقضات والتشخيص الذى جعل الأسماء تصرخ وتتألم فى الإنسان، والطباق الذى ولد مفارقة تصويرية فى البيت الثانى بين انهيار وارتفاع، والطباق من خصائصه الأسلوبية فى التصوير، وتنصهر تلك العناصر فى تشكيله الموسيقى الذى أوحى بترتيب الصورة فى إطار التدرج المنطقى للشاعر من تأثير العام وهو حركة الناس وانهيارهم - فى الخاص - وهو نفس الشاعر، المتألمة فى البيت الثالث، فالبيت الأول والثانى يشتملان على ست مدات بالألف: ذا، هنا، الأسامى، انهيار الآدمية، ارتفاع، تحدث إيقاعًا ونبراً عالياً، يوحى بوصف المشاهدات العامة المحزنة، وبتأثيرها على نفس الشاعر، فالمدات تعد تأوهات نفسية، يطلقها الشاعر فى لغة صورته المنتقاة، ثم يأتى البيت الثالث، يقسمه مد الألف وهو الوحيد فيه، ليوحى بانعكاس ما كان إلى ذاته، التى تفردت بعد ذلك بمد الياء مرتين: وحدى، أرتدى، وبمد الواو مرتين: ألوك، الخبوت، فى حين لم يذكر مد الياء إلا مرة فى البيت الأول، ولم يذكر مد الواو إلا فى قافية الأبيات وصورته الأخيرة، وهذان المدان بالياء والواو يشيعان نبرا وإيقاعًا خفيضًا يكثف الإحساس بتفرد تأثره بهموم شعبه العربى، ويؤكد النبرة العالية فى بيته الأول، انتقاؤه لكلمات تشتمل على حروف ذات صفير كالسين والصاد فى المتجاورات: الأسامى، الصفر. تصرخ، وينعدم ذلك فى بيته الثانى، الذى يضم الهاء والياء المشددة إلى جانب المد بالألف؛ ليوحى - كما سبق - بالألم الدفين، ثم يأتى البيت الثالث مشتملاً أكثر على حروف الهمس: الواو والحاء والياء والكاف، وهو ينهى كل صورة بوقعه الموسيقى المختار أيضاً، فالتاء وهى من حروف الهمس، يسبقها بواو المد؛ لتستقطب الأنفاس المترددة، وتظلل الوحدات الموسيقية المكررة بنهاية ممتدة متوقعة، بهذا لا تصبح القافية مجرد خاتمة رتيبة، بل عنصر موسيقى يشارك فى بقية العناصر المتجانسة.

ولقد سبق أن تناولت التجريد والتشخيص - وهما من وسائل تشكيل الصورة عند البردُّونى - فى خصائص الصورة، لتفردهما فى معظم صوره، واستخدامهما بطريقة تميزه عن كونهما مجرد أداتين فى التشكيل، كما تناولت الألوان أيضًا فى خصائص الصورة؛ لأن إدراكات اللون بالنسبة للبردُّونى فريدة الاستخدام فى الصورة، وتعتبر من غرائب الأدوات المصورة، لخروجها عن دائرة حسه الظاهر.

ونذكر مثلاً يضم فى طياته عناصر تشكيل صورته مجتمعه، يحشدها ليشحن الصورة بالغموض والتهويم، ويجتر من خصائصه الأسلوبية الطباق، ليضيف إلى التناقض تعميقًا لحالة

التوتر التى يحياها، كما يرسم صوراً هى خلفيات مكانية زمانية لصور أخرى، تبين بوضوح دوره القيادى فى بلاده لتغيير واقع اليمن قبل الثورة:

من القبر ، من حشرجات التراب — على الجمر ، من مهرجان الذباب
ومن حيث كان يدق القطيع — طبول الصلاة أمام الذئاب
ومن حيث يحشو حنين الربى — غبار المنى ونجيع السراب
ومن حيث يتلو السؤال السؤال — ويبتلع الوهم ذعر الجواب
عرفت اصفرار الرماد العجوز — ليحمر فيه طفورالشباب
وحرقت أنفاسى المطفآت — وأطفأتها بالحريق المذاب
فإن حروفى اختلاج السهول — وشوق السواقى وخفق الهضاب [1]

تتوشح الصور بالغموض فى بدايتها؛ لاتخاذ الشاعر رموزاً توحى بمأساة بيع الحكومات الأوطان والشعوب للمستعمر الحديث، وهؤلاء المفرطون فى أوطانهم كذباب فى مهرجان النار، مما يضىء طريق نهايتهم، ويحذرهم من الهاوية، رغم أن الشعب ميت فى رمز التراب، وهو قطيع يقدم القربان للذئاب، ويوحى بالتناقض المعكوس مع الصوت فى دق القطيع الطبول للذئاب، وكذلك يعمل التناقض فى صورته قبل الأخيرة، إذ يحرق ويطفئ بالحريق، كما يعتمد فى الصورة على أسلوب : تماثل النهاية والبداية كقوله: المطفآت وأطفأتها، وفى الوقت ذاته يعمل التكرار لتكثيف حالة الحيرة والضياع، ويستخدم التراسل فى عزفه للون الأصفر، بالإضافة إلى التشخيص الذى لا يخلو منه صورة، ويتميز فى البيت الثالث مزج التجريد بالتشخيص: حنين الربى يحشو غبار المنى، وفيه أيضًا التضاد بين النجيع والسراب: فالنجيع هو الماء النمير[2] والسراب هو توهم رؤية الماء.

والشاعر بهذا التركيب يعقد خيوط الصورة، بالإغراق فى عدم منطقيتها؛ ليعبر عن قوة كلمته الشاعرة فى زمن الضعف قبل الثورة، ومدى تأثيرها الإيجابى فى شعبه، ويتضح ذلك المعنى من هذه الصور، التى يصعب تتبع فكرته فيها، وهى تحويل الوهن والموت إلى قوة وحياة:

أنا من غزلت انتحار الحياة — هنا شفقاً من زفير العذاب
ولحنته سحراً يحتسى — رؤى الفجر بين ذراعى كتاب
وتنبض فيه عروق السكون — ويمتد فى ثلجه الالتهاب [3]

---

(١) "إلى قارئى سنة ١٩٦٣" من "فى طريق الفجر".
(٢) لسان العرب ص ٤٥٦١ «نمر».
(٣) "إلى قارئى سنة ١٩٦٣" من "فى طريق الفجر".

ففى بيتـه الأول يجسد الموت إلى لون الشفق من صوت الزفـير المتألم، وفى بيته الثـانى يجسده وهو أصلاً مجرد إلى لحن يسمع وسحر يرى، وجعلهما شيئًا واحدًا فى ذاته، هذا الشىء "الموت أو الجهل" يحـوله أيضًا إلى شخـصٍ يلتهم العلم ويسعى إليـه، فيحـيا به ويتحـول السكون إلى نبض وعروق ولهب من الثلج، والبردُّونى صاغ صـورته بهذا التشابك ليصور معاناته فى صيـاغته الحياة كلمات قـوية فى زمن انعدام الكلمة الحرة البناءة عـبر رحلة فنية شاقـة وصادقة، ليـيسر على أبناء شعبه استطلاع الماضى المظلم والتنعم بالحاضر، وقد رأى الشاعر أن التشخيص والتجربة والتراسل والألوان والتناقض الممزوج مثل: تـنبض عروق السكون، يمتد فى ثلجه الالتـهاب. وكذلك بعض خصائصـه الأسلوبية كالتكرار والطباق وتماثل النهـاية والبداية بين آخر صدر البـيت وأول عجزه، كلها عناصر يصهرها ليبنى صورته المعبرة عن حالته وحالة شعبه قبل الثورة، وأبعاد كفاحه بالكلمة المسموعة من أجلهم.

(٨) لغة الصورة:

لغة البردُّونى المصورة شـديدة الخصوصية به، تميزه بفرديتهـا، وما تفجر من صور ذات دلالات نفسـية عـميـقة ومركـزة "فتـسمع منهـا الموسيقى والمـعنى،والبساطـة والزخرفة، والفكـرة، والقوة الدراميـة، والتكثيف الغنائى، والكنايـة، واللون والضوء"[١]، وعندما تمتزج الكلمـة بالكلمة، تعلو الصورة آفاق الخيال، وتدور إلى جانب أخرى فى فلكه النفسى، وهو لا يستدعى غريب الكلمات؛ بل "الكلمة التى توائم تجربته وتتمـشى معها، فنشـعر بصدق العـاطفة والتعبـير"[٢]، ويمتاز أيضًا "بصيغ الألفـاظ العادية المألوفـة - كما سنرى - بصـيغـة شعرية رائقـة، يجمعـها بمهـارة فى جمل وعبارات [٣]، والبردُّونى يعتـبر بذلك علامة بارزة فى تجديد لـغة الصورة الشعرية، فـالكلمة تحمل دلالتها اللغوية بالإضـافة إلى موقعها فى الصورة إلى جانب أخرى، مع مـاتستدره تلك الكلمة من عوالـم خفيـة فى قرارة نفـسه وضـميـره، ولذا اختـارها دون غيـرها، وهدهدها حتى استـلقت فى صورته موحية وأمينة، ولنتأمل الصفة فى هذه الصورة، وهو يناجى صديقه فى قبره:

أ- دور الصفة :

شـــاخت الأمـــسـيـــة المـليـــون فى   ريش صوتى، وانحنى ظهر سهادى[٤]

---

(١) د. الطاهر أحمد مكى: الشعر العربى المعاصر ص ٨٠.

(٢) نفسه ص ٧٩.

(٣) نفسه ص ٧٨.

(٤) رسالة : إلى صديق فى قبره سنة ١٩٨٣ من " ترجمة رملية "

فاسم العـدد "المليون" جاء "صـفة"، وهو اسم دارج كثير الشيوع، غـدا جديداً في موقـعه، لم يقصد به الشـاعر دلالة الحصر البـسيطة، بل تناهي الأبعاد والأعداد، وبذلك لاءمت الصـفة الفعل شاخت الذي جـسم الأمسية عجـوزاً في صورة مركبـة، فالصفة "المليـون" طرفا الصورة، بموقـعها صفة في الطرف الأول وهي شيخوخة الأمسية، وبموقعها في الطرف الثاني جزءاً من الصوت الذي شخّـصه أيضًا طائـراً حزيناً، وتأتي الصورة الثـالثة طرفًـا يؤكد الطرفين السـابقين ويعـمق الصورة الكلية ، فـيلتقي الانحناء والشيـخوخة والمليـون كعناصر مـختلفة تصب في حـالته النفسـية، وهي اليأس من تغيير أفكار الإنسان اليمني ليحيا واقـعه الجديد في انطلاقة وحرية، إذن، اكتسبت الصفة معنى جديداً من التقـائها بكلمات أخرى في الصورة .. وبالإضافـة إلى ذلك تعد كل كلمة صورة بذاتها؛ لأنها تستـدعي شيئًا مصوراً في أذهاننا، يضـمه الشاعر في وحدة نفسيـة رحيبة، تسع أنماطه التصويرية، فهذا التشكيل اللغوي هادر بالطاقة التصويرية إفراداً وتركيباً.

وقد يفـجأنا الشاعـر بصفة دارجة أيضـا، ولكن إذا تصورت إلى الموصـوف رأيناها تفيض من عالم الكوابيس المفزعة؛ تعبيراً عن المادية المفرطة التي انحدر إليها الإنسان:

من جـلدي الخـشـبي أخـرج تدخل الأزمـان جـلدي (١)

فكلمة "الخشبي" صفة تعبر بوضوح عن جمـود الإنسان لدلالتها الواقعية، وعدم منطقية الواقع لدلالتها الإيحائية كوصف للجلد، مما يوحي بانفصال الإنسان عن روحه المثالية.

وقد تحمل الصفة مسئولية بناء الصورة ؛ لإمكان وقوعها عنصرين في عناصر البناء:

للشـواني لغـة عـشـبيـة للأسى أجـنحـة تزقـو(٢)

فوصف اللـغة بالعشب، فـيه تجسيد من نـاحية، وفـيه تراسل من ناحـية أخرى؛ لأن الـلغة من مدركات السمع، والعـشب من مدركات اللمس والبصر، فكأنه يلمس اللغـة ويسمع العشب في رحابة الصورة.

وقد ينزلق إلى إغراء الصفة، فيخفق التصوير ويهرب التكثيف الذي يمهد له:

ويرخي الصـمت رجليـه على عـكـازه يـركـع
فـتـمـضي المنيـة الشـعـثا ويأتي الخـاطـر الأصلع(٣)

(١) "صياد البروق سنة ١٩٧٦" من "وجوه دخانية".
(٢) "دوي الصمت سنة ١٩٧٨" من "زمان بلا نوعية".
(٣) "بين بدايتين سنة ١٩٧٩" من "زمان بلا نوعية".

فوصف الخاطر بالصلع وصف غير موفق، لأنه ليس لكل الكلمات الدارجة الإيحاء المناسب للموصوف فى الصورة، والبردونى يفرط فى الوصف باللغة الدارجة فيقع أسير محاكاة الواقع فى غير لباقة وعمق، فبالإضافة إلى شيوع الوصف "الأصلع" لهيئة إنسان معين، يحمل تجسيمًا للموصوف، يتنافر مع ارتقائه وتجرده، كما يتنافر مع شمول الصورة التى توحى بالذعر من الصمت والعجز والعزلة، وقد دفع الشاعر إلى تلك الصفة: أولاً: محاولته تقريب الصورة الى المتلقى بمحاكاة لغته. وثانياً: شغف الشاعر الشديد بأسلوب التناقض والطباق: فتمضى، يأتى والشعثا، الأصلع.

ب - التكرار فى الصورة :

الحزن الجديد - بتعبير الشاعر - ارتسم فى كل شيء، وتمثل فى أشد الأشياء ثباتًا وهو الزمن، والزمن مفروض علينا يدركنا اعتيادياً، وأقل وحدات الزمن "الثانية" يكررها، ويتحول بها ويجسمها، ليشيع فى جنبات الصورة التوتر والخوف من ذلك الحزن الذى:

يكتب الأقدار فى ثانية ... ثم فى ثانية يمحو الكتابه
للثوانى اليوم أيد وفم ... مثلما تعدو على المذعور غابه
وعيون تغزل اللمح كما ... تغزل الأشباح أنقاض الخرابه (١)

فتكرار اسم الزمن "ثانية" أفاد ملازمة الحزن والخوف للزمن والإنسان وليست الملازمة وليدة حادثة أو زمن معين، بل ملازمة امتزجت بكيان الإنسان الذى تغزل عيناه الخوف المستقر فى ذاته وتعكسه فى تصرفاته، وهذه حقيقة نفسية، أن المذعور يشاهد ما يفرزه ذهنه الخائف، وليس المشاهد الواقعة إزاء عينيه، وهذا الحزن الجديد يجثم على روح الإنسان من سوء الأوضاع السياسية فالاقتصادية المتعمدة.

وقد تتكرر الكلمة مسندة لطرفين. إيحاء بتوحدهما فى التأثر بالموقف الواحد، كامرأة الفقيد الخائفة، التى ارتأت الجدران فى حالتها ترتقب عودته المستحيلة، بل كانت الجدران أشد تأثراً بما ينعكس عليها من تشخيص يبرز الوحشة والكآبة:

لا تنطفى يا شمس ، غابات الدجى ... يأكلن وجهى ، يبتلعن مراقدى
وسهدت ، والجدران تصغى مثلما ... أصغى ، وتسعل كالجريح الساهد (٢)

---

(١) "عينة جديدة من الحزن سنة ١٩٧٣" من "لعينى أم بلقيس".
(٢) "امرأة الفقيد سنة ١٩٦٤" من "مدينة الغد".

فتكرار الإصغاء أفاد وحدة المشاركة فى الموقف، وتكرار معنى الأكل فى البيت الأول أفاد المبالغة فى الخوف.

وقد يلح الشاعر على تكرار كلمات ذات دلالة بيئية ونفسية عالية، بمثابة الخلفية التصويرية الصوتية لتجربته الذاتية، كتكرار معنى "السعال" فى أفعال وأسماء، فيأتى التكرار خلال صورة واحدة ، ويأتى خلال قصيدة واحدة، كما يأتى خلال نتاجه الشعرى الغزير، ومثال ما جاء فى صورة واحدة، وصفه لحسناء ريفية جرفها سيل المادة فى المجتمع إلى الانحراف :

وتسعل فى صدرها أمسيات ... من الطين تبصق ذوب الحنايا
فلا طيف حب يشق إليها ... سعال الكوى أو فحيح الزوايا [(١)]

فمعنى "السعال" يجتر عالمًا مغرقًا فى المرض والفقر، وتزداد حدة الصورة من إسناده إلى الجوامد كالكوى، والمجردات كالأمسيات، فيقوم التسخيص ببث الحياة فيها، لتلتحم مع الشاعر فى وحدة تأثر عميقة وقوية، ويضيع فى الصورة بعض الكلمات غير اللائقة مثل، تبصق، لأنها ذابت فى معنى "السعال" فكانت تكملة له فى الصورة الصوتية المتدفقة بالحركة.

ومثال ما جاء مكرراً بلفظه ومعناه فى الصورة، تضمه قصيدة واحدة كلها صورة، تكرار "الليل" ولوازمه: الصمت والسكون والظلماء، تعبيراً عن سيطرة الفقر، ودحض الطموح الإنسانى المقصود، ومدى معاناة الفقراء ، فيصور الشاعر مساكنهم تحت وطأة الليل:

نامت ، ونام الليل فوق سكونها ... وتغلفت بالصمت والظلماء
وغفت بأحضان السكون وفوقها ... جثث الدجى منثورة الأشلاء
وتململت تحت الظلام كأنها ... شيخ ينوء بأثقل الأعباء
أصغى إليها الليل لم يسمع بها ... إلا أنين الجوع فى الأحشاء
ودجت ليالى الجائعين وتحتها ... مهج الجياع قتيلة الأهواء[(٢)]

فكل الصور المتلاحقة تتابع كلمة واحدة وتتبنى عليها بمعانيها وهى "الليل" والليل عند البردُّونى مفهوم آخر؛ لأنه قرينه الأسود الأبدى المكره عليه، وقد تكررت الكلمة بلوازمها ثلاث عشرة مرة: "نامت – نام – الليل – سكونها – الصمت – الظلماء – غفت – السكون – الدجى – الظلام –

(١) "نهاية حسناء ريفية سنة ١٩٦٥" من "مدينة الغد".
(٢) "ليالى الجائعين" من "من أرض بلقيس".

الليل - دجت - ليالى - بالإضافة الى الإيحاء بالليل فى "الأحشاء".

ومثال ما جاء مكرراً فى نتاجه الشعرى الغزير أفعال الصوت والحركة العنيقة، كمعادل بدبل عن العمى، مثل "نطحن" فى هذه الأبيات:

- وتطبخ الشهب رماد الضحى   وتطحن الريح عشايا الصقيع (١)
- أوما تلمحينه كيف يعدو   يطحن الريح والشظايا المثارة؟ (٢)
- سرينا، وسرنا نطحن الشوك والحصى   ونحسو ، ونقتات الغبار المجرحا (٣)

ولا يخفى اعتماده على التشخيص لإبراز قوة الحركة، ثم إداركه لدور التوافق فى بناء الصورة، فتشخيص الشهب والريح والضحى فى البيت الأول يؤازره عنف الفعلين: تطبخ وتطحن، ويوافق العدو الطحن والشظايا فى البيت الثانى، ليبرز قوة الطحن، والسير المتواصل ليلاً ونهاراً يوافق أيضا روح الإصرار لطحن العوائق المتمثلة فى الشوك والحصى.

والبردُّونى فى استدعائه لتلك الكلمة المكررة وإبرازها بمعان أخرى تقوى معناها، إنما يركز على التشكيل الحسى للصورة بالتشخيص ؛ لتكون الصورة أوقع، وهو لا يغرق فى الحسية، ويخفف من الحسية بتشخيص المجرد وإدخال عناصر الحركة والضوء كقوله، عشايا الصقيع، فالعشايا: عدم الرؤية بالليل أو الذين لايرون بالليل، وتحمل عكس الإضاءة وهو السواد، والصقيع: البرد الشديد، وتحمل الكلمة إلى جانب دلالة البرد، دلالة لونية بيضاء من الثلوج موطن البرد، إذن فهذا التركيب الإضافى يحوى التجريد والتشخيص واللون والضوء فى امتزاج الكلمتين والدلالتين، وكطرف "يطحنه الريح"، رمز روح التعبير التى غرسها الشاعر فى شعبه بشعره وكلمة الحق والحرية.

وليس التكرار موفقًا دائمًا عند البردُّونى، أحيانًا يأتى للحشو وملء الفراغ، فيحيل الصورة إلى عبث، أيضا لمحاولة محاكاة الواقع بلغة الواقع الدارجة، يقول فى وصف الثوار:

من العشق جاءوا ، كالأساطير والرؤى   إلى العشق جاءوا ، جمروه وكبرتوا
وكانوا عفاريتاً من الشوق كلما   أتوا بقعة أصبوا حصاها وعفرتوا(٤)

يكرر كلمتين: العشق جاءوا، كما كرر كلمة؛ عفاريتًا فى توليد فعلها، والتكرار لمجرد الحشو

(١) "فاتحة سنة ١٩٦٨" من "مدينة الغد".
(٢) "مدينة الغد سنة ١٩٦٧" من "مدينة الغد".
(٣) " من رحلة الطاحونة إلى الميلاد الثانى سنة ١٩٦٩" من "مدينة الغد".
(٤) "نقوش فى ذاكرات الريح سنة ١٩٧٩ " من "زمان بلا نوعية".

والمبالغة ويتضح التكلف فى ممارسة خصائصه اللغوية، وهى توليد الأفعال واشتقاقها من الكلمات الجامدة مثل: كبرتوا من الكبريت، وعفرتوا من العفريت، وشيوع الأخيرتين لا يسمح باستخدامهما فى حالته النفسية إن كان صادق التعبير؛ لأنه يتحدث عن الأحرار الذين أشعلوا روح الحرية بدمائهم، بينما الكلمتان تأخذان تصوير المزح والهراء لمجرد المبالغة البسيطة.

جـ - التضاد فى الصورة :

التضاد أحد الوسائل اللغوية التى يعتمد عليها البردُّونى لتوليد المفارقة، وللتعبير عن تجارب ذات أبعاد معقدة فى نفسه، ومتضاربة فى الواقع، ففى المقارنة بينه وبين بعض الذين آذوه وحقدوا عليه مكانته الفنية فى بلاده، يستخدم التضاد مولداً مفارقة تصويرية:

ورضيت أن أشقى وأسعدَهم ... وهجُ الوحول وزخرف العفن (١)

لقد أضاف إلى الوهج والزخرف الوحول والعفن رغم تناقض المضافين، ليحط من اختيارهم، وتأتى المفارقة بين موقفين: الرضا بالشقاء والسعادة بالظاهروهو الوهج والزخرفة فى حين أن باطنه الوحول والعفن، فالصورة تشع بالقيم وتحث على الأخلاق والتجمل بالصبر على الشقاء الشريف، وعدم الانسياق خلف مباهج قميئة الباطن.

وللإيحاء بالنشوة الجنسية المطمئنة، يعتمد على التضاد والتكرار .

الجمرات الخضر فى لمسه ... تثلجت واحدة واحدة (٢)

فالتضاد بين الجمرات والخضر، واصطدامهما يصور مدى اللهفة العارمة إلى الأنثى، فهى متقدة الرغبة والتأثير كالجمرات، ناعمة الملمس كنضارة الخضرة وطراوتها، ويحول التضاد اللغوى إلى مقابلة بين الجمرات وتثلجت، إيحاء بانقضاء الرغبة والطمأنينة التى يصورها بالتكرار: واحدة واحدة.

ويستخدم التضاد اللفظى لتصوير واقع المجتمع الطبقى، فالإنسان فيه منعزل بفقره، ليس له رداء إلا عرى الصحارى يتيه فيها بعيداً عن إحساسه بالنقص فى المجتمع المادى :

وحدى ألوك صدى الرياح وأرتدى عرى الخبوت (٣)

فالتضداد بين : أرتدى وعرى ، يوحى بالفقر ورغبة الهروب من الطبقية .

---

(١) 'فى الجراح سنة ١٩٦٣' من 'فى طريق الفجر'.
(٢) 'خدعة' من 'مدينة الغد'.
(٣) أنسى أن أموت' سنة ١٩٧١م من 'لعينى أم بلقيس' .

د- التحول اللغوى :

ومن وسائله اللغوية أيضًا لبناء الصورة "التحول اللغوى" ونقصد به تتبع الشاعر لكلمته عبر صورتين مختلفتين، فتختلف دلالتها النفسية واللغوية فيهما، وتتولد من الاختلاف صورة خلال القصيدة، تربط بدايتها بنهايتها وأجزائها، وتوحى بالتعبير عن مشهدين وعصرين مختلفين رغم توحدهما فى اللغة:

- صـــمت ، إغــفـــاء ثلجى　　لم يلمح فى الحلم الصــبـــحــا

- وغـــــــلا فى الثلج دم حى　　فــأحـــال برودته شــعله[1]

فالبيتان من قصيدة واحدة متعددة القوافى، يتأمل فيها الوضع السياسى فى اليمن زمن الأئمة، ثم يتحول إلى الحاضر، والصورة الأولى تشكيلة لغوية من: الصمت - الإغفاء - الثلج - واستحالة شروق الصبح، والصورة الثانية أيضًا تشكيلة لغوية مما سبق، ولكنه قد تحول إلى معان أخرى من نفس اللغة باستثناء "غلا" ليحدث تحولاً متناقضًا مع "صمت"، فالإغفاء الثلجى صار دمًا حيًا، واستحالة الشروق من النوم الثقيل غدت نارًا مشتعلة، كما تحول الصمت بالتناقض والتضاد إلى غليان، وهو يستخدم التحول اللغوى لتأكيد الحدث والموقف وهو التغيير الفعلى فى الحياة السياسية فى بلاده.

الصورة الشعرية بين التقليد والإبداع:

لم يحاول البردُّونى الخروج عن القالب التراثى الشعرى[2]، مؤثرًا أصالة البناء وهديره الموسيقى الأثير، الذى واءم شخصيته الفنية ودراسته الأكاديمية لفنون اللغة والأدب، ومن ثم فقد أبدع فى هذا الإطار وجاء بالجديد الرائد فى عالم الصورة الشعرية، ويتخلق الإبداع من ثقافته الغزيرة والمتشعبة فى أرجاء العوالم الشعرية المترجمة، والإلمام المستنير بالشعر العربى القديم والحديث، ومدى تأثره بالتيارات والفنون العالمية الوافدة سلبًا وإيجابًا. وقناعته الفنية برحابة التصوير فى حقول اللغة، جعلته حذرًا فى تأثره بالشعر العالمى المترجم، فاسترفد أنماطًا جزئية تكثف جوانب الإيحاء فى الصورة، وتجدد فيها روح الألفاظ والتراكيب، وتدفع المتلقى - لمالتلك

---

(١) " لا ارتداد سنة ١٩٦٣ " من "فى طريق الفجر".

(٢) سوى مرة واحدة فى قصيدته: الحريق السجين سنة ١٩٦٣ من ديوان "فى طريق الفجر" خلال بيتين فى مقدمة القصيدة فقط.

الأنماط من مفاجأة وإغراب - إلى تعلقه بمعايشة اللحظة الأولى للتجربة التى تتولد فيها الصورة، للبحث عن ومضات تنير له تلاحمه مع خيال الشاعر، والبردُّونى لذلك ليس شاعراً رمزيًا ولا سرياليا؛ لأنه "لا تتحقق" الرمزية إلا داخل إطار من الصور الرمزية المركبة، أما الصورة أو الصور الجزئية فإنها - مهما كانت قيمتها - لا تستطيع خلق قصيدة رمزية حقه"[1]. كما أنه من الفوارق الهامة بين الرمزيين وشعراء استلهموا الصور الرمزية، أن "الرمزيين يعتبرون الرمزية سمة كلية للأسلوب، وليست سمة لتلك العلاقات الجزئية التى تربط كلمة بأخرى"[2].

ومن الممكن أن نقسم صور البردُّونى من حيث الإبداع والتقليد إلى ثلاثة أقسام، الأول: الصور التى يشكلها بالتشخيص والتجريد والتراسل ومزج المتناقضات، وهى السواد الأعظم من نتاجه الشعرى، وقد ورد منها فيما سبق الكثير، والثانى: الصور الحسية التى تقوم على التشبيه المنظور دون إعمال للخيال الذى عهدناه فيه، وقد تصل من فرط حسيتها إلى فقدان العاطفة، ومن ذلك وصفه حضور حبيبته فى خاطره بإناء الفضة اللامعة أو بلمعان الفضة :

وإذا ذكرت لقاءها ورحيقها   لاقيت فى الذكرى خيال الجام [3]

فالصورة رغم دورانها فى فلك الذكرى المجرد، فإن المشبه به" خيال الفضة اللامعة" قد صبغ عناصرها بالحسية، التى يبدو فيها تقليد البردُّونى نمط التصوير التشبيهى عند شعرائنا القدامى.

ومن الصور الحسية أيضاً، والتى تخلو من العاطفة والانفعال والتوتر، ما جاء فى القصيدة نفسها:

وتلفت السارى إلى السارى كما   يتلفت الأعمى إلى المتعامى

لقد أعتمت الصورة بالتكرار غير الموحى، وبموت العاطفة وفقدان الفكرة، لعدم استخدام الشاعر أى عنصر من عناصر التشكيل، وتكلفه للمشبه به الذى جاء حشواً فارغًا من المعنى والمنطقية، وقد تكون الصورة حسية، ولكنها مفعمة بالإيحاء المنشط للخيال، وذلك حينما يعمل التشخيص فيبث الروح فى التشكيل، من ذلك وصفه الساخر للمسئولين فى الحكومات الذين يركبون كل موجة سعيًا لتحقيق مصالحهم:

---

(١) د.محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر ص ٨٧.
(٢) نفسه ص ٨٧.
(٣) 'لقيتها سنة ١٩٥٩' من ' فى طريق الفجر'.

تــرى هــا هـــنــا وتـــلاقـــى هـــنـــاك   صـفـوفـاً من الوحـل تتلو صـفـوف
علـيـــهـــا وجـــوه أراق الـنـفـــاق   مـــلامـــحـــهـــا واضـــاع الأنوف (١)

والقسم الثالث من أقسام صور البردُّونى من حيث الإبداع والتقليد:

الصور الإبداعية الرمزية والسريالية:

أ- الصورة والرمزية :

الجرأة أقوى صفات البردُّونى للإقدام على أنماط تلك الصور وتركيباتها المزدوجة والمعقدة، فله قصائد ذات إطار رمزى، تدل علـى أنه قد استـلهم من الرمزية مـا استلهـمه منهـا شعـراء العرب المحدثون، (٢) وهو استلهام جزئى لم يخترق جدار المذهبية الرمزية، فعندما يتنازع الشاعر عواطف مختلفة، بين حب الثورة والخوف والإشفاق عليها من ضلالها فى طريق ضد مصالح الشعب الذى فداها بدمه، وتكسرت محاولاته فى تنبيه الأحرار الحاكمين لتلك السلبيات، يتخذ الإطار الرمزى للثورة "طفـلاً" كبداية عاطفـية، ويتيح له حـرية التعبيـر مع الحفاظ على أواصـر الصلة بينه وبينها، ولينمو الصراع فى إطار ودى رمزى، تتدفق فـيه المشاعر خليطا من الحلم والواقع. فنراه قد "تخطى بتشخيـصه حدود الاستعارة ليبنى الرمـز، فقد تتبع الوجه الحقيـقى للرمز "الطفل الجنين" وأكده بما هو من خصائصه، وترك لنا الباب مفتوحًـا لكى نحدس بالوجه الآخر من الرمز، واستلهمنا ما أراد أن يومئ إليـه، فجـمع بين الواقـعى والتـجريدى "الـرمزى".فـتجـاوز حـدود العلاقـات الحـسية والدلالات الوضـيعـة الضيـقة(٣)، وقد شـخص يوم الثورة "جنيـناً" وهو أمه، ورسم صوراً تـهيم بالتفاؤل لمقدم المولود القريب، ويرى فى حلمه "النبيذى" السعيد المنتشى مهد الضيف الحبيب :

هـنـاك رؤى مـــــــهـــــــده   نـبـــــــيـــــــذية المـنـبـع
حـــــمـــــام من الأغـنـيــــات   عـلـى جـــــــدول ممـرع (٤)

ويعتمـد أسلوب "التعبير الرمـزى" فشخص الرؤى وهى تجريدية بوصـفها نبيذية وهى حـسية، وجمع فى الصورة الثانية بأسلوب "تراسل الحـواس" بين اللون والحركة والصوت، عندما شخص

---

(١) "عازف الصمت سنة ١٩٦٣" من "فى طريق الفجر
(٢) انظر: د.على عشرى زايد: بناء القصيدة العربية الحديثة ص ١١١ وما بعدها.
(٣) انظر: د.محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية ص ٢٨٥ وما بعدها، فى تحليله للرمز عند الشاعر صلاح عبد الصبور.
(٤) "اليوم الجنين سنة ١٩٦٥" من "مدينة الغد".

الأغنيات وهى من مدركات السمع - حماماً، وهو من مدركات الرؤية واللمس، كما أوحى بالضوء المنبثق من الطبيعة المفعمة بالحركة: الحمام المرفرف والجدول، وذلك يدل على تعانق الجوانب النفسية والأشياء الخارجية فى الصورة للتعبير عن حالة الانتشاء "بالطفل"، ويمضى فى إطار رمزى قصصى، يمزج الأشياء والمشاعر:

هناك انتظار يحس خطاه وحلم يعى
ودفء صريع يحن إلى لمسه المبدع
وواد يصيخ إلى تباشيره اللمع
فأحلم أن الجنين وليد بلا مرضع
فألوى زنود الحنان على خصره الطيع
ويحبو على ساعدى فأرضعه أدمعى
وينأى فترنو الكوى يفتشن عنه معى
ويرتد حلم مضى ويمضى بلا مرجع
وتحتشد الأمسيات على العامر البلقع
فأرجوه أن يشرئب إلى شرفة المطلع
أمد له سلما إلى النور من أضلعى
وأشدو لميلاده ويصغى بلا مسمع
فأبكيه فى مقطع والقاه فى مقطع[1]

ففى القصيدة مستويان للرمز، المستوى الحقيقى الذى اتخذه الشاعر بمثابة القالب لعاطفته "وهو الجنين" المولود، ثم المستوى التجريدى الرمزى" [2] وهو يوم الثورة، الذى شارك فى مخاضه، وانتشى بسيرته، وأرضعه أدمعه وسقاه بدمه، فحبا على ساعده، ولكنه - الطفل الثورة - تاه إزاء الواقع وأنكر أمه - الشاعر أو الشعب - فمد له المساعدة بتنوير طريقه فلم يجب، وغناه فلم يسمع، فينفطر القلب بالحزن ويبكى على ضياع ذلك "الطفل العاق" الذى أشاح عن أهله وحرمهم من الانتساب إليه، إذن فالثورة اليمنية أخفقت فى تحقيق المطالب التى ولدت من أجل تحقيقها، كالحرية والعدل، وقد كانت تلك الفترة من تاريخ اليمن شائكة، وأرى أن الشاعر حاول استخدام

(١) نفسها.
(٢) انظر: الرمز والرمزية ص ٢٨٦.

الرمـز ليس خوفـاً، ولكن تأدبًا مع الجيش المـصرى الذى سـاند الثورة ولما يخـرج من اليمن بعـد، وخجلاً من إخوان النضال الذين ارتقوا المناصب العليا فى السلطة.

لم يرسم البردُّونى منهـجًا رمزيًا فى مخاض قـصيدته؛ فعنوانها حـال دون ذلك "اليوم الجنين"، بالإفصاح عن طرفى الرمز، فتـرقبنا خلال القصيدة توازيهما ونمو الصـراع بينهما، بالإضافة إلى أن الرمز كله جاء فى صورة حلم متعمد، يصدمنا بالمبـاشرة والواقعية، ويوحى بأن الشاعر يجد حرجًا فى ممارسة التعبير الرمزى بحرية فنية أوبمنهج رمزى مستقل:

- فـــأحـلـم أن الجـنـين ولـيـــد بـلا مــــرضـع
- ويـرتـد حـلـم مـــضـى ويـمـضـى بـلا مـــرجـع [1]

وفى قصيدته "الفاتح الأعزل" يعبر عن سطوة الزمن وجبروته، محاولاً إدراج البناء الشعرى فى الإطار الرمـزى، فيـرمز إلى الزمن دون تصـريح، ويسند إليـه القوى التى تمتلك التـغـيير، ويهـمى بالصور التـى تلتف حول المغزى وتظـهره فكان أسلوبه أقرب إلـى الغموض منه إلى الرمـز بمعناه الأدبى أو كمذهـب له أصـوله ومناهجه[2]، فالشاعـر هنا يشخص الزمن المجرد فى كثـافة تصويرية متشابكة، فـيأخذ مدلولاً خفيًا وغامـضاً، فهو إنسان منسى على مقعـده، وحريق يبحث عن اتقاده، وطفل تائه على صدر أمه التى تبحث عنه، وعصفور حبيس، وحلم ظامئ، وطيف أحول، وباحث عن الأجمل، وفتاة خجول تبحث عن الغزل وتستجديه:

ســـاه فـى مـــقـــعـــده المهـــمـل كـــســـؤال يـنـسـى أن يســـأل
كـــحـــريـق يـــبـــحـث عـن نار فـــيـــه عن وقـــدتـه يذهـل
كـــجـنين فـى نـهـــدى أم لهـــفـى تتـــمـنى أن تحـــبـل
يطـفـــو ويـقـــر كـــعـــصـــفـــور تواق فـى قـــفص مـــقـــفل [3]

لم يفصح الشاعـر عن الجانب التجريدى من الرمـز ولكنه لم يلق ضوءاً نتبعـه ونستنطق أبعاده ليكون فى النهاية مـدلولاً ماديًا يعادل المدلول الرمـزى التجريدى، أو يشيـر إليه بإحدى خصـائصه الوضعيـة، فندركه بعد عناء وشوق لمشاركة الشاعر تجـربته الحية، أو يتـولد فى أذهاننا تام الأركان

(١) "اليوم الجنين سنة ١٩٦٥" من "مدينة الغد"
(٢) انظر: الرمز والرمزية ص ٦١ وما بعدها.
(٣) "الفاتح الأعزل سنة ١٩٧٢" من "لعينى أم بلقيس"

بعد قراءة القصيدة وفهمها، بل جاءت القصيدة ضربًا من الصور المتناحرة التى لا يجمع بينها إلا مؤثرات الدهشة والإغراب والتهويم.

وإذا كان "الرمز الشعرى يبدأ من الواقع المادى المحسوس، ليحول هذا الواقع إلى واقع نفسى وشعورى تجريدى يند عن التحديد الصارم"(١)، فإن البردُّونى بدأ بحشد من الصور المشعة بالغموض، والتى تتراكم فتنشئ، مدلولات مجردة، ويأتى - فى القصيدة - الواقع بعد ذلك من غمار التاريخ العربى والعالمى القديم والحديث، وكل الصور تتلاقى فى وحدة واحدة، هى وحدة الفاعل "الزمن"، كما يستعين ببعض الأمثلة والألغاز الشعبية الدارجة ليؤكد ذهنية "الزمن" الذى يقربه من مفهومنا بأنه صانع التاريخ والمعجزات وأحداث التغيير والتحول وعدم الثبات، فمثلاً يقول:

يغـــزو الأقــــمــــار ولا يعــــيى ويخـوض البـحـر ولا يـــتل (٢)

فعجز البيت لغز شعبى دارج لا يتفق ومفهوم البناء الرمزى أو التشخيص الرمزى؛ ذلك لفرط حسيته وسطحيته التصويرية، كما لا تخفى المبالغة والمباشرة والسطحية أيضًا فى صدر البيت.

فالصورة الرمزية عند البردُّونى - فى محاولاته الأولى - تفتقد إلى التركيز، وشمول الرمز طرفى الصورة اللغوى بدلالته المادية، والإيحائى بدلالته التجريدية، على أن يكونا متوازيين فيها، وفى منأى عن المباشرة، ليبرز كل مستوى بدلالته الخاصة، ويتلاشى الفرق بين الدلالتين تدريجيًا "بمعنى" لا يتجرد الرمز عن دلالته الواقعية المادية على الإطلاق، وإنما يشف عن دلالته الإيحائية من خلال هذه الدلالة الواقعية ذاتها، وبهذا يصبح للرمز مستويان من الدلالة، مستوى الدلالة الواقعية المادية ومستوى الدلالة الرمزية التى يشف عنها الرمز من خلال الدلالة الواقعية المادية"(٣)، كما يؤخذ على الشاعر "اعتقاده أن البساطة الموحية تأتى من احتذاء الواقع"(٤) فاجتر من مخزون الصور فى أذهان العوام أمثلة شعبية وحكمًا تاريخية للاتعاظ بها، مما جعل الإيحاء بالرمز ضربًا من السطحية والمباشرة" مع أن الفن ليس محاكاة للواقع بقدر ما هو نظرة إلى الواقع بمقياس الذات"(٥)، كما يؤخذ عليه تراكم الصور غير المتجانسة وغزارتها، ظنًا أنها تكثف الإيحاء الرمزى،

(١) بناء القصيدة ص ١١٣.
(٢) "الفاتح الأعزل سنة ١٩٧٢".
(٣) بناء القصيدة ص ١٢١.
(٤) الرمز والرمزية ص ٢٨٧.
(٥) نفسه ص ٢٨٧.

فى حين أنها تبديد لمحاولة كشف الرمز المبكر.

ب – الصورة والسريالية :

وتتخطى الصورة حواجز الرمز بدلالتيه المتوازيتين: المادية والإيحائية، إلى بناء لغوى يقوم على الخلط التصويرى السريالى الذى يجمع من الرمزية "غرابة العلاقات الأسلوبية بين طرفى الصورة والتى تقوم على المفاجأة لاعلى التوقع[1]، إلى جانب أهم عناصره: التشويه، وبالمفاجأة والتشويه تخوض الصورة عوالم بكراً من المشاعر الإنسانية الغافية والمكبوتة بالوعى، والتى لا تتجسد إلافى عالم الأحلام والكوابيس، وذلك هدف فى حد ذاته عند شعراء الرمزية والسريالية "أن تهتم الصورة بإثارة التجربة العاطفية أكثر من اهتمامها بتدرج العناصر الصورية تدرجًا برهانيا"[2]، مع الأخذ فى الاعتبار أن "وحدة الصورة الرمزية – وكذلك السريالية – وحدة نفسية"[3]، تعكس الظواهر والمشاهدات من خلال الذات المشوهة أو التى تعتمل التشويه فى ظاهر الأشياء؛ لا ستكناه باطن الإنسان وكوامنه، فتبدو الصورة فى بساطة، حلمًا واقعيًا يستثير من الإنسان فوق ما يريد الشاعر، ولذلك "يكتفى السريالى فى حلمه بالتقاط أول ما يرد إلى الذهن فى تلقائية ودون عناء"[4]، ودون تعديل فى انتقاء اللغة، التى تم انتخابها لحظة انبثاق الصورة "فالشاعر بذلك يفكر بالصورة". [5]، "ويمزق بها النظم التقليدية، ويتجاوز القوانين الظاهرة، ويتيح للخيال أن يجىء بالنقائض، وأن يجمع بين الأشياء المتنافرة، وأن ينظمها فى سلك واحد"[6]، وليس مبالغة أن ترتقى الصورة الشعرية إلى تلك الكثافة الموحية المشعة بالغريب، لما تحفل به من موسيقى مجردة محلقة، ولغة ذات دلالات مزدوجة وعميقة، وتراكيب تصنع الدلالات المبتكرة والإيحاءات الخصبة.

ولننتقل إلى صورة البردُّونى لنرى إلى أى مدى تحقق فيها هذا الحلم السريالى:

عندما تكشف له أن لبعض الأحرار يدًا فى إخفاق الثورة عن جهل وغباء، رسم صورة ينطلق

---

(١) الرمز والرمزية ص ٣٤٨.
(٢) نفسه ص ٣٤٢.
(٣) نفسه ص ٣٤٢.
(٤) نفسه ص ٣٤٦.
(٥) نفسه ص ٣٤٦.
(٦) الشعر العربى المعاصر ص ٦٦.

فيها من تشخيص الثورة الشهيدة شاهدة عليهم إلى تراسل معطيات الحواس والمفاجأة والتشويه:

وأرتها خوالجُ الذّعر وجهاً ... بربرياً كباب سجن كثيف
وجلوعاً ، لها وجوه وأذقانٌ ... وإطراقةُ الحمار العليف (١)

لقد غدا كثير من الأحرار يهاب مواجهة المبادئ الثورية التى ناضل من قبل لتحقيقها؛ لأنه تحول إلى النقيض، ويطفو ذلك الخوف النفسى على اللغة بإيثار تراسل الحواس "ليتمكن من تصوير مشاعره وأفكاره فى سعة وحرية"(٢)، فالوجه وهو من مدركات البصر أصبح من مدركات السمع، وذلك من وصفه بالبربرية إذ إنها: "الخلط فى الكلام مع الغضب والنفور"(٣)، ثم يأتى الوصف بشبه الجملة "كباب سجن كثيف" تعميقًا للوصف الأول الذى بدا وكأنه أصل فى العلاقات بين الوجه والصوت؛ لتعميق معنى الخوف من مسلك الأحرار أو بعضهم تجاه مصالحهم الخاصة دون الوطن والشعب، ولكى يوحى بذلك المعنى الواضح، يوحى بالكبت النفسى فى صورة ضجيج ينبعث من خلف باب السجن، وهنا يأخذ الوجه تعابير الخوف من خوالج النفس، ويستقطب ظلال الأصوات الغائرة تعبيراً عن الظلم الواقع على فئات من الشعب، ويبرع البردُّونى فى التشكيل بالضوء داخل الصورة؛ إذ إنها تفيض بالسواد والقتامة من: خوالج، كباب سجن كثيف، وليوحى بأبعاد تأثير الوجوه المخيفة، مثلها جلوعًا تحيط بالثورة الشهيدة، وغدت التداعيات فى الإطار النفسى تجسد معانى الغباء والحمق، فيفجأنا بمشهد "الحمار العليف" وهو مطرق كما يطرق المستفيدون من الثورة، ورغم اعتياد المشهد بالنسبة للمتلقى فإنه يبعث على الدهشة عند اقترانه بالصورة.

إذن كانت الجوامد والأحياء والأشياء عناصر لغوية فى تركيب تلك الصورة، ليضخ من خلال التشابك والخلط مؤثرات للمشاعر البعيدة فى النفس.

وقد يؤخذ على البردُّونى فى هذه الصورة بحثه عن مبرر لذلك النمط من التصوير، فذعر الشاهدة المعتمل فى داخلها هو المسوغ لارتداده على مشاهداتها، والبحث عن المبرر يقف حائلاً بين المتلقى وصدق الانفعال الذى افتقده الشاعر.

لقد كانت البداية السريالية صوراً متناثرة فى ديوانه "فى طريق الفجر"؛ لأنه ضم قصائد

---

(١) "الشهيدة سنة ١٩٦٥" من "مدينة الغد"
(٢) الشعر العربى المعاصر ص ٥٦.
(٣) لسان العرب ص ٢٥٤ مادة "برر".

عاصرت محنة الثورة ومجتمع المتناقضات آنذاك، ومن تلك الصور التى ترصد نزوع الإنسان وتحوله من القوة إلى الانتهازية:

ونلمح فوق امتداد الدروب سياط الخطايا تسوق الزحوف
ومقبرة يظمأ الميتون عليها ويحسون وعداً خلوف
ومجتمعاً حشرياً يحن على غير شيء حنين الألوف
ويعدو على دمه كالذئاب ويلقى الذئاب لقاء الخروف [1]

فالظلم مازال قائما والشهداء أموات قتلى فى غير شهادة، لأن الوطن لم يستقل ولم يتحرر من العبودية، والمجتمع يأكل القوى فيه الضعيف، ويدعى حنين الإنسانية، ويسعى إلى الدمار.

وتأخذ الصور السريالة مكانًا فى دواوينه بعد ذلك، حتى خرج ديوانه السابع "زمان بلا نوعية"[2] سنة ١٩٧٩ مصدراً برسم يستوحى لوحة "سلفادور دالى" رسام السريالية الإسبانى الشهير "الزمن السائل" أو الساعات السائلة" ويستثير الرسم على الديوان كوامن الخوف من فوضى الزمن وطوفانه الذى يجتاح الإنسانية بالموت والفزع، والبردُّونى فى ذلك الاستلهام يؤكد على فكرة طغيان الزمن وأن الإنسان آلة لتنفيذ هدفه، وهو تعبير بصورة أخرى عن فكرة الزمن عند المتنبى.

وقد رصد الدكتور عبد العزيز المقالح الأديب والشاعر اليمنى ظاهرة السريالية فى تقديمه "لديوان البردُّونى"[3]، الذى ضم ستة دواوينه الأولى فى مجلدين، وقد تصدرت هذه المقدمة كتاب الدكتور المقالح "شعراء من اليمن"[4]، وقد جاء فيها عن سريالية البردُّونى: "إنه يقرأقصائد جديدة، يحلق فى عوالم جديدة من الشعر العربى الحديث ومن الشعر العالمى المترجم، ثم إن الواقع اللامعقول يستدعى ظهور لغة جديدة، لغة تجمع بين الحقيقة والخيال، بين الواقع واللاواقع، بين المعقول واللامعقول، وذلك ما يتجسد فى قصيدة "يداها":

مثلما يبتدئ البيت المقفى رحلة غيمية تبدو وتخفى
مثلما يلمس منقار السنى سحراً أرعش عينيه وأغفى

(١) "عازف الصمت سنة ١٩٦٣" من " فى طريق الفجر".
(٢) "الطبعة الثالثة، دار الحداثه، بيروت ١٩٨٧م".
(٣) الطبعة الأولى، دار العودة، بيروت ١٩٧٩م.
(٤) دار العودة، بيروت ١٩٨٣م.

هكذا أحسو يديك إصبعاً		إصبعاً ، أطمع لو جاوزن ألفا
مثل عنقودين ، أعيا المجتنى		أى حباتهما أحلى وأصفى
هذه أملى ، وأطرى أختها		تلك أشهى ، هذه للقلب أشفى
هذه أخصب نضجاً ، إننى		ضعت بين العشر ، لا أملك وصفا(١)

اللغة هنا - والكلام للدكتور المقالح - تهدم المألوف، وحديث الشاعر عن يدى الحبيبة، عن أصابع هاتين اليدين، وفى الحديث عنها قدر كبير من السريالية، وما يحرر الشاعر من الوقوع النهائى فى قبضة السريالية هى البيتية، هذا النظام الشعرى الذى يجزئ الصور فى وحدات كاملة ويمنع امتدادها، وقد بدأ هذا الاتجاه مع الشاعر منذ ديوانه "مدينة الغد" وهو ديوان حافل بالقصص الشعرى والصور السريالية :

حتى احتستها شفاه الباب لا أحد		يومى إليه ، ولا قلب له يجف
وظن وارتاب حتى اشتم قصته		كلب هناك، وثور كان يعتلف
وعاد من حيث لا يدرى على طرق		من الذهول إلى المجهول ينقذف
يسيح كالريح فى الأحياء يلفظه		تيه ويسخر من تصويبه الهدف(٢)

على أننى أرى أن البداية كانت من ديوانه "فى طريق الفجر سنة ١٩٦٧" كما سبق الاستدلال على ذلك.

وأورد بعض الصور السريالية التى يختلط فيها عناصر تشكيل الصورة، وتعمد إلى المفاجأة والتشويه والإغراب، فيصور بشاعة أسمار الليل القروية والتى تؤدى أحيانًا إلى عادات سيئة، كالثأر، وكالتسابق فى ترويج الفتيات لوافدين أثرياء من دول الخليج:

من متاه الظنون تستجمع الأسمار شعت الرؤى وفوضى المشاهد
بين جدرانها ركام الحكايا		من جديد القرى وأكفان تالد
وتجاعيد الشعوذات عليها		كرفاة تقيأتها المراقد (٣)

---

(١) "يداها سنة ١٩٧٤" من "السفر إلى الأيام الخضر".
(٢) "كانت وكان سنة ١٩٦٥" من "مدينة الغد"
(٣) "أسمار القرية سنة ١٩٦٤" من "مدينة الغد"

ويصور المادية المفرطة التى جمدت أمامها الإنسانية فى سعيها الحثيث لتحسين الأوضاع الاجتماعية، فنتج عنها انهيار القيم فى ضمير الأجيال الجديدة، حتى باعت الجوامد أعراضها تقليدا للإنسان:

جـثث تـسـيـر بلا رؤوس، حـارة   تقـتـات سرتها وفـيـهـا تغـتـفى
حـجـر بلا فـخـذيـن يزحف حـامـلاً   نهـــديه فى يـده : أياريـح اقطـفى
ورؤوس أطفـــال تقص رقـــابهـــا   عنهـا وتعلو كـالطيـور وتـنكفى [1]

ويكون وقع الصورة السريالية أشد تأثيرا إذا عرفنا أنها مشاهد "رصيف" الشاعر الناقد.

ويعبر عن تناقض الإنسان وانقسامه الروحى والنفسى بين المثالية التى يجرفها غضب السلطات والخضوع الذى يولد الذل والهوان:

فـــتـــغـــتلى فـى داخلى "كــــربلا"   نصـفى "حــسينى" ونصـفى "يزيد"
أمـشـى كـجـيـد وحـده لحظة   ولحظة رأسين من غـيـر جـيـد
أريـد مـــاذا ؟ يـا زمـــانا بـلا   نوعـيــة ، لم يدر مـاذا يـريد ؟
يـدل فـــخـــذاه يـديه ، يـرى   أخـشـاب عـينيـه بأذنى "لـبيـد"
بـلا أبٍ يـبــدو ، بلا ابنٍ وفـى   عـينيـه يدمى باحـثـاً عن حـفـيـد [2]

وذلك التصوير السريالى يستلهم التراث التاريخى والدينى والأدبى، إضاءات تخفف من حدة التصوير وجمود الخيال إزاءه.

وبالسريالية يبث الروح والحركة فى الأشياء الجامدة، ويعيد تركيب الواقع من أنسجة نفسه، إيحاء بالجمود المركب فى نفس الإنسان اليمنى، الذى لا يخطو تجاه تحرره من الجهل والفقر والمرض خطوات جريئة، تنير له استقلاله الفكرى وتحرره من أهواء مزاجه الخامل بتعاطى "القات" وهو بصورة غير مباشرة يلقى باللائمة على الحكومة:

ويحـصى الطريق ، جــدار مــشى   جــدار سيـمـشى ، جـدار هرب
ولا شىء غـيـر جــدار يقــوم   بوجـهـى ، وثان يعـد الـركب [3]

(١) "فكريات رصيف متجول سنة ١٩٧٧" من "زمان بلا نوعية".
(٢) "زمان بلا نوعية سنة ١٩٧٧" من "زمان بلا نوعية" والشاعر يستلهم بيت لبيد: إن الثمانين - وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان.
(٣) "اغنية من خشب سنة ١٩٧٤" من "السفر إلى الأيام الخضر"

ومع أن لليمن قلبًا طموحًا صلدًا فى إمكانه امتلاك المجد واستلابه ممن لا يستحقونه، فإنها عربية الحكم والانتماء، فيها الكسل والخمول والتراخى، وما القلب هنا سوى الشعب، وسمات العرب الحكومة التى فرض عليها الحكم سلفاً:

وأقعت لها قلب فاشية ووجه عليه سمات العرب (١)

إذن، كانت الصورة الشعرية عند البردُّونى خطوة واسعة فى طريق تجديد الشعر الحديث. مع الحفاظ على أبهى أشكاله المأثورة وأحلى موسيقاه، كما كانت الصورة الفكرة وطريقة التفكير، ومنهجا يبث به الآمال لنفسه ولشعبه اليمنى والعربى، كما كانت الصورة الشكوى والهم والسلوى، حملها من ذاته ففاضت وهى تنتهج العديد من أساليب التصوير عند المذاهب الأدبية.

○■○

(١) نفسها.

الخاتمة

يرتقى الشعر بما يحمل من ملامح الحداثة والمعاصرة، مع تصوير الذات الإنسانية التى تستشف الواقع وماوراءه، والماضى والمستقبل، رؤى وافكارا تأخذ بناصية الإنسان فى دروب فكرية وسلوكية محددة، وإن الواقع وحده يعتبر الخطوة الأولى فى تشكيل التجربة الشعرية، والواقع والتجربة المعاصرة، وجهان فى جسد واحد ، فالتجربة الشعرية تغلغلت فى أغوار النفس ، لتصور أبعادها المشتتة المتناثرة بين المادية والمثالية ، وهنا أخذ الشعر دور المحاكاة للواقع دون محاولة الارتقاء الجاد بالواقع والإنسان، وليس معنى ذلك أن الشعر يجب أن يكون تعليميا، ولكن الشعر فن عظيم، والفن ماكان إلا لخلق صلة قوية بين الإنسان والخالق والكون والإنسان، هذه الصلة هى شعور القوة فى الانتساب إلى الجماعة البشرية منذ الخليقة إلى الأبد البعيد ، فالمحاكاة إذن وقفت عند حدود الرصد ، ولم تشأ أن تتجاوز الرصد إلى الخلق والإبداع.

لقد ولدت القصيدة العربية التراثية تصور النفس والناس والأحداث ، وتنغم الواقع بالموسيقى المنتظمة، وتؤثر بالكلمة والجملة وتخترق الوجدان ببيت منها حتى عرفت قصائد كثيرة ببيت فيها ، كما عرف الشعراء ببيت فى قصيدة ، وتمر سنوات وقرون وتظل هذه القصيدة شاهدة على ميلاد الشعر العظيم وأهله ، ومازالت هى النواة الأولى فى تخلّق الموهبة الشعريه الفطرية، ومن اليسير أن تكون هى الجديد المتطور لا أن تكون القديم المتروك، فمن إمكانات القصيدة التراثية الفنية، يمكن للشعر أن يعود إلى القمة ، لأنها مازالت مؤثرة فى الوجدان العربى ، ولأنها من التقاليد التى يجب أن تحيا كما أحيا كثير من شعراء أوروبا تقاليدهم الشعرية. حتى لا يضلوا فى التمذهب وشتاته الفنى، وتجربة الشاعر الإنجليزى إليوت جديرة بالبحث عن الأسباب التى دفعته إلى أن ينادى بالتقاليد الشعرية.

وهناك فرق شاسع بين بناء متماسك وجدانيا وفنيا ، وبناء مستحدث يبحث له عن أصول وجذور فى عمق الشعر العربى ، إن الشعر الحر يحاكى الواقع فقط ، لا يضيف إليه شيئا ولا يحمل من التطور والتجديد إلا الأفكار وشيئا من حرية التعبير والتصوير، ومابرع فيه إلا من برع فى القصيدة التراثية، غير أن شعراء القصيده التراثية قادرون على استقطاب الجديد فى بنائهم التراثى، بما يملك هذا البناء، وبما يملكون من قدرة فنية وفكر متطور ومفهوم عميق للحداثة

الشعرية وثقافة عريضة فى جوانب العلم والفكر، وكثير هؤلاء الشعراء، إلا أنهم لا يزاحمون وقد قصد إلى خفض أصواتهم ليسمع آخرون.

إن الشاعر اليمنى عبد الله البردُّونى لم يكتب إلا فى البناء التراثى، وقد بلغ من التطوروالتجديد ببنائه مالم يصل إليه الشعر الحر أبدا، فقد جدد فى البناء نفسه ولم يخرج عنه، فابتدع أوزانا موسيقية من بيئته الفنية، ونسج على أوزان لم ينسج عليها الشعراء قبله، وقد شارك شعراء العصر الحديث فى استخدامات حديثة لبعض الأوزان، واستخدم أنظمة فى الوقف تتجاوز حدود الشطر والتفعلية والبيت، والوقف هنا يخضع لإيقاعه النفسى، ويخضع لزفراته التى تسمع من خلال قراءة المتلقى لشعره، وأبدع فى اللغة، فاستخدم معجمه الخاص بعد رحلة شاقة فى الاشتقاق والتوليد، واستخدم الكلمات الغريبة النادرة والأجنبية دون تكلف أو عمد إلى حداثة ظاهرة جوفاء، وكان له خصائص لغوية فى شعره جديرة بالدراسة والبحث، كما استحدث أساليب شعرية من مجموع ثقافاته وتعددها وتشعبها، فاستخدم الموروث ووظفه ببراعة فى تجربته المعاصرة، وعمد إلى إبداع ألوان من الصور الشعرية لم تكن من قبل، وقد وقفت فصول اللغة والأسلوب والموسيقى والصورة على مجالات إبداعه وحددت أبعادها ومصادرها.

وبعد فإن القصيدة التراثية حريّة بالاهتمام والبحث والدراسة، فما زالت ولن تزال نور الشعر إلى الأبد؛ لامتلاكها من القدرات الفنية مالم يكتب لغيرها، ومن تجاوز الحق أن تركن الدراسات الحديثة أو أغلبها إلى الشعر الحر وحده وتترك وجه الأصالة الشعرية باعتباره قديما، وما كل قديم يصدأ، وما وكل جديد يعمر، وإن الالتزام بالشعر التراثى، هو التزام بالأصالة والتقاليد، والحداثة تتولد من قدرة الفنان على استقطاب هذا الجديد.

O■O

حسن يوسف اللموشي

حسن يوسف اللموشي

الفهرس

عبد الله البردونى

أحد الشعراء المعاصرين الذين ناءوا بثقل أمانة الكلمة الشاعرة، واستطاع أن يجردها سلاحاً وبلسماً فى أمته، واستطاعت الكلمة الشاعرة أن تصور الوجود والعالم والبشر والتاريخ والحياة فى ذاته خلف جفنيه المظلمين، كما استطاعت أن ترسم ملامحه النفسية الغائرة، التى تتحكم فى منطق الأشياء لتبنى له منطقه الخاص، وتبيح له التردد والاختلاف فى قضية واحدة، وهو فى موقفيه صادق الحس والمشاعر، لأنه لا يصور الحقائق الظاهرة، بقدر ما يصور أثر سباتها فى نفسه، وكم هى كثيرة وشائكة تلك القضايا اليمنية والعربية والإسلامية !



د. أحمد عبد الحميد

- من مواليد الإسماعيلية ٢٢/١٠/١٩٦٠م
- حاصل على ليسانس دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٨٣م
- ماجيستير الأدب العربي من كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٩٢م
- دكتوراة الأدب الأندلسى من الكلية نفسها ١٩٩٦م
- يعمل مدرساً للأدب العربى فى كلية الدراسات العربية والإسلامية جامعة القاهرة - فرع الفيوم .

